

الفكر التاريخي عند الإغريق

من هومر إلى عصر هيراقليطس



٩



تأليف: أرنولد توينبي

ترجمة: لمعي المطيعي

مراجعة: دكتور محمد صقر ضفاجه

الإلف كتاب

٥٦٧

الفكر الشاذ مخي عند الأغبريق

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية

الفكر الناظمي عند الأغريرق

تأليف

أرنولد توهينجى

مراجعة

دكتور محمد صقر خفاجة

ترجمة

لمعنى المطيبي

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك نوب (عماد الدين سابقاً)

١٩٦٦

هذه ترجمة كتاب :

Greek Historical Thought

تأليف :

Arnold Toynbee

تعريف

ولد المؤرخ المعاصر « أرنولد توينبي » في لندن - ١٤ أبريل عام ١٨٨٩ .
ودرس الأدبين اليوناني واللاتيني في جامعة أكسفورد . وفي عام ١٩١٩ عين
أستاذاً للأدب البيزنطي بجامعة لندن . وبدأ يشرف على المعهد الملكي للشئون
الدولية منذ عام ١٩٢٥ ، كما عين أستاذاً للتاريخ العام في جامعة لندن . وفي عام
١٩٢٢ بدأ يضع الخطوط الأولى لمؤلفه الضخم (دراسة التاريخ) وصدرت منه
المجلدات الثلاثة الأولى عام ١٩٣٤ .

وإذا كان المؤرخ « أرنولد توينبي » قد شهر بين المهتمين بالدراسات التاريخية
بفضل هذه المجلدات ، فإن الكتاب الذي تقدمه لقراء العربية لأول مرة ، يعتبر
المدخل الحقيقي لدراسة التاريخ .

ويمكن تلخيص نظرة توينبي إلى الحضارة والتاريخ في عبارة صدر الناشر بها
هذا الكتاب وهي : عالم واحد - ماض وحاضر ومستقبل .

وكتابتنا هذا ليس مجرد سرد تاريخي لتراث الإغريق ، وإنما هو يعبر عن
تحليل لفلسفة التاريخ وفن كتابته عند المؤرخين الإغريق ، ويسكشف في الوقت
ذاته عن مدى إيمان « توينبي » بأثر الحضارة الإغريقية في الحضارة الحديثة .

المرجم

المحتويات

صفحة

٩	تمهيد
٣١	مقدمة الطبعة الثانية

الجزء الأول

٣٣	مقدمات
٣٥	هيرودوت الهايكارناسي
٣٨	ثوكوديدس الأثيني
٥٤	بوليميوس الميجالويولي
٦٠	ديودورس الأجرىومي
٦٦	ديونيسيوس الهايكارناسي
٧٤	إنجيل القديس لوقا
٧٤	فلافيوس يوسيفوس الأورشليمي
٨٧	آريان الفيكوميدى
٨٨	آبيان السكندري
٩٥	ديوكاسيوس قوقيانوس النقاىوي
٩٦	هيروديان السورى
٩٨	يوناييوس السرديسي
١٠٢	ماركوس الشاس
١٠٥	پروكوبيوس القيصري
١٠٩	أجاثياس الميرهيني
١١٦	ميناندر الديدبان
١١٧	ثيوفيلاكثوس سيموكانا المصري

الجزء الثاني

١٢٣	فلسفة التاريخ
١٢٥	القسم الأول -- الثقلب
١٢٥	أوراق ورجال
١٢٥	الفناء
١٢٦	الكارثة الأثينية في صقلية
١٣٧	عبء مقدونيا
١٣٨	عبء روما
١٣٩	مصدق الكتاب المقدس
١٤٢	الموت ينهى المشكلة
١٤٦	ختال الزمن
١٤٨	القسم الثاني -- الكبرياء والقصاص والحسد عند الآلهة
١٤٨	الرواية المعتمدة
١٤٩	حكمة سولون
١٥١	درس بوليقراط
١٥٥	الرواية المنقحة
١٥٧	يوم الدينونة
١٥٧	المهر في السرج
١٥٨	الاتجاه العقلي
١٥٩	القسم الثالث -- التطور
١٥٩	الاضمحلال
١٦٢	عمل
١٦٤	عجلة الوجود
١٦٨	دورات الحضارة
١٧٠	تناوب التاريخ

صفحة	
١٧٣	شمول التاريخ
١٧٤	وحدة التاريخ
١٧٦	القسم الرابع - القانون والتعليل
١٧٦	الاحتمية
١٧٧	نذير
١٧٨	القانون القدير
١٧٩	القانون الطبيعي
١٨٠	البيئة والطبع
١٨١	البيئة والسياسة
١٨٢	البيئة والعنصر
١٨٤	تعريف أتيكا
١٨٥	التعليل جوهر التاريخ
١٨٥	أسباب بعيدة وأسباب قريبة
١٨٧	سلاوى الفلسفة
١٨٨	القسم الخامس - حجة وملاحظة
١٨٨	أصول العنصر الهليني
١٨٩	مصر مهد الحضارة
١٩٣	هل الكولجنيون مصريون؟
١٩٤	طوائف
١٩٦	انتقال الأبجدية
١٩٧	هل خان « بنو الكمايون » هيلاس؟
١٩٨	هل خان الأرجيشيون هيلاس؟
٢٠١	كيف أنقذت أثينا هيلاس
٢٠٢	الآثار الاجتماعية للحرب الفارسية الكبرى
٢٠٣	تأثير قوة البحر على التاريخ
٢٠٧	الطاعون في أثينا

الجزء الثالث

القسم الأول — مسائل فنية ٢١٥

الإشكال الزمني حول هرقل ٢١٥

تقويم مصرى وتقويم هليينى ٢١٧

دليل كتابى ٢٢٠

مكان الجغرافيا فى التاريخ ٢٢١

منهج الفصول المتعاقبة ٢٢٤

(أنا) فى الرواية ٢٢٦

الخطب : مكانها الملائم وغير الملائم ٢٢٦

الحديث والرواية فى التاريخ ٢٢٨

ما الذى يصنع موضوعاً تاريخياً حقاً ٢٤٠

القسم الثانى — نقد ٢٣١

نقد بوليبيوس لزينون الرودى ٢٣١

نقد ديونيسيوس الهاليكارناسى لهيرودوت وثنوكوديدس وثيروبومبس ٢٣٤

هل هيرودوت مفرض ؟ ٢٤٠

نقد لوكيان الساموساطى لمعاصريه ٢٤٦

الجزء الرابع

ختميات ... نهايات ٢٥١

كسينوفون ٢٥٣

بوليبوس ٢٥٣

مقدمة

بدأ الفكر التاريخي القديم عند الإغريق أو الهيلينيين وقت أن تشكلت الأصول الأولى لشعر « هومر » في عقولهم . وانتهى حينما سلم « هومر » بألوية الإنجيل باعتباره الكتاب المقدس لدى المثقفين الناطقين باليونانية والكاتبين بها . وقد ظهرت النزعة الأخيرة في تسلسل مؤلفي التاريخ المتعاقبين ، فيما بين التواريخ التي أخرج فيها كل من . ثيوفيللاكتوس سيموكاتا Theophylactus Simocatta و « جورج البيسیدی » George of Pisidia مؤلفاتهما المتعاقبة ؛ ولما كان كلاهما يكتب إبان حكم « هرقل » Heraclius ، فقد وضع اسم ذلك الإمبراطور على غلاف هذا الكتاب بقصد توضيح أبعاده^(١) . وأيا كان الأمر ، فإن العملية التاريخية قلما تحدث طفرة ، وإن الانتقال من الحضارة الهلينية إلى الحضارة البيزنطية (والتي كانت هذه الثورة الأدبية إحدى ملامحها العديدة) قد استغرق فترة ثلاثة قرون كاملة من بدايتها إلى نهايتها ، ويتضح هذا بمجرد أن ندخل في نطاق نظرنا بعض الأوجه الأخرى للحياة . فإن « باولوس » Paulus مثلاً ، الذي كان في خدمة البيت الإمبراطوري ، وواحداً من مدرسة « أجاثياس » Agathias المؤرخ المعاصر له في فن قرض الشعر البسيط ، كان لا يزال ، في القرن السادس بعد المسيح ، قادراً على أن ينظم دون مشقة بلغة « ميمنرموس » Mimnermus وأوزانه ،

(١) حكم هرقل من عام ٦١٠ - ٦٤٠ م وهو البطل في قصيدة جورج التاريخية ، بينما كان البطريرك سرجيوس Sergius ساعده الأيمن نصير ثيوفيللاكتوس . وأى قارئ ملم باليونانية ما عليه إلا أن يلقى نظرة على الابتهالات في قصيدة جورج (نشرها عام ١٨٣٦ « بيتشر » J. Becher في بون — Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae) نيدرك لماذا استبعدها المؤلف من هذا الكتاب باعتبارها غريبة على التراث الهليني . ومن جهة أخرى ، أوردت مقدمة ماركوس الشماس Meracus the Peacon لحياة « بورفيروس الغزي » Porphyrius of Gaza باعتبارها من أول الأمثلة الهامة للفكر الجديد الذي كان نفرو (الهلينية) فعلاً .

وإن كان موضوع أطول قصائده وأكثرها شهرة هو (كنيسة آيا صوفيا)
Hagia Sofia ، تلك التحفة المعمارية التي تتباين كل التباين، أوتكاد، مع مظهر
أى أثر هلينى فى (كولوفون) Colophon أو (إفسوس) Ephesus أو (أثينا)
Athena . وفى نفس الوقت يظهر هذا التباين فى مجال الدين . فالاعتقاد الذى قوامه
السكبرياء والقدر المحتوم والنقمة عند الأرباب ؛ هذا الاعتقاد البدائى العميق ، إنما
يعبر عن خصائص الهلينية فى نظرتها إلى الحياة . ويبدو هذا الاعتقاد جلياً فى أقدم
أشعار هوميروس ، ونحن نورده مصحوباً بالاعتقاد التهكمى القديم فى آخر
جملة من المقطوعة الأخيرة مترجمة فى كتابنا هذا . وتتضح روح هذا الدين
الهلينى القصح ، فى كل جوانب الأدب الذى تشيع فيه ، إلا أن مخص
المقطوعة التى تحمل عنوان (اللادرية) والى ترجمت عن « أجاثياس » السلف
المباشر لـ « بروكوبيوس » Procopius ، إنما يفصح عن حقيقة مؤداها أنه فى
منتصف القرن السادس بعد المسيح انقرضت الديانة الهلينية — حتى فى قلوب
الرجال الذين تلقوا التراث الأدبى الهلينى والذين ما فتئوا يسبحون بأرباب الهلنيين .
وفى خذلقه تذكرنا بأسلوب هيرودوت ، يتمتع « بروكوبيوس » عن مناقشة
(أسرار) الجدل المسيحى المعاصر على أساس أن الموضوعات محل النزاع القائم ،
إنما هى بطبيعتها مما لا يدركه العقل الإنسانى ، ويعرض ، دون أن يعمد إلى ذلك ،
ما يعتقد أنه الحقائق البديهية المجردة التى تتصل بذات الله . إلا أن أى شخص
يمكنه أن يقف من خلال هذه الصفحات ، بالأحرى ، من مؤلف « ف .
م . كورنفورد » Cornford — على النظرة الهلينية الحقيقية إلى الدين ، سوف
يدرك على الفور أن بديهيات « بروكوبيوس » لا بد وأن تكون قد بدت
« لهيرودوت » Herodotus أو « ثوكوديديس » Thucydides أو « بولوبيوس »
على أنها من أسباب الخير والشر الرئيسية . مسكين بروكوبيوس ! ألا ما أعمق
غمته لو أنه استطاع أن يتحقق من أن عجزفته العقلية ، ما كانت لتجديه فتيلاً ،
بأية صورة من الصور ، إزاء تقدير نماذجه الأدبية الكلاسيكية ، بل من شأنها أن تضعه

بلا وازع من ضمير في مصاف «هيباتيوس» Hypatius و«ديمتر يوس» Demetrius
المبجلين ، بل كذلك مع صاحب الجلالة المقدس الملك جستنيان Gustinian
ذاته ، بصفته طرازاً مؤقتاً يصور عصره لين العريكة .

لقد كانت نقمة الأرباب أمراً خطيراً بالنسبة للهيلينيين ، إذ أنهم آثروا أن
يدخروا كنوزهم حيث تأكلها العثة * ويفسدها الصدأ ، ويتسلل اللصوص
فيسرقونها . لقد كانت مملكتهم ، يقيماً ؛ مملكة من هذه الدنيا . وقد نصح
« بر كليس » Pericles مواطنيه أن يدعوا عظمة أثينا تستقر في أفهامهم ، لا أن
يمروا عليها بشكل عابر ؛ (فالخلاص) الذي كان موضوع النقاش في (ميلوس)
Melos كان يعني أن ينجو الهدن وحده من القتل أو العبودية ولم يكن يعني
أن تفلت النفس من قيود الإثم أو الضياع^(١) ؛ (فالخلص) بالمعنى الصحيح في
عرف اليوناني ، هو « بطليموس » Ptolemy بن « لاجوس » Lagus ،
الذي انتزع لنفسه بنجاح هذا اللقب من « زيوس » Zeus إلى أن نزل عنه
لصعلوك من سلالة رعاياه الشرقيين . أما الخطيئة التي أبي « بولوبيوس » إلا أن
يسدل الستار عليها ، فقد كانت حماقة سياسية تمكن بها « ديايوس » Diaeus
ورفاقه من تدمير الوحدة الآخية Achaean . وبعبارة أخرى ، كان العالم الهليني
(وهنا تكمن أهميته الفائقة بالنسبة إلينا) أقرب ما يكون إلى العالم الذي نعيش
فيه الآن ، وذلك في مقابل السماح المسيحي الذي يتوسط بيننا من الناحية الزمنية ،
أو في مقابل تلك الديانة التي لم توجد بعد ، والتي من شأنها ، دون شك ، أن تدخر
كنزاً جديداً في سماء جديدة حينما تأخذ دنيانا في الزوال ، لتستقر في النهاية هي
الأخرى كسابقاتها في (خضم لا قرار له حيث لا تناسب بين جميع الأشياء .)

ولا يتسع المقام في حدود هذه المقدمة إلى أن نعرض أي حاشية للتراجيم ، منها

كانت مختصرة ، تتناول مؤلفي التاريخ ممن ورد ذكر أعمالهم في متن الكتاب^(١) ، وإن كانت ملاحظة عامة أو ملاحظتان قد تساعدان على إيضاح الأمر . ويأدى ذى بدء ، لم يكن المؤرخون الهلينيون (خاصة أعظم هؤلاء المؤرخين) من أصل هيليني خالص . فقد جاء « هيرودوت » من مجتمع (هاليكارناسي) الذي يتحدث باللغتين الهلينية والكارية Carian ، و « ثوكوديدس » رغم أنه أثيني المولد وظل مواطناً أثينياً (حتى وقت نفيه) ، فقد جرت في عروقه^(٢) دماء تراقية Thracian ؛ وكان « يوسف » Josephus يهودياً و « بروكوبيوس » فلسطينياً . وقد جرت العادة منذ عصر الإسكندر وما تلاه على عدم الإشارة إلى أن المؤرخين الهلنيين قد وفدوا من سائر الشعوب التي ذاعت بينها بشارة الهلينية تدريجياً . وبهذه الصورة ، فإن المدرسة التاريخية الهلينية لم تقصر نفسها على اللغة اليونانية ، وكان يمكن توضيح ذلك في هذا الكتاب لو اتسع المجال ، بتضمينه ترجمات من اللغة اللاتينية^(٣) ولقد مكنت رقعة روما السياسية المتسعة المؤرخين الرومانيين بشكل لا مثيل له ، من أن يجمعوا شؤون العالم ويربطوا مصيرها بمصير دولتهم ،

(١) بالنسبة إلى هذا أحيل القارىء إلى مؤلف « بيورى » Bury (المؤرخون الإغريق القدامى The Ancient Greek Historians وإلى الحواشى الرائعة الموجزة الشاملة الخاصة بالأسانيد في نسخة جيبون Gibbon .

(٢) حسب ما يعرفنا هو نفسه فقد حصل على امتيازات ملكية في مناطق التعدين التراقية في (بانجيم) Pangaeum ، ومن المحتمل أن يكون قد عكف هناك على كتابة تاريخه بعد الكارثة الحربية التي أدت إلى نفيه من أثينا .

(٣) إن المؤرخين الرومانيين الأول (مثل سلفهم الأول كسانثوس اللينى Xanthus The Lydean في القرن الخامس ق . م) قد وجدوا من الطبيعي جداً أن يمارسوا ما كلن يعرف بالفن الأدبي الهليني باللغة اليونانية — رغم أن بنور الهلينية قد سقطت في بعض الأحيان على أرض صخرية ؛ لكنهم أظهروا أصالة أعظم من الأناضوليين والسوريين المصطبغين بالصبغة الهلينية ، كما أنهم نشروا ترجمة للأدب الهليني في لغتهم الوطنية . وفي نفس الوقت فإن حق الأدب علينا أكثر أهمية من الأصالة اللغوية ، ويعتبر التراث الروماني منقولاً عن الهلينية كما كانت الإمبراطورية الرومانية بمثابة الطور الأخير في المجال السياسى للمجتمع الهليني . وعلى العكس ، فهناك أعمال تاريخية في اللغة اليونانية القديمة (كتبها الأدباء اليسوعيون الأول أو البيزنطيون الأواسط) وهي نتاج حضارات ليست هيلينية .

ولهذا ، فإنهم قد زعوا ، كما بين « ديونوسوس » Dionysius الهالكارناسي ، إلى خلق نوع جديد من الأدب التاريخي الهليني يمثل في التاريخ المحلي . ومن هذه الزاوية ، قدم لنا المؤرخون الرومانيون على نحو ما فعل زملاؤهم الأدباء الذين عالجوا الكوميديا الأخلاقية الأثينية ، قدموا لنا المادة الوحيدة تقريباً لإعادة بناء فرع فقدناه من الأدب الهليني ، وذلك حتى أعاد لنا الاكتشاف الحديث لكتاب « أرسطو » (دستور أثينا) ، التاريخ المحلي لأهم عواصم (هيلاس) Hellas نفسها في صورة موجزة .

وهكذا ظل تأثير الهلينية في مجال التاريخ وفي غيره من المجالات ، يشع في نطاق أوسع من اللغة اليونانية ومن الجنس اليزناني ؛ وهذه إحدى البينات الكبرى على عظمتها . وفي نفس الوقت ، فإنه من الصحيح أيضاً أن بعض صور إبداع الفكر التاريخي الهليني العميقة الرائعة ، إنما كانت بتأثير الاتصال بمجتمعات غير هلينية وقد تفتحت بصيرة « هيرودوت » بفضل دراسته للحضارة الإيرانية السورية التي انطوت عليها دولة الآخمينيين العالمية ، والتي حاولت في عصره أن تشمل العالم الهليني ، ولكنها أخفقت في ذلك . وكذلك تنبه « بولوبوس » بفضل إلهام إيطاليا الرومانية (التي جعلت رقعتها تتسع إلى الغرب) في وقت أحرزت فيه روما ، عسكرياً ، ما أخفقت في إحرازه فارس ، وكان الظافر في كل قطاع آخر من الحياة يقع أسير الهلينية^(١) . وكان « بولوبوس » الذي أتى من (ميغالوبوليس) Megalopolis في أعماق (أركاديا) Arcadia ، هو الوحيد من بين العبقرات التاريخية الثلاث للهلينية ، الذي كان هلينياً قحاً ، مقارنة بالمعنى الحيواني للكلمة والذي لا أهمية له ؛ إلا أن الحضارة في أي وقت معين من وجودها ، لا تكون بأية حال نتاج تحول فيزيائي أو نتاج بيئة محلية ، إنها خليط من القديسين (ومن

(١) خضع الرومان ، في كل شيء ما عدا الفتح العسكري ، للهلينية بشكل كامل أكثر من أي شعب شرقي طوروس Taurus ، ونقلوا طواعية عن الهلنيين حتى التكنولوجيا الحربي ، كما يتضح مما اقتبسنا ؛ من بولوبوس بعنوان (بذور على أرض طيبة) والذي ترجمناه في كتاب (الحضارة والسحرة) ص ٩٢ - ٩٣ .

الأشرار كذلك) يحوطهم ذلك الحشد العظيم من الشهود يزدادون باطراد، والذي ضم غالبية الجنس البشري، وعلى هذا فإن المعضوية في الحضارة أمر روحى أكثر منه مجرد انماء مادي. والذي يمكن تصوره، لأول وهلة هو أن « لاو نيكوس خالكوكونديليس » Laonicus Chalcocondyles المؤرخ الأثيني، الذي سجل في القرن الخامس عشر نشوء الإمبراطورية العثمانية، بلغة يونانية كلاسيكية رائعة وبأسلوب ترسم فيه بعناية أسلوب « هيرودوت » و « ثوكوديدس »، أمكنه أن يعود بنسبه إلى « اريخثيوس » Erechtheus أو « ديوكاليون » Deucalion من ناحية الأبوين بشكل قد يبدو أكثر صواباً مما فعله « ثوكوديدس » نفسه، وهو ما كان يمكن أن يظهر، لو أن خبيراً من خبراء الأثر بولوجيا فحص حالته، إذن لكشف عن سمة (هليينية كبيرة)، توضح منبته وملاجه. ورغم هذا كله، فإن « ثوكوديدس » سيبقى في القمة كأعظم المؤرخين الهلينيين دون منازع، بينما سيبقى « خالكوكونديليس » درة الحضارة البيزنطية — لا الحضارة الهلينية^(١). ولعله يكون لغواً من جانب (خالكوكونديليس » ومعاصره البيزنطيين في عصر الإحياء، أن يتمردوا على أبوة « ديوكاليون »، بينما لألقى سنة خلت، كانت ربة الإلهام قد أقامت لديوكاليون أطفالاً من بين أحجار (تراقيا) Thrace و (كاريا) Caria. وثمة سمة ثانية للفكر التاريخي الهليني، ألا وهي أنه لم يكن مجال من خلق مؤرخين محترفين. فالشعر الذي نظم في مختلف العصور، شأنه في ذلك شأن فلسفة أفلاطون والأدب الطبي للمدرسة الأبو قراطية Hippocrates يدخل ضمن مادة هذا الكتاب، لأنها تعبر بصورة أكثر وضوحاً من أى عمل تاريخي بالمعنى الفني للعبارة عن أفكار تاريخية هليينية رئيسية.

(١) يمكن أن نضيف، أننا إذا ما استعدنا أى عمل تاريخي من نتاج الحضارة المنويوية Minoan ونجحنا في تفسيره، فقد نجد أن هذه الأعمال (إذا ما جاءت من المستعمرات البرية في كريت) قد كتبت في شكل ما باليونانية. وأيما كان الأمر، فإن ذلك لن يجعل منها أعمالاً هليينية. وفي الحقيقة، سوف لا يكون باعثاً على الدهشة، إذا ما أظهرت هذه الأعمال قرباً للروح البيزنطية أكثر من الروح الهلينية.

وعلى العكس من ذلك ، فقد أسهم المؤرخون في الأدب الروائي وعلم الوراثة والأثرولوجيا والعلوم الطبيعية التي استبعدت من هذا الكتاب باعتبارها بعيدة عن موضوعه . وهناك أمر أكثر أهمية ، قصد إليه قصداً ، وهو أن الكتاب جاء غفلاً من الفقرات التي تتناول تاريخ الحرب . وقد يكون أكثر من أربعة أخماس (من باب الحدس !) الكتابات التاريخية الهلينية التي وصلت إلينا ، مليئة بوقائع تفصيلية عن العمليات الحربية — وإنها لحقيقة غريبة ، إذا ما وضعنا في اعتبارنا ما كان عليه الجمهور الذي كتبت له معظم مؤلفات التاريخ الهليني من عقل وبصيرة . إن حيز هذا المجلد ونصوص الأسانيد التي توافرت له ، جعل من الضروري أن نبتدأ أية محاولة تصور (من ناحية الكم) قدراً كبيراً من التاريخ الهليني خلاف ما يلقى ضوءاً على جوانب أخرى من الفكر التاريخي الهليني . فتاريخ فن الحرب في ذاته ، إنما يمكن تناوله بشكل سديد في مجلد مستقل في سلسلة المؤلفات التاريخية .

ولعل السمات التي ذكرناها لا تمت بشكل واضح إلى الكتابة التاريخية الهلينية . وثمة خواص أكثر ارتباطاً ، فإذا ما نحن ضيقنا نظرنا إلى المؤرخين أنفسهم ، وجدنا أن الغالبية العظمى منهم كانوا من الرجال العلمانيين . فتوكو ديديس وكسينوفون Xenophon . وبولوبيوس ويوسف (وهم أربعة من أعظم الأعلام الخمسة) ، كانوا رجال أعمال لامعين تحطم مستقبلهم ، فحولوا طاقاتهم إلى مجرى الأدب ، حينما حرمتهم نقمة الأرباب فرصة شغل مناصب الدولة ، وإدارة الأعمال العامة عن طريق الجمعيات السياسية ، أو تولى قيادة الأساطيل والجيش في الميدان . أما العلم العظيم الخامس ، وهو هيرودوت ، فحياته الخاصة تكاد تكون غير معروفة لنا . إن عقله ذا الاتجاه الفولتيري يوحى بأنه دقيق الملاحظة ، ناقد بفطرته أكثر منه رجل يشارك بطبعه في الأعمال ؛ ومع ذلك فإن عمله الذهني كان دائماً نشاطاً إنسانياً حياً ، لأنه درس التاريخ المعاصر له كما درس علم الاجتماع ، من الطبيعة ، في سلسلة من رحلات طويلة محفوفة بالمخاطر . وبعبارة أخرى ، كان يرقب بعيني «أوديسيوس» لا بعدييات «رانك» وهذه سمة تتميز بها المدرسة التاريخية الهلينية . وقد أخذ

« بولوبيوس » أيضاً ، يتوغل إلى الشمال الغربي في قلب العالم الهليني . وقتذاك كما توغل هيرودوت إلى الجنوب الغربي . أما « ديودورس » Diodorus الذي يتم عمله أحياناً عن الأداء المكتبي ، فلم يكن قانعاً (كما يحدثنا هو نفسه) بأن يقبع بين جدران المكتبات في (أجريوم) Agyrium أو حتى مكتبات روما . وفيما يتعلق بالمؤرخين الذين كان لهم حظ معاصرة عهود النمو أو فترات الاضطراب^(١) ، فإن أمر اتصالهم عن كذب بحياة مجتمعاتهم الإيجابية لا يدعو في واقع الأمر إلى الدهشة ، إلا إذا قورن ذلك بمظاهر الحضارات الأخرى . وأيما كان الأمر فحدير بالاعتبار ، أن هذه السمة لم تختف في أثناء الطور الثالث والأخير ، الذي كان فيه العالم الهليني يرفل في أغلال السلام الروماني Pax Romana بشكل سلمي ما . ففي ذلك العصر ، كان من المتوقع على الأقل أن يسود أسلوب المؤرخ الأكاديمي ، إلا أنه لا يوجد من عصر الإمبراطورية الرومانية غير « ديونوسيوس » و « يونابيوس » Eunapius ؛ وهما المثالان الوحيدان غير المشكوك فيهما ، من الطراز الذي وجد طريقه إلى المجلد الحالي . وقد كان « أريان » Arrian و « ديو » Dio من العسكريين وأرباب السياسة وذوى التجارب في الحياة العامة والمسئوليات العملية مثلما كان « كسينوفون » أو « بولوبيوس » . وأغلب الظن أن « هيروديان » Herodian كان في سلك الخدمة المدنية . وكان « آبيان » Appian إما موظفاً مدنياً وإما عضواً بمجلس الأعيان المحلي بالإسكندرية ، والذي كان لا يزال يباشر في عهده الإدارة المحلية . وكان « ماركوس الشماس » Marcus Diaconus من ذوى النظرة العملية (وفي بعض الأحيان كان يبدو شديداً التأثير للغاية) . أما « بريسكوس »^(٢) Priscus فقد كان محامياً ، وبالمثل كان « بروكوبيوس » و « أجاثياس » و « ميناندر » الأعلام الثلاثة المرموقون الذين أنجبهم القرن السادس بعد المسيح . وكانت المحاماة آخر مهنة

(١) يمكن تحديد هاتين الفترتين الأوليين من التاريخ الهليني تحديداً تقريبياً هكذا :

من ١١٢٥ إلى ٤٣١ ق . م ومن ٤٣١ إلى ٣١ ق . م . على التوالي .

(٢) ومنه اقتبسنا فقرة في كتابنا (الحضارة والحلق) ص ١٣٠ - ١٣٦ .

حرة وقفت في وجه تفكك المجتمع الهليني . ومع أن « أجاثياس » كان يشكو من أن هذا العمل لم يترك له فراغاً كثيراً لدراساته التاريخية ، فإننا لا نأسف عليه كثيراً ونحن نتأمل كيف أفاد خليفته « سيموكتا » من وقت فراغه المبدد .

بعد هذا العرض الموجز للمؤرخين الهلينيين ، والعالم الذي عاشوا فيه ، يجدر بنا أن نختتم الحديث بكلمة عن مناهج الترجمة . ففي رأى المترجم الحالى^(٦) ، أن الخطأ الجسيم الذي لا يمكن علاجه ، ويجدر بالعقل الغربى الحديث بأن يتجنبه ، هو أن يسمح لنفسه ، عند تناول أى فرع من فروع الأدب الهليني ، بأن تسيطر عليه فكرة بأن هذا كله إنما قد تم حدوثه وتدوينه والإحساس به إبان ألفين أو ثلاثة آلاف سنة خلت ، وكأنما قد دخل في ذمة القدم التاريخى ، ومن ثم يكون ، والأمر هكذا ، ساذجاً ضحل التجربة . والحقيقة التى تقوم بيننا وبين أسلافنا الغربيين لثلاثة أو ستة أو إثني عشر قرناً خلت في صورة واعية ، إنما تكاد لا تحتمل قياساً بعلاقتنا مع عناصر الحضارات الأخرى ، حتى ولو كان تاريخ حياة تلك الحضارات سابقاً على حضارتنا من الناحية الزمنية . وعلى الرغم من مثل هذه الأسبقية الزمنية ، قد ينطوى الماضى البعيد في الحضارات الأجنبية على ملامح قد تكون من الناحية الذاتية أقرب إلى حياة عصرنا من تلك التى يشتمل عليها الماضى القريب الذى انبثقت منه حياتنا . وبعبارة أخرى فإن الأسبقية الزمنية والتبعية الزمنية لها دلالة ذاتية ضئيلة أو ليست لها دلالة في غير محيط حضارة واحدة معينة ، بينما ، عند مضاهاة حضارات متباينة ، فإن العلاقة الزمنية المباشرة بينها عامل لاعلاقة له بالموضوع في معظم الأحيان ، ومن ثم فعادة ما يكون عاملاً مضللاً . أما في المعنى الفلسفى ، فإن الحضارات كانت ومازالت وسوف تظل متعاصرة الواحدة مع الأخرى . فهى جميعاً بنت الأسرة ذاتها ، وفي الجيل ذاته ، والفروق في الأعمار بينها فروق تتناهى في الصغر إذا ما قورنت بالعهد الطويل الذى عاشت خلاله الأسرة الإنسانية التى وجدت قبل مولد أية حضارة . وعلى هذا ،

* هنا يشير « أرنولد توينبي » إلى نفسه (المترجم العربى) .

ففي محاولة الوصول إلى معادلة بين حضارتين مستقلتين (وهذا ما يعنيه في النهاية النقل من اليونانية الغابرة إلى الإنجليزية الحديثة) قد يكون من المران المفيد للخيال أن نحدد بطريقة تقريبية ومتعارف عليها إلى حد ما ، نقطة بداية كل منها ، ونقيس الفترة الزمنية فيما بينها ، ثم نطرح مقدار هذه الفترة حتى يتسنى معرفة القرن في الحضارة المبكرة زمنياً ، والقرن المعين الذي يقابله في الحضارة المتأخرة حسب وجهة النظر هذه . فمثلاً ، إذا أخذنا عام ١١٢٥ ق . م على أنه العام المتعارف عليه للهيلينية ، والذي أخذت فيه الحضارة الهلينية تنبثق من بين حطام العالم المينوي وأخذنا عام ٦٧٥ م باعتباره العام المتفق عليه لنوع مماثل بالنسبة للغرب ، والذي أخذت فيه الحضارة الغربية تنبثق من بين بقايا الهلينية (في امتدادها الروماني) فسوف تقدر الفترة الزمنية بين التاريخ الهليني والتاريخ الغربي بحوالي ١٨٠٠ عام ، وهي فترة يلزم دائماً طرحها جانباً ، حتى يتيسر الوقوف على المقابلة في أية مرحلة بعينها ، على نحو ما يتم القياس من نقطة البدء لكل واحدة منها . ولعل من نافلة القول أن نقرر أن هذا المنهج لا يقصد به أن يكون مبدأ تاريخياً جامداً ، وإنما هو مجرد فرض للوصول إلى أسلوب دراسة مقارنة . وبالاستعانة بأداة القياس الافتراضية هذه ، يمكن لنا التحقق من أية أجيال هلينية وأية أجيال غربية ، كأن الواحد منها يقابل الآخر ، بمعنى أنهما كانا منفصلين من نقطة بدء كل منهما بفترة زمنية متساوية ، ومن ثم يكون كل منهما قد طوى بين جنبيه قدرًا متساوياً من التجربة التقليدية أو التراث الاجتماعي في شتى ميادين الاقتصاد والسياسة والأدب والفن والدين وما إليها (رغم أنه ليس من الضروري أن يكون القدر متساوياً في الكيف) وبهذه العصا السحرية في أيدينا ، يمكن لنا أن نلهي أنفسنا بنقل « بلوتارخ » نفسه (مثلاً) ، لا مجرد كتاباته وحدها ، من العالم الهليني إلى عالمنا ، فإذا ما فعلنا ذلك ، بدا وكأن « بلوتارخ » قد ولد في عام ١٨٤٦ وقدر له أن يموت في عام ١٩٢٥ وذلك على اعتبار أنه آخر وأعظم من بقى من العصر الفيكتوري ! وإذا كان ثمة دلالة لهذا كله ، فإننا لا نأمل أن نقدر « بلوتارخ » طيلة مباحثتنا على قراءته في ترجمة (لانجهورن) Langhorne أو أن نعيد ترجمته على نحو يطيب

لنا ، مادمننا نمزج ترجمتنا الحديثة بالمحسنات الإليزابثية ، حتى نكون قد بلغنا إلى تركيب صنف من الترجمة يغير في مقوماته كل قطعة من الأدب الحى في عهدنا أو في غيره من العهود. ونحن لا يتسنى لنا ، من باب أولى ، أن ندافع عن مثل هذا التقادم الزائف في حالة مؤلفين ، إذا تصورنا أن ننقلهم بأشخاصهم إلى عالمنا نحن ، فإما أن يكونوا لم يولدوا بعد وقت ذلك ، وإما أنهم مازالوا في المراحل الأولى من طفولتهم . فمثلاً ، قد يكون « ماركوس أوريليوس » Marcus Aurelius لا يزال في الرابعة من العمر ويتطلع إلى البقاء حتى عام ١٩٨٠ . سلم الله أطفالنا الذين ولدوا في العالم الغربى هذا عام ١٩٢١ من نقمة الآلهة حتى لا ينظروا إلى الحياة تلك النظرة القائمة التى نظر بها « من يقابلهم » من الهلينيين العظام ! .

ترى ما معنى هذه الموازنة المقترحة بالنسبة لترجمة الأدب ؟ قد يبدو لأول وهلة ، وكأنما ينبغى لنا أن نترجم « ماركوس » و « بلوتارخ » إلى الأدب الإنجليزى (أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى أو أى أدب غربى خالص) الذى يكتب فى جيلنا ، ثم من سبقوهم طوراً بعد طور ، بالأسلوب الذى يقابله من ماضينا الأدبى - محافظين على الحقيقة ذاتها التى تمتد إلى ثمانية عشر قرناً تقريباً خلال هذه العملية . وأيا ما كان الأمر ، فما إن نحاول وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، حتى تتضح العقبات . ففى المحل الأول ، نجد أن (موجات) التاريخ الغربى والهلينى غير متطابقة . ففى التاريخ الهليني نجد أن الأدب قد وصل القمة (ولم يصل إلى مثلها بعد ذلك أبداً) خلال القرنين فيما بين أعوام ٥٢٥ و ٣٢٥ ق . م ، والتى تعاصر (حسب مشروع قياسنا الافتراضى) القرنين فيما بين ١٢٧٥ و ١٤٧٥ فى الغرب . وأيا ما كان الأمر ، فإن تلك الفترة ، فى حالة كحالتنا ، وإن بلغت قمة أقل فى حياة إيطاليا الشمالية الوسطى ، فإنها كانت بعيدة عن الذروة من تاريخ حياة سائر المجتمع .

وقد نهض الغرب برمته ، إلى درجات أعلى من التعبير الذاتى (أو على نحو ما عبر بركليسى - أقام صروحاً لا تفنى تشهد على وجوده خيراً كان ذلك أو شراً)

فيما بين حوالي ١٧٧٥ م إلى الحرب الأوروبية^(١) بينما في الجانب المقابل ، نجد أن الفترة الماثلة من التاريخ الهليني وهي (٢٥ ق . م — ١١٤ م) تقع برمتها في ظل التطور الأخير من الحياة الهلينية ، التي كان يحاول فيها العالم الذي يزرع تحت عبء أربعة قرون من الاضطرابات^(٢) ، يحاول أن يلم شعثه للمرة الأخيرة قبل الانحلال الذي لا مناص منه . ونحن الذين كنا لم نزل في ريعان شبابنا عام ١٩٢٤ لانزعج أننا نعرف بعد ، ما إذا كان الغرب قد بدأ (فقط مجرد البدء) في الانحدار إلى الدرك الأسفل *ad tartara leti* ، في حين أن « بلوتارخ » في شيخوخته قد تأكد حيناً ، في قرارة نفسه (وإن لم يكن قد سلم به عقلاً) ، أن هيلاس (Hellas) قد تحققت شوطاً بعيداً نحو الانحدار . ومن ثم فإننا ومن ورائنا عدد أكبر من مراحل التقدم ، وعدد آخر أقل من أطوار التأخر ، وهذا أكثر مما توافر لوعي « بلوتارخ » ، يتحتم علينا أن ننظر إلى الوراء ، إلى أسلافنا بأعين مغايرة . فالعالم الهليني الوسيط ، في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد لم يكن في واقع الأمر على درجة من النضج والغلبة تفوق ما كان عليه العالم الغربي الوسيط في القرنين الرابع عشر والخامس عشر من عصرنا فحسب ، بل إنه لم يكن هناك مفر من أن يبالغ في أشكاله التسيبية عند جيل بلوتارخ قياساً إلى ما كان عليه أهله من تراخ ووجل . وإذا ما نظرنا بعقليتنا الحديثة ، ألقينا تقيض ذلك . فالقرنان الرابع عشر والخامس عشر (حتى إن نظرنا إليهما على أساس ما تجسم في ممثلهما الإيطاليين) يحملان طابع ما تزدريه نحن الآن ، على اعتبار أنه طابع (فج) بدائي على أحسن الفروض . وفيه عناصر ، بل عناصر كريمة ، من كل ما نحس به ونأسف لعدم وجوده لدينا ، بل لا نستطيع أن نأخذها برمتها مأخذ الجد أو أن نعامل أطفالهم ، وهم أسلافنا ، على أنهم رجال لهم مثل ما لنا من مستوى عقلي . ولا يمكننا حتى اصطناع مثل هذا بغير أن نعي ما لدينا من عدم سلامة الطوية . ويقابل هذا موقف « بلوتارخ »^(٣) و« ديونوسوس »

(١) الحرب العالمية الأولى

(٢) ١٣١ — ٣١ ق . م .

(٣) هذا ، على أية حال . سواء كان بلوتارخ أو لم يكن ، هو مؤلف (الحث في مؤلفات

هيرودوت)

إزاء « هيرودوت » و « ثوكوديدس » على التوالي . فهما ، من ناحية ، قد نظرا إلى أسلافهما الوسيطيين بشيء من التبجيل ، على اعتبار أنهم شراح لمثل ضائعة لم يعد من سبيل إلى بلوغها ، وثانياً ، فإن ما اتسم به كل مارء من هؤلاء العالقة في مشهده الأولمبي من سخائب المجد ، قد أعمى بصيرتهما وأعلق الأفق أمامها . « . وعندما نزل موسى من الجبل ، لم يكن يعرف أن بشرة وجهه تشرق وهو يتحدث إليهم . ولما رأى هارون وكل بنى إسرائيل أن بشرة وجه موسى تشع ، خشوا أن يقتربوا منه » ترى هل خاف قوم موسى وأشاحوا عن النور الذي كان يدافع عنهم ؟ . إن « ديونوسيوس » و « بلوتارخ » كانا في الموقف ذاته ، غير قادرين كل القدرة على أن يخفيا الكراهية والقنوط إزاء (الشعلة المتألقة) في هيرودوت أو ثوكوديدس ، أما وقد كرسا جهودهما ، شأنهما في ذلك شأن معاصريهما ، بغية رعاية شيخوخة هيلاس ، وإزالة التجاعيد من فوق جبينها ، وتهدئة روعها وإبعاد الهذيان عنها وتوجيه أفكارها (عندما كانت الأفكار الحيوية لا تزال تداعب عقلها) بعيداً عن المستقبل الخيف ، نحو ماض ذهبي أو شبه ذهبي ، فإنهما لم يعودا يقويان على مواجهة الأقوياء المسلحين الذين أحبوا هيلاس ومرحوا معها ورأوها كما هي وعرفوا خيرها وشرها ، وهي إنسانية في كل الحالين ، في السنوات التي لا سبيل إلى إعادتها حينما كانت هيلاس وأبناؤها في ريعان الشباب إن الهلينييين أبناء الإمبراطورية لم يستطيعوا مواجهة أبناء السنوات الخمسين^(١) من قومهم ، بما لهم من تطلع ذهني لا يخشى منه وموهبة غريزية لا تتطلب جهداً في تفرس الحقيقة على الوجوه ، ووعيمهم بالقوة الحارقة التي منحهم قلباً يسخر ويمزج في الوقت المناسب ، وهذا ما يثير الشجن على كل ما صار إلى القدم . إن الإرتباك يعلو الوجوه عندما تجسر على النظر إلى أعماطها الثابتة على الوجه .

وهذا يعني أن نقل كل طور من أطوار الفكر الهليني وأسلوبه إلى

(١) : فيما بين الحرب الفارسية الكبرى ونشوب الحرب البلوونيزية (٤٨٠ —

ما يماثله من طور غربي متكافئ، إنما يشكل استحالة تاريخية، حتى بالنسبة للدارس الذي حبه الطبيعة درجة أعلى من الذوق اللغوي دونه ذوق المترجم الحالى . كذلك فإن هذا لا يعنى ، حتى إذا ما استطعنا أن نبليغ المستحيل ، أن نعيد من النتيجة تلقائياً ، لأنه بقدر ما نكون قد نجحنا فى نقل ماضى الأدب الهليني إلى ماضى أدبنا ، بقدر ما نبتعد به بشكل مبتذل عن نطاق رؤيتنا الحديثة . إن تراثنا الأدبى الغربى ، فى حقيقة الأمر ، هو مجال الأدب الوحيد الذى لا سبيل إلى ترجمته بالأسلوب الغربى هذه الأيام . فى الوقت الذى نحاول فيه أن نستحدث عملاً أدبياً فنياً إنجليزياً من أعمال القرن السادس عشر أو السابع عشر ، فى نفس هذا الوقت يتلاشى سحر الإحساس والترابط وأكثر عناصر الجمال بفعل ساحر،^(١) بينما ، فى الناحية الأخرى ، أى حينما نحاول أن نترك خيالنا للأصل غير المدنس ، فإننا غالباً ما ندرك افتقارنا إلى بعض عناصر الجوهر الأخرى . وإن أخص خصائص العصر (الإليزابيثى) - كالألوان على الزجاج الرومانى - لتندثر علينا غيمة غموض بين عقولنا والعقول التى أوجدت الحق الأصيل والجمال ، التى قد وجدت هى بدورها من أجلها أيضاً . لقد وجدت هذه فى حاضر حى وأوجدتها أناس أحياء ولم تتطرق إليها وقت خلقها مسحة من قدم ؛ ومن هنا أصبح من المستحيل تماماً أن يتم تجاوب روحى بيننا وبينهم . ومن هنا أيضاً بدا واضحاً أنه من الخطأ كل الخطأ من وجهة النظر العملية ، أن ننقل ، حتى ولو كان ذلك متيسراً ، أثر حضارات أخرى فى صورة تستعصى على مداركنا ، بينما هى أيضاً خطأ محض من الناحية النظرية . وبعد ذلك كله ، هل يعتبر أى نتاج للأدب الهليني فجاً أو بدائياً أو ساذجاً أو عتيقاً إذا ما نظر إليه كما هو دون ما تعديل أو تحريف ، وكما خرج إلى حيز الوجود منذ عدة مئات من السنين ؟ إن الفكرة المبهمة بين القراء

(٢) هذا واضح بالطبع فى حالة ترجمتنا الغربية المحلية للإنجيل؛ التى هى بمثابة أسس الأدب الحديث بين الطوائف البروتستانتية . وبينما كنت أترجم ثلاث مقطوعات من العهد الجديد، كخاتمة لهذا الكتاب والكتاب المصاحب له عن الأصل اليونانى ، وقفت الترجمة الإنجليزية المعتمدة هائلا بينى وبين النصوص التى أمامى وكان أن انصرفت قاطلاً من مهمتى .

الغريبين الجديثين ، عن « هيرودوت » من أنه (أبو التاريخ) الساذج ، كان من شأنها أن تملأ « ديونوسوس » أو « بلورتارخ » دهشة . إذ أن لقب الشرف التقليدي هذا ، من شأنه أن يكون في حد ذاته تحذيراً كافياً في وجه كل من يعتقد بهذا المفهوم ، وهو اللقب الذي اقترن عادة بهيرودوت فيما بيننا ، لأن الإبداع والخلق إنما من صنع عقول عارفة دقيقة لا من فعل عقول بسيطة ، وإن معرفة هيرودوت ودقته قد تجلستا عاريتين ، ولا بد أنهما أذهلتا كثيرين من قراء الغرب العصريين ، كما أذهلتا جمهور الهلنيين في عصر الإمبراطورية . كذلك لم تكن السذاجة من خصائص نتاج « هوميروس » (١) . وشعر « هسيود » Hesiod في الواقع ؛ هو الجزء الوحيد من سائر الأدب الهليني المترجم في هذا المجلد ، الذي يمكن أن يوصف بحق وبشكل عام ، بأنه بدائي ، والفقرة التي اختيرت من ملحمته (الأعمال والأيام) تبين أنه حتى هذا التعميم لا يخلو من استثناء ، إذا كان ولا بد أن يكون هناك رصيد محترم من التجربة الاجتماعية ، في عقل يمكن أن يحس بشكل مرهف مدى فظاعة الأبحال (٢) .

(١) إن روح هومر المضللة (والتي تجلت في تناوله للأرباب بشكل لاذع) ليست الآن محودة السيرة ، إلا أنها بالطبع ليست ظاهرة هليانية على إطلاقها . وإن الدراسات المقارنة لنوع أدب الملاحم ، في سبيل اكتشاف ذلك مؤخراً ، أبعد من أن تكون (بدائية) ، إذ أن الملاحم في كل العصور والأماكن هي النتاج الرموق لمجتمع مثقف ويتناقل صداها تدريجياً في العالم السفلي الحقيقي للفولكلور (انظر Chadwick's Heroic Age, Murray's

Rise of the Greek Epic

(٢) إن الأدب الهليني الوسيط في ثقافته واتجاهه العقلي والتأملي يبدي تشابهاً أكثر وضوحاً للأدب الإسكنداني في الوثني في الغرب الوسيط أكثر من الأدب المسيحي الغربي المعاصر له . فهل ثمة سبب لهذا؟ يرى البروفسور و. ب. كير W. P. Ker في كتابه (Epic and Romance) أن الإسكندانيين أفادوا من عدم انسحابهم وبلبلتهم من جانب تراث الماضي السرياني والهليني ، الذي سيطر على مسيحية القرون الوسطى . وأوضح كيف أن الإسكندانيين العباقرة أصبحوا مشلولين منذ أن أصابتهم عدوى الرومانية المسيحية الغربية واللاهوت المسيحي الغربي . وإذا ما افترضنا أن هذه العدوى لم تحدث ، فليس ثمة معرفة لما هي الدرجة التي لم يستطع الأدب الإسكنداني أن يبلتها في تطور مستقل ، وقد استمتع الهلينيون بمثل هذا التطور غير المقيد على وجه التحديد لأن الهلنيين (على عكس التوتون) لم يتركوا أي بقايا من الحضارة النوبوية السابقة لتقطع طريقهم الخاص نحو النور ولربما كنه .

لهذه الأسباب المتعددة ، فإن أسلوب الترجمة الذي انتخبناه هنا ، من شأنه أن يكسو كل مقتطف من كل مؤلف من كل عصر ومن كل طابع بعض لباس من الإنجليزية التي نكتب بها في هذا النصف الأول من القرن العشرين بعد المسيح . وقد تركز جهد المترجم الرئيسي في ألا يجعل القارئ يحس لأول وهلة أنه أمام شيء مترجم ، أي أمام شيء غير أصيل قد طرقته الأيدي من قبل . وهذا كما أعلم تماماً ، مثال سلبي ، وأن وصايا النهي لها مضارها المعروفة . ويتمثل الخطر في هذه الحالة بأن تكون النتيجة حديثاً دارجاً ركيكاً مما قد يضحى معه بالجمال والخلود في غضون الجهد البذول لاستعادة واقعية الحياة . ترى هل من سبيل إلى التوفيق بين الجمال والخلود ! أو هل العلاقة بينهما موضع مساومة دأمة ؟ ولكن هذا السؤال ينأى بنا بعيداً عن مجالنا . . .

إنه ينبغي لنا فقط أن نمس بعض نقاط في التفصيل . وبإحدى ذى بدء ، نجد اللغة اليونانية القديمة من ناحية ومجموعة لغاتنا الغربية المحلية الحديثة من ناحية أخرى ، إنما هي لغات ذات طبيعة مختلفة بشكل واضح . فالأسلوب في اللغة اليونانية بسيط والنحو معقد . بينما الأسلوب في لغاتنا معقد نسبياً والنحو بسيط . وما عليك إلا أن تنقل أى قطعة من اليونانية إلى أى لغة حديثة في أسلوبها الجرد الأصيل ، حتى تجد أنك نقلت شيئاً لا هو بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألماني أو الإيطالي . ففي أدبنا الغربي ، كما هو الحال في غيره من ضور التعبير الذاتى عندنا ، يوجد دائماً على وجه التقريب شيء ملتو ومعقد — لمسة من مزراب من شأنها أن تثير الاشتزاز في نفس الهليني بشكل خطير ، غير أنه لا سبيل إلى حذفها من أى كتابة غربية دون أن نصيب الطبيعة^(١) بهزة عنيفة . ومن هنا غالباً ما تكون الترجمة معقدة جداً حيث هي بسيطة في مواضعها الأصلية . وعكس ذلك (وهذا محل دراسة كلاسيكية) ، وبالطبع فمن المستحيل تماماً ، أن نعيد إنتاجاً أدبياً في أى من

(١) هذا العنصر يمكن أن ندركه بالمثل في الكوميديا الإلهية وهاملت وفاوست والبؤساء بمقارنتها بأعظم أعمال الفن الهليني .

لغاتنا ، ولا سيما في الإنجليزية ، بالبناء النحوي المعقد الذي تتميز به اللغة الإغريقية^(١) بدرجة عالية من التركيب والتأليف . إذ أن انكسار سياق الجملة دون انكسار سلسلة التفكير الذي تنطوي عليه إنما هو أمر مألوف وإن كان مشكلة خلافة على الدوام، وفي المحاولة المستمرة لحلها فإن المترجم قد أفاد من السهولة التكتيكية التي تتوافر في كتاب مطبوع بين دفتيه صفحات يقدمها على اعتبار أنها مخطوط مكتوب في مجلد . ومن المهم ، في الملف المخطوط أو « المجلد » بالمعنى الحرفي والأصيل للكلمة) أن تتجنب أى انقطاع في التسلسل . ففي هذه الحالة ، ليست هنا صفحة تقدم عليها مساحة كافية للملاحظات ، وليست هناك صفحات أخيرة تضمنها الحواشي . وإذا ما رفعت الملاحظات والحواشي من المتن ووضعتها آخر المجلد ، ضاع وقت القارئ وتقد صبره في تقليب مضمّن ، وسوف تطمس الكتابة ذاتها على الملف، وفضلاً عن ذلك فإن من يقوم بالنسخ مرة ثانية قد تسقط منه هذه الحواشي سهواً ، وهكذا ، سوف يضيع في النهاية جهد كل إنسان . وعلى هذا فمن المستحب ، في أى عمل يتعلق بالأدب الهليني ، أن تضم الملاحظات والحواشي إلى النص نفسه عن طريق الأقواس ، ومن حسن حظ المؤلفين الهلنيين ، أن التعقيد النحوي في اللغة اليونانية القديمة قد أعطاهم هذه الفرصة التي ليس في وسعنا تهيئتها . وأياً كان الأمر ، فإن الجهد ، حتى في اللغة اليونانية ، غالباً ما كان عملاً من أعمال البطولة، وشيئاً فشيئاً ، فإن المترجم لا يجد أنه قد أراح مهارته المثقلة فحسب ، بل سيجد أن فكرة الأصيل المتختم كذلك ، قد استراح بشكل لا مثيل له بفضل استخدام مشروعنا الحديث^(٢) .

وكان على المترجم أن يواجه مشكلة أخرى في تحديد موقفه إزاء بعض الكلمات والأسماء الدقيقة المعينة ، فمثلاً هل له أن يبقى على الكلمات الإغريقية (هيلاس)

(١) حاول ذوو الطبيعة الغربية هذا في الماضي، تحت التأثير المباشر لعصر الأحياء، ولسكن لم يقدر لأسلوب Lyly ولا لأسلوب ماثن أن يكون المؤثر التشكيلي في النشر الإنجليزي .

(٢) تتميز ملاحظات المؤلف والمترجم الواحدة عن الأخرى بشكل دقيق .

(٢ م — الإغريق)

و (الهليين) أم يغيرها إلى (اليونان) و (اليونانيين) ؟ وبعد كثير من التبصر رفض اختيار بديل لأكثر الأسماء شيوعاً ، لأن البديل في الإنجليزية الحديثة له معان مزدوجة . ومبدئياً ، فإن الناس يفترضون أن (هيلاس) دولة قاعمة ، وأنها أمة قاعمة أكثر من أنها عالم قد اندثر ، والأخذ بالافتراض الأقوى قد يكون له أثر يشوه ذلك العالم المندثر . إذ أن (هيلاس) القديمة لم تكن دولة وإنما كانت عالماً يشتمل على مئات من (الدول) لم تكف عن الحرب فيما بينها حتى الطور الأخير من تاريخها ، ولم يكن آل (هليين) القدامى أمة وإنما كانوا مجتمعاً من أمم يتكلم بعضها بلغات وطنية — غير إنغريقية . ومن ثم فقد تركنا كلمات (هيلاس) و (هليين) كما هي ، وينبغي أن ننطقها ومعها كل (وأكثر من كل) ما تحمل من ارتباطات عاطفية وتصورية ترادف عندنا لفظي (أوروبا) و (الأوروبيين)^(١) . ومن جهة أخرى فإن اسم اللغة قد ترجمناه إلى (اليونانية) ما دامت كلمة (هليين) من شأنها أن تبعث على الحيرة في هذا الصدد ، بينما ينبغي أن ينقذنا من الخلط وضع غربي مشابه . فكما يتكلم (الأوروبيون) ويكتبون بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ... هكذا ، ولم يحل هذا بينهم وبين أن يكونوا أعضاء كغيرهم في الانتماء لحضارة واحدة ، قد تكلمت غالبية الهليين وكتبت دائماً باليونانية ، بينما جاء هليين آخرون عبر الزمن ، يحملون الاسم من

(١) لأنها لمسألة غريبة أن يكون الاسم الذي أخذ قدسية الأموات غير دقيق من الناحية العلمية على أي وجه من الوجوه . ففي شرق القارة الأوروبية وجنوبها الشرقي ، هناك أناس كثيرون مازالوا بعيدين أو اهتموا مؤخراً فقط إلى الحضارة (الأوروبية) . بينما على النقيض في الحديث عن الحضارة (الأوروبية) فإننا لا نذهب إلى أن نخرج من حوزتها الشعوب في أمريكا والتي يرجع أصلها إلى غرب أوروبا . ومع أن اسلاحيات (الغرب) و (الغربيين) أكثر دقة ، إلا أنها ليست شائعة . وبالمثل . هناك شعوب ناطقة باليونانية في الأجزاء الشمالية الغربية من الأراضي اليونانية التي أشار إليها نوكدديس على (أنها غير هليين) . بينما كانت في وقته شعوب لا تتكلم باليونانية ، كشعوب ليكيا Lycia وكاريا Caria و إتروريا Etruria وحتى لاتيوم Latium وقرطاجنة Carthage كانت تطالب بأن ينظر إليها على أنها أعضاء في المجتمع الهليين أكثر من اليورتانيين Eurytanes والتسبروتيين Thesproti أو الحايونيين Chaones .

الناحية الروحية إلا أنهم عبروا عن تراثهم الهليني باللغات الإتروسكانية واللاتينية والليدية والفريجية واللوقيانية أو الآرامية .

وثمة مشكلة ختامية حول الكلمة اليونانية (البرابرة) . . . هل ينبغي أن نتركها كما هي أم نجد مرادفا لها ؟ وهنا اختار المترجم المرادف الثاني ، لأنه (كما يبدو) لا تسكاد الكلمة الأصلية تشتمل على المعنى الفرعى فى اليونانية ، كما هو موجود فى الكلمة المستعارة فى الإنجليزية . ومعناها فى اليونانية واسع ومتباين جداً . وحينما تكون الفكرة الجذرية سلبية ، فإن الترجمة الصحيحة هى بالتأكيد (غير الهلينيين) أو (اللاهليين) . وأيما كان الأمر ، فالكلمة غالباً ما تشير إلى عناصر من حضارات منافسة أو سامية ، بينما قد يؤدي استخدام الكلمة (برابرة) فى الإنجليزية إلى خطأ كامل إذا ما استبدلت بكلمة (الشرقيين) . وأخيراً ، فثمة حالات قليلة ، يبدو فيها أن كلمة (أناس قبلين) هى البديل الطبيعى ، ولكنها حالات نادرة . (١) .

ولفظة أخرى وهى (بوليس) Polis ، نادراً ما ترجمت إلى (مدينة) لأن تلك الكلمة إنما توحى إلى عقولنا بضخامة مجتمع مدنى على نطاق غير معروف للعالم الهليني فيما عدا بعض بقاع قليلة خلال فترة قصيرة نسبياً من تاريخه (٢) ، بينما لا توحى بالتأكد بمعنى الدولة ذات السيادة . فإذا عدنا إلى المقارنة ، نجد أنه بينما تكون (بوليس) الهلينية دون البلدة الإنجليزية فى مستواها المادى ، فإنها تتمتع بحياة سياسية وشخصية متميزة على مستوى يختلف تماماً عن المجلس العظيم وهو

(١) ثمة أهمية تاريخية للحقيقة القائلة بأن الهلينيين استخدموا كلمة بذاتها لتعبر عن هذا التنوع فى المعانى ، لأنها تكشف عن تشرهم الذاتى وميلهم إلى إنكار ما أنجزته المجتمعات الأخرى . وقد كان هذا ضعفاً خطيراً يعزى بشكل كبير إلى انتصار سوريا النهائى ، فى النزاع الطويل المؤلم الذى شقته الحضارتان فى المجالات المختلفة ؛ فى الحرب والسياسة والاقتصاد والدين .

(٢) قد يتعثر المراقبون الهلينيون أمام التجمعات الحضارية التى لها نمط نطق غريب ؛ إلا أن هذا النمو والمدى عندنا أكبر من حدود الهلينيين (فى زمنها المتحجر) فى مأوى الحضارتين المصرية والعراقية .

أعلى تنظيم سياسى لمدينة غربية ضخمة . وكانت (بوليس) من الناحية القانونية (دولة) ومن الناحية الفعلية (بلداً) بينما كان شعبها يشكل (أمة) سواء خرج فى ألف رجل قوى أو فى عدد أكبر أو أقل لتلتحم سيوفهم بسيوف جيوش بلد أصغر فى التركيب وأقل درجة فى الوعى الذاتى ، سواء أكانت فى نظرهم أقل أم ضخمة سياسياً مثل الإمبراطورية الفارسية . وقد استخدمت بالتالى كافة هذه الكلمات الإنجليزية حسبما تنفق والمناسبات ، بينما فى الحالات الأقل تكراراً ، والتي يعنى فيها النص اليونانى بأن يستخدم كلمة (بوليس) بالمعنى الطبوغرافى والمادى ، فهى تترجم دائماً بـ (البلدة) .

وفى الوقت الذى تتردد فيه كلمات (يكتب) و (كاتب) و (يقرأ) و (قارى) فعلى القارى الإنجليزية ألا يفسى أن ما يقوم مقامها عادة فى اليونانية كانت كلمات (سرد) و (مؤلف) و (يسمع) و (سامع) . لأن النقل الشفهى كان هو الوسيلة الطبيعية لإيصال محتويات العمل الأدبى فى مجتمع كانت فيه عملية إعادة نسخ المؤلفات أكثر بطئاً وأكثر تكلفة مما هى عليه الآن نسبياً فى الغرب منذ بداية الطباعة الحديثة . ومنذ أيام هيرودوت حتى سيموكاتا ، كانت التلاوة العلنية أمام مستمعين يختارهم المؤلف ذاته هى الأسلوب المألوف للنشر . ثم يأتى بعد ذلك لفظ (اللوجوس) Logos — (الكلمة) فى أحد معانيها الكثيرة التى تشتمل عليها الكلمة المنطوقة . ويمكن ترجمتها بـ (رواية)^(١) أو (عمل) أو (كتابة) ، بحيث إن الحديث الذى تلقىه بعثة دبلوماسية يمكن أن يوصف بأنه (مذكرة شفوية) وأن « علم البيان » وهو من له مكان قليل فى حياتنا — يمكن أن يقال عنه فى بعض المناسبات (الفن الصحفى) . وأخيراً سوف يلاحظ القارى أن الأسماء اليونانية ، سواء فى ذلك أسماء الأشخاص أو الأماكن ، قد نقلناها فى النص الإنجليزية بشكلها اللاتينى المعروف^(٢) . وقد قننا بهذا الهدف السلبى البحث لإعفاء القارى من سلسلة

(١) وهى كلمة تتضمن فى ذاتها معنى النقل الشفهى فى الأصل اللاتينى .

(٢) لأننى لم أعمد فى إخفاء الأرباب الهلينيين تحت أسماء الآلهة اللاتينية القديمة والتي كانت تطلق عليها ؛ وفى حالة بعض السير الشائعة أو المشهورة فيما بيننا ، استخدمت الاسم الذى نطلقه نحن الآن ، (على سبيل المثال) الدردنيل — بدلا من (هيليسبنت Hellespont) .

متصلة من الصدمات البصرية الخفيفة التي من شأنها أن تصرف ذهنه بلا مبرر عن الفكر واللغة. وذلك يجعل القارى متميظاً تماماً للهجاء فقط. وإن نظرة واحدة إلى قواعد الهجاء التي استخدمها « براوننج » Balaustion's Adventures Browning أو ترجمته ل (ثلاثية أيسخولوس) Trilgy of Aeschylus ، من شأنها أن توضح الأثر البصرى الذى سعى المترجم الحالى إلى تجنبه . إن قواعد الهجاء اللاتينية مألوفة لأبصارنا لأننا نستخدمها فى نقل الكلمات المركبة المستعارة أو المأخوذة حديثاً عن اليونانية فى كلماتنا العلمية النامية باستمرار . وعلى هذا فإن كلمات بهذه الحروف لاتستقيم مع الصفحة وتعوق سياق الفقرة وتحرف أبصارنا وهى تنتقل بين السطور . وربما كان هذا تضحية بالدقة فى سبيل الابتعاد عن مادة ليست جوهرية ، ولكن علينا أن نكتشف أكثر مما هو معروف بخصوص نطق اليونانية القديمة قبل أن نتمكن من صيانة قواعد الهجاء اليونانية بشكل جاد ، وهى معاونة لها قيمتها إزاء إعادة بناء الكلمة المنطوقة ، كما خرجت فى بداية الأمر من فم المؤلف لتقع على آذان معاصريه .

وأياً كان الأمر ، فهذه أمور ليست بذات بال ، ولا يتوقف عليها نجاح هذا الكتاب أو فشله . وسوف ينجح الكتاب أو يخفق بسبب وجهة النظر التاريخية التى يقوم عليها ، وليس بسبب بعض الإيضاحات التى قدمت حالياً فى هذه المقدمة . والافتراض الرئيسى هو أنه فى المسار المتتالى أو الذى يحدث فى وقت واحد من جانب الحضارات المختلفة المعروفة - الحضارات المصرية والعراقية والمينوية والهندية والشرق الأقصى ، والهلينية والسورية - الإيرانية ، والبيزنطية والغربية والشرق الأوسط - تكشف لنا الرؤية التاريخية عن تكرار مستمر عميق وعن دلالة عميقة للخبرة الإنسانية على نطاق بطولى . وعندما نصوغ هذه المسألة فى كلمات ، فإن هذا الافتراض قد يعبر عن ظهور مبدأ مهيب بعض الشيء ، إلا أنه بلا ريب كان دائماً مبدأ كل عالم كلاسيكى . ولو لم نكن مقتنعين بأن الوعى الهليني ، حتى فى صور التعبيرات المتناثرة التى وصلتنا ، ولو فى دخيلة نفوسنا ، مليء بالحسوبة وزاخر

بالتجربة ، أو بعبارة أخرى على درجة من (العصرية) ، مثلنا تماماً، لو لم نكن مقتنعين بهذا، لما كان ينبغي أن ننجذب نحوه غير قادرين على المقاومة كما انجذبنا إليه ، وما كان لنا أن ندعه يصيب من عملنا العقلي هذا القدر الذي أوليناه ، والذي كان حتى ذلك الحين مستحيلاً ، وهو مشاركة معاصرنا الهلنيين في الأفكار والمشاعر. وأيا كان الأمر، فإن قراء هذا الكتاب ، هم على الأرجح ، أناس يتكلمون الإنجليزية ، وتلقنوا دراسات أخرى غير كلاسيكية ، وعلى هذا فليس لديهم هذه الخبرة الشخصية النشطة ، التي تجعلهم يحدون ، منذ الطفولة ، ماذا تعنى الدراسات الكلاسيكية في أصلها للعقل الغربي الحديث . إن الانطباع الذي يحدث عند مثل هؤلاء القراء سوف يكون تجربة أصدق من فشل الكتاب أو نجاحه ، ويعرف كل مؤرخ أن النجاح في مسعاه الإنساني السامى إنما تمنحه له معجزة فقط .

«وكانت على يد الرب فأخرجني بروح الرب وأزلى في وسط البقعة وهي ملائمة عظماً . وأمرني عليها من حولها وإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هي يابسة جداً. فقال لي يا ابن آدم أتحميا هذه العظام. (فقلت ياسيد الرب أنت تعلم.) فقال لي: تنبأ على هذه العظام وقل لها . أيتها العظام اليابسة اسمي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام . هاأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون وأضع عليكم عصباً وألبسكم لحماً وأبسط عليكم جلدًا وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعاملون أنى أنا الرب .»

فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعت فتقاربت العظام كل عظمة إلى عظمة ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح . فقال لي: (تنبأ للروح تنبأ يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب هلم ياروح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا .) فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً .»

أرنولد توينبي - لندن

مقدمة الطبعة الثانية

يعتبر التفكير بالنسبة للإنسان نشاطاً شاقاً وبعيداً عن النهج الطبيعي . وهو في هذا كالسير على قدمين بالنسبة للقروء ، ونادراً ما نسرف فيه أكثر مما نحن في حاجة إليه ؛ ويتعاضد عدم ميلنا إلى التفكير بصفة عامة في الأوقات التي نحس فيها بأ كبر قدر من الراحة . وإذا كان هذا الإعراض الإنساني عن العمل الفكري لا يظهر في الحياة العامة أقل من ظهوره في الشؤون الخاصة ، فإن الجنس البشري لا يؤدي الكثير من تفكيره التاريخي في أزمنة يسيرة يسودها الرخاء . وفي مثل هذه الأوقات فإننا نقنع عادة بأن نعيش خلال التاريخ دون أن نتحقق من أننا نمضي في تياره ، بل وعلى الرغم من أن فترات الرخاء في شؤون البشر غالباً ما كانت قصيرة في الماضي ، فإن هذه الفترات كانت طويلة بما يكفي أن تدخل في روع الناس أن التاريخ أمر لا يصادف هوى في النفس ولا سبيل له إلى اللحاق بجيولهم ، على حين أنهم يعلمون تمام العلم أن أناساً آخرين في أزمنة وأمكنة أخرى ، قد واجهوا في بعض الأحيان نكبات تاريخية .

وعندما يحين الوقت ليأتي علينا التاريخ بدورنا ، وهو أمر لا بد من حدوثه إن آجلاً أو عاجلاً ، فإن تجاربنا غير المرغوب فيها ، تحدو بنا إلى التفكير ثانية في تاريخ الإنسان ومصيره ، وقد أخذت عقولنا في مجتمعا الغربي الحديث تعود إلى الوراء في هذا الاتجاه منذ عام ١٩١٤ ، غير أن الإنسان الغربي ، ابن القرن العشرين ، يملك أكبر ناحية مريحة في العصر الألفي السعيد من خلفه ، ليس معداً جيداً لثل هذا العمل الفعلي الضروري وإن كان شاقاً . ونحن في تجربتنا الذاتية ، ليس وراءنا أكثر من ستة وثلاثين سنة من الخطيئة الصارخة والمعاناة تنير السبيل أمام مداركنا . ونحن وإن استطعنا أن نشغل هذه الحقبة الضئيلة من الزمن بهذا الجهد الضخم من التجارب المشابهة إليها ، إلا أن الفترة مازالت قصيرة

إلى حد لا يسمح لنا معه بأن نستعرض التاريخ الإنساني في ضوء ما كنا نفعل نحن أنفسنا ونماني .

وهذا هو المجال الذي يمكن للفكر التاريخي عند الإغريق أن يساعدنا ، لأن فترة المحنة في التاريخ الإغريقي والروماني ، التي تماثل فترة محنتنا ، لم تدم ستة وثلاثين عاماً فقط ، وإنما دامت لأكثر من أحد عشر قرناً ، هذا إذا ما كان علمنا أن تُوْرخ لانهبهار الحضارة الهلينية منذ أن شبت الحرب البلوبونيزية - الأثينية في عام ٤٣١ ق . م ، وأن نرى تحللها النهائي في الطور الأخير من تفقت الإمبراطورية الرومانية في القرن السابع من العصر المسيحي . ومن بداية هذه الحقبة حتى نهايتها فيما لا يقل عن أحد عشر قرناً ، كان مفكرو الإغريق يتأملون غموض الحياة الإنسانية في ضوء خبرات الأنواع التي غدت مألوفة لدينا أخيراً . وقد ترجمنا في هذا المجلد ، مقطوعات خالدة من الأدب الإغريقي تشمل هذا النقاش الطويل ، إيماناً منا بأن لها ، في هذه الآونة ، أهمية للقراء الغربيين المعاصرين .

والخلاصة ، أن التجارب التاريخية التي اعتصرت هذه الأفكار من الروح الإغريقية ، إنما تماثل التجارب التي نجتازها نحن الآن . فهذه الأفكار الإغريقية المنقولة هنا إلى الإنجليزية ، إنما هي تنعكس في العقول الإنسانية عن الحرب العالمية والحروب الطبقية ، والمنازعات الثقافية داخل أما كن مغلقة بين أناس من تراث اجتماعي متباين ، وفي نطاق النزاع على البطولة ، وكافة النماذج الغامضة الأخرى ، نسجت كلها على نول من الخير والشر ، وذلك ينه العقول البشرية إلى تصارع التناقضات في الطبيعة البشرية .

فدينا في عام ١٩٥٠ ، بشكل كبير ، ما نتعلمه من الفكر التاريخي عند الإغريق أكثر مما تعلمنا في عام ١٩٢٤ .

الجزء الأول
مقدمات

هيرودوت الهالكارناسى

(٤٩٥ - ٤٢٥ ق . م)

Herodotus of Halicarnassus

تاريخ الشرق والغرب

(نص أكسفورد ، تحقيق ك . هيود C. Hude : الكتاب الأول .
الفصول ١ - ٥) .

فيما يلي ، يقدم هيرودوت الهالكارناسى نتائج أبحاثه ، وله هدفان : أحدها إنقاذ تاريخ الجنس البشرى من النسيان ثم إثبات أن الأعمال الرائجة التي اضطلع بها الهينيون والشرقيون سوف تتمتع بما هي أهل له من شهرة - خاصة تلك التي أدت إلى صدام فيما بينهم .

ويلقى المؤرخون الفارسيون مسؤولية هذا النزاع على عاتق الفينيقيين . واستناداً إلى هذا الرأى ، فإن الفينيقيين ، الذين عاشوا على سواحل البحر الأحمر قبل أن يهاجروا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، لم يكذبوا مستقر بهم المقام في موطنهم الحالى ، حتى قاموا برحلات بعيدة ، حملوا فيها سفنهم بالسلع المصرية والآشورية ، وكان من بين الأسواق التي زاروها (أرجوس) Argos - التي كانت في ذلك الحين أعظم ولايات الإقليم الذي نطلق عليه الآن (هيلاس) . وعليه ، يزور الفينيقيون (أرجوس) (وهكذا تمضى الرواية) حتى يأتوا على بضائعهم ، وفي غضون خمسة أيام أو ستة من وصولهم ، كانوا قد باعوا كل ما لديهم تقريباً ، إذ جاء بعض النسوة إلى الشاطئ ومعهن ابنة الملك^(١) . فوقفن عند مؤخرة السفينة

(١) يرد اسمها في كل من الروايتين الفارسية والهيلينية على أنها (ليوبنت أتاخوس) .
المؤلف ١

وانهمكن في الشراء ، خاصة شراء الطرف التي ألهمت خيالهن ، فهاج الفينيقيون وانتقوا عليهن . وكان أن أفلتت غالبية النساء وسييت « إيوا » وأخريات ، نقلهن الفينيقيون إلى ظهر السفينة قسراً ، وأبحروا بهن إلى مصر . هذه هي الرواية الفارسية عن كيفية مجيء « إيوا » إلى مصر (وهي تتعارض مع الرواية الهلينية) . وينظر الفرس إلى هذا الحادث على أنه بداية الأعمال الاستفزازية بين الفريقين . فقد أعقب هذا الاستفزاز ، في الرواية الفارسية ، غارة الهلنيين^(١) على (صور) Tyre في فينيقيا ، حيث سبوا « يوروبا » Europa ابنة الملك . وقد نتج عن هذا وجود أحزاب يناصر كل حزب منها فريقاً بعينه . ثم ما لبث أن حدث استفزاز جديد من جانب الهلنيين وذلك بأن بعثوا بسفينة حربية إلى (أيا) Aia في (كولخس) Colchis على نهر (فاسس) Phasis ، دون أن يكتفوا بالعمل الذي ذهبوا من أجله ، بل سبوا « ميديا » Medea ابنة ملك البلاد . وبعث ملك الكولخيين برسول إلى (هيلاس) يترضى الهلنيين كي يردوا إليه ابنته . غير أن هؤلاء أجابوا بأنهم ليسوا على استعداد لأن يتقدموا بأية ترضية في حالة كهذه ، لأن الشرقيين لم يقدموا أية ترضية عن حادث خطف الأميرة الأرجيفية اليونانية . وأيما كان الأمر ، فقد حدث بعد ذلك بجميلين أن أثارت هذه الحادثة نخوة الإسكندر ابن « بريام » Priam فمزّم على أن يختطف زوجة له من (هيلاس) ، مطمئناً إلى أنه سوف لا يتقدم بأية ترضية ، مادام الجانب الآخر قد رفض تقديم مثل هذه الترضية من قبل . وعلى هذا فقد خطف « هيلينا » Helen ، وقرر الهلينيون ، إذ ذاك أن يبادروا بإرسال مذكرة يطالبون فيها برد « هيلينا » وبترضية عن الاعتداء . غير أن الفريق الآخر رد عليهم بأن أثار في وجوههم مسألة خطف « ميديا » وأوضح أن الهلنيين ، الذين يطالبون بترضية من الآخرين ، هم بأنفسهم الذين رفضوا تقديم ترضية لمثل هذه الحالة ، ورفضوا أن يعيدوا « ميديا » حينما طلب إليهم ذلك . وإلى هنا توقفت اعتداءات الخطف بين الفريقين . إلا أن الهلنيين

(١) ليس لديهم سجل بأسمائهم ، ولعلمهم كانوا من كريت — المؤلف ؟

قد جلبوا على أنفسهم بذلك مسئولية جسيمة حينما بدأوا بغزو آسيا . ولم يكن الشرقيون قد قاموا بغزو أوروبا بعد . ويعلق المؤرخون الفارسيون على هذا بقولهم ، إنه بينما يعتبر سبي النساء جريمة ، إلا أنه من الحماقة الإصرار على الانتقام من أجله ، وأن المسلك الحكيم يقضى بأن يفض النظر عن هذا العمل . إذ أنه من الواضح أن خطف النساء لم يكن ليتم ، لو لم تكن لدى النساء رغبة في ذلك . ويستطردون قائلين ، إننا ، معشر الآسيويين ، لم نتأثر باختطاف النساء ، في حين أن الهلينيين ، من أجل امرأة اسبرطية ، أعدوا أسطولا حربياً كبيراً ، وقاموا بغزو آسيا ، ودمروا دولة « بريام » . ويضيف المؤرخون الفرس . . . ومنذ ذلك الحين ونحن ننظر إلى العالم الهليني على أنه عالم معاد لنا^(١) .

وأخذاً بهذه الرواية عن تلك الوقائع فإن الفرس يردون خصومتهم الطويلة مع الهلينيين إلى سقوط (طروادة) Troy . والرواية الفارسية ، فيما يتعلق بحادث « إيو » تعارضها الرواية الفينيقية ، التي تؤكد أن « إيو » لم تسب حينما ذهبت معهم إلى مصر ، وإنما كانت قد أحبت قائد السفينة ، في أرجوس ، وعندما اكتشفت أنها حامل ، لم يكن في مقدورها أن تواجه والديها ، فأبحرت مع الفينيقيين بمحض اختيارها حتى تهرب من افتضاح أمرها . ويكفي هذا القدر من روايات الفرس والفينيقيين . أما من جهتي فسوف لأزج بنفسى في هذا الخلاف بالتأييد أو بالرفض ، وحسبى أن أبدأ بتناول الشخصية التاريخية الأولى ، التي كانت حسب معلوماتي ، مسئولة عن العدوان ضد الهلينيين . وخلال روايتي سوف أولى البلدان الصغيرة اهتماماً شأنها في ذلك شأن البلدان الكبيرة ، لأن البلدان التي كانت كبيرة فيما مضى ، غالباً ما أصبحت صغيرة ، بينما تلك التي ازدهرت في عصرى كانت صغيرة من قبل . ولما كنت أدرك أن حظ الإنسان لا يدوم على حال ، فسوف لا أفرق بين هذين النوعين من البلدان .

(١) ينظر الفرس إلى قارة آسيا والأمم التي تقطنها من أملاكهم ، ولكنهم يعتبرون العالم الهليني غريباً عنهم — المؤلف .

(١) لأنه كرويسس Croesus ملك ليديا (٥٦٠ - - ٥٤٦ ق م) .

ثوكوديديس الأثيني

Thucydides of Athens

(٤٦٠ — — ٣٩٥ ق . م)

تاريخ الحرب البيلوبونيسية

(نص أ كسفورد ، تحقيق ه . ستيوارت — جونز H. Stuart-Jones
الكتاب الأول . الفصول ١ — ٢٣) .

كتب « ثوكوديديس » الأثيني تاريخ الحرب التي نشبت بين سكان البيلوبونيس والأثينيين . واستهل عمله هذا فور نشوب الحرب ، التي اعتقد أنها ستحجب في الأهمية كل حرب سبقها . وحمله على هذا الاعتقاد أن كلاً من الطرفين المتحاربين ، عندما بدأ بالعدوان ، كان قد أعد للحرب ما استطاع من قوة في كل سلاح ، وأن الشعوب الهلينية قد اشتركت جميعها في هذه الحرب ، فأنحازت إلى هذا الطرف أو ذاك ، وسارع بعضها إلى هذا الانحياز ، وعقد البعض الآخر العزم على أن يحدو حذوهم . وكانت هذه الحرب ، بالفعل ، أكبر انفجار أثر في (هيلاس) وامتد أثره إلى العالم غير الهليني (ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها أثرت على مجموعة كبيرة من الجنس البشري) . حقيقة إن مضي الزمن قد جعل البحث الدقيق في الحاضر مستحيلاً كما هو الحال في بحث الماضي البعيد ، إلا أنه في ضوء أقدم دليل اعتبره جديراً بالثقة ، فإنني لا أتصور أنه قد وجدت في الماضي حروب أو أحداث أخرى يمثل هذه الدرجة من الأهمية .

ويبدو أن سكان المسكان الذي نطلق عليه الآن (هيلاس) لم يستقروا حتى زمن قريب نسبياً . وأن (هيلاس) تعرضت في الأزمنة الأولى لهجرات ، ترك فيها السكان مساكنهم بسهولة تحت ضغط بعض الدخلاء الذين يفوقونهم في العدد . ولم تكن التجارة أو الاختلاط مضمونين بجرأ وبرا . فعاش كل مجتمع

في حدود إنتاجه المحلي الخاص ، دون أن يتجمع لديه رأسمال ، ودون أن يعمل على استثمار رأس المال هذا في الأرض ، لأنه لم يكن في وسع أحد أن يعرف تماماً متى يجرمه الغزاة من بلاده، تلك التي لم يتعلموا كيفية تحصينها بعد . وكان من المسلم به عندهم ، أنه من اليسير أن يحصلوا على قوت يومهم أينما حلوا . لهذه الأسباب كانوا على أهبة الترحال ، فلم يعملوا على تكوين قوة بشرية كبيرة أو عتاد حربي كبير . وقد تعرضت ، بوجه خاص ، أغنى المناطق ، كمثل التي يطلق عليها الآن (تساليا) Thessaly و (بويوتيا) Boeotia ، ومعظم مناطق البيلوبونيز فيما عدا (أركاديا) Arcadia ، وأفضل الأجزاء الأخرى ، إلى تغيرات في السكان . ونتج عن خصوبة التربة تزايد في القوة ، التي أدت إلى اضطرابات أهلية مدمرة ، وجعلت من هذه البلدان ، في الوقت نفسه ، هدفاً لأطماع الأجانب البالغة . أما (أتিকা) Attica ، فإنها على عكس ذلك ، لقد خلت من الاضطرابات الأهلية لفترة طويلة متصلة ، بسبب فقر تربتها . ولم يحدث أن افتقدت سكانها الأصليين أبداً . ومما يؤيد رأبي في أن المهجرات قد عاقت التطور المائل للبلدان الأخرى . هو أن أهم صحايا الحرب والاضطرابات الأهلية في بقية العالم الهليني قد وجدوا في أئينا كلاجئين ملاذاً لهم ، وأخذوا سماتهم الطبيعية منذ أقدم العصور وما لبثوا أن زادوا من عدد السكان الذين تدفقوا فيما بعد من (أتيسكا) ، وأقاموا لهم مستعمرات في (أيونيا) Ionia .

وثمة دليل آخر يبدو لي إلى جانب ضالة الآثار القديمة ؛ ألا وهو أنه قبل حرب طروادة ، لا يبدو أن هيلاس ، قد قامت بمجهود موحد . وأعتقد أن هذا الاسم في حد ذاته لم يكن قد انتشر بعد ليشمل العالم الهليني . وأن التسمية ، في حقيقة الأمر ، لم تكن معروفة على الأرجح قبل عصر « هيلين » Hellen بن « ديوكاليون » Deucalion ، وأن أسماء القوميات المختلفة انتشرت محلياً ، وكان أكثرها اشارةً « البلاسجيين » Pelasgians ولم تكن هناك دولة في (فثيوتس) Phthiotis حتى زمن « هيلين » وأبنائه الذين طلبت منهم الدول الأخرى أن

يتدخلوا لصالحها ، فاتجهوا خلال هذا التدخل إلى إطلاق اسم « الهلينيين » على دولة إثر دولة . ومهما يكن الأمر ، فقد انقضت على ما يبدو فترة طويلة ، قبل أن تتداول هذه التسمية . ويمكن الاستدلال على هذا بوجه خاص ، من « هومر » الذي وجد بعد مضي فترة طويلة جداً من الزمن على حرب طروادة ، فنجد أنه لم يطلق اسم « الهلينيين » على العنصر بأسره ، أو على أى عنصر آخر ، عدا أتباع « أخيلئوس » Achilles من (فثيوتس) ، وكانوا هم بالفعل الهلينيين الأول . ولم يتحدث « هومر » أيضاً ، عن غير الهلينيين ، للسبب الذى من أجله أعتقد أن « الهلينيين » لم يكونوا قد اتخذوا اسماً معيناً يمكن أن تتباين معه أى تسمية أخرى . وعلى أية حال ، فإن العناصر الأصلية للجنس الهليني (كما ساد هذا الاسم بشيوعه من دولة إلى دولة حتى غدا اسماً عالمياً) قد عاقها قلة التداخل وضعفه فى المشاركة فى أى مشروع ، لدرجة أن حملة طروادة لم تكتمل لها عناصر الحملة المشتركة إلا فى عرض البحر .

ويعتبر « مينوس » Minos أول رجل معروف فى الروايات القديمة قام ببناء أسطول سيطر به على الجزء الأكبر مما تطلق عليه الآن البحر الهليني ، وحكم (الأرخبيل) Archipelago ، وكان أول من استعمر معظم الجزر — وطارد « الكاريين » الأصليين ، ونصب أبنائه حكماً . ومن المحتمل أنه طهر البحار من القراصنة على قدر استطاعته ، كى يوجه الدخلى إلى خزائنه الخاصة . وقد مارس الهلينيون فى الأزمنة القديمة ، القرصنة ، شأنهم فى ذلك شأن سكان الجزر والسواحل من غير الهلينيين . بعد أن اضطرد ازدياد مواصلاتهم البحرية . وتولى القيادة أناس ذوو مكانة من أجل مصالحهم الشخصية من ناحية ومساندة أتباعهم من ناحية أخرى . واعتادوا أن ينقضوا على المدن المكشوفة والقرى فينبهونها ، فكان ذلك مصدراً رئيسياً لأرزاقهم . ولم يكن ثمة عار لحق بعد بهذه المهنة ، بل كانت تمتاز بما عداها من المهن الأخرى ، والدليل على ذلك تلك الهالة التى تحبوا حتى يومنا هذا بموهبة القرصنة بين بعض شعوب البر^(١) ، وكذلك الحوار الذى يزخر به

(١) مثل شعوب البلقان فى قلب شبه الجزيرة الهلينية (المحقق) .

الشعر^(١) في الأزمنة الباكورة . وما زالت شعوب البر يغير بعضها على البعض الآخر . وتوجد إلى الآن ، أجزاء كبيرة من (هيلاتس) ، لاتزال الأساليب القديمة باقية بها — كما هو الحال بين « اللوكرين » Locrians الجنوبيين ، و « الأيتوليين » Aetolians وسكان أكارنيا Acharnians ، وسائر تلك المنطقة من القارة . ولا تزال عادة حمل الأسلحة منذ أيام القرصنة باقية بين شعوب اليااسة ، لأن العالم الهليني بأسره خلال فترة ما ، كان يحمل الأسلحة . فقد عاش في العراء ولم يكن الاختلاط مأمون الجانب ، فلم يتخل قط عن الأسلحة ، بصورة أكبر مما تفعل الشعوب غير الهلينية اليوم . ومثل هذه الراوسب ، في هذه الأجزاء من هيلاتس تدل على أن تلك العادات الماثلة قد انتشرت ذات يوم على نطاق واسع .

وكان الأثينيون من الأوائل الذين تخلوا عن السلاح ، وتحولوا إلى أسلوب حياة أكثر دعة وتهديباً . وأخيراً ، تخلى المسنون من الطبقة المهدبة عن الكاليات ، كارتداء قمصان من الكتان وعقص شعورهم في حمة تزينها مشابك ذهبية على هيئة الجندب . وقد استمرت هذه الحياة سائدة لفترة طويلة لدى الجيل القديم من بني جلدة الأيونيين . فالرداء البسيط الذي ترتديه اليوم ، أوجده الإسبرطيون في بادئ الأمر ، وقد تبسطوا في المظهر بأسره حتى يكون في متناول الفقير والغني . وكانوا أول من تدرّبوا عراة ، وتجردوا من ثيابهم علناً ، ودهنوا لهذا الغرض أجسادهم بالزيت . ومع أن المتبارين قد اعتادوا في الأصل أن يستروا عوراتهم بأردية حتى في مباريات الألعاب الأولمبية ، إلا أنه لم تمض سنوات كثيرة حتى أقفلوا عن هذه العادة . ونحن نجد في أيامنا هذه بين بعض الشعوب غير الهلينية ، خاصة في آسيا ، شعوباً ما زالت ترتدي الرهاط (مئزر) عندما يقيمون مباريات الملاكمة والمصارعة . ومن اليسير أن نجد أوجه شبه كثيرة بين الحياة الهلينية القديمة والحياة غير الهلينية الحديثة .

(١) يوجه إلى البحارة القادمين للشاطئ سؤال دون تمييز عما إذا كانوا قرصنة ، ولا تراودهم فكرة الخجل من هذه التجارة أو أن يكون في هذا السؤال نوع من الإهانة (المؤلف) .
(م ٣ — الإغريق)

وكان لدى البلدان التي تأسست أخيراً جداً، عقب قهر البحار ، فائض من رأس المال ، وأقيمت من أجل ذلك على الساحل أو عبر البرازخ وحصنت تحصيناً صناعياً في أكثر المواقع الاستراتيجية والتجارية الملائمة . وتماشت المستعمرات الأولى خيرة البحر ، بسبب أعمال القرصنة الدائمة ، التي لم تحدث في الجزر فحسب بل وعلى البر أيضاً (لأن القراصنة كانوا يغيرون على سكان السواحل غير المشتغلين بالملاحة كما كان يغير بعضهم على بعض) ، وأبقوا حتى يومنا هذا على مواقعهم الأصلية داخل اليابسة . أما سكان الجزر الذين كانوا قراصنة نشطين على غرار الباقين ، فقد كانوا من « الكاريين » و « الفينيقيين » وقد قام هؤلاء باستعمار غالبية الجزر ، كما أثبت ذلك (ديلوس) Delos . وعندما أعاد الأثينيون تقديس جزيرة (ديلوس) إبان الحرب الأخيرة ، أزالوا كل ما وجد فيها من هياكل ثبت أن الكاريين قد أقاموا أكثر من نصفها . ومما يؤكد هذا نوع الأسلحة التي أدخلوها معهم وشكل المدافن الكارية الذي ما زال سائداً . وقد أصبح وسائل النقل البحري أكثر أمناً ^(١) بعد بناء أسطول « مينوس » . فبدأ أهالي السواحل في تجميع رؤوس أموالهم وإقامة حياة أكثر استقراراً ، واستخدموا ما زاد عن حاجتهم من المال في بناء التحصينات لوقاية أنفسهم . ورأى الضعفاء أن من الأسلم لهم أن يقبلوا سيادة الأقوياء سياسياً ؛ فاستخدم الأقوياء بدورهم الفائض لإخضاع الدول التي تقل عنهم شأنًا . وقد وصلوا مرحلة التطور هذه تقريباً قبل أن يقوموا بحملتهم ضد طروادة .

واعتقد أن « أجامنون » Agamemnon استطاع أن يحشد أسطوله لأنه كان القوة المسيطرة بين معاصريه وليس لأن خطاب « هيلينا » كانوا مضطرين للسير وراءه بناء على قسمهم « لتنداريوس » Tyndareus . وفي الحقيقة تؤكد أصدق رواية عند البيلوبونيز بأن « بيلوبس » Pelop^s قد استولى في بداية الأمر على السلطة بفضل رؤوس الأموال التي جلبها معه إلى هذا القطر الفقير من آسيا ، ونجح في فرض اسمه رغم كونه نازحاً . وكان ينتظر أحفاده نجاح أعظم

(١) قام مينوس بتطهير الجزر من المجرمين ، وكانت هذه فرصة ليستعمر فيها معظم الجزر

فعمدا قتل « بنوهرقل » « يورثيوس » Eurystheus في (أتيكا) ، فإن « أترئوس »
Atreus خال « يورثيوس » الذي طرد من بيت أبيه بسبب مقتل « خريسيبوس »
Chrysippus ، وجد نفسه مسئوفاً عن أهالى (موكنائى) وأملاكهم ، التى عهد
بها إليه « يورثيوس » لصلة القرابة التى كانت بينهما . ولما لم يعد « يورثيوس » اعتلى
« أترئوس » العرش بمحض إرادة أهل موكنائى ، الذين كانوا يحشون الهرقلين (١)
وهكذا تفوق أتباع « بيلوبس » على البرسيين Perseidae ، وأعتقد أن ذلك
الميراث مصحوباً بالتفوق البحرى ، هو الذى مكن « أجاممنون » من أن يحشد
قواته ، التى كانت مسخرة أكثر منها متطوعة . ويبدو أنه أعد بنفسه أضخم حامية
من السفن ، التى كان لديه الكثير منها واستطاع أن يوفر بعضها للأركاديين
Arcadians ، واذا اعتمدنا على رواية « هومر » وأخذناها كدليل تاريخى ، نجده
يقول فى (تسلم الصولجان) إن « أجاممنون » (كان رب جزر كثيرة وبلاد اليونان
بأسرها) . إلا أنه لولا هذا الأسطول ما كان فى مقدوره ، حتى ولو كانت لديه
سلطة مطلقة على البر ، أن يسيطر على أى جزيرة فيما عدا تلك الجزر التى تجاور
سواحله ، والتى لم تكن كثيرة العدد . وما نعرفه عن حملة طروادة يصلح أن يقوم
دليلاً على طبيعة تلك الحملات التى سبقتها .

إن صغر حجم موكنائى وعدم الأهمية الراهنة لهذه البلدة أو تلك ، ليست دليلاً
كافياً على تكذيب أقوال الشعراء والأقوال المتوارثة الخاصة بحجم الأسطول الحربى .
ولنفرض ، على سبيل المثال ، أن مدينة (إسبرطة) Sparta أصبحت مهجورة
ليس فيها شئ سوى المباني العامة وأساس المنازل ، فإننى أعتقد أن الفترة الطويلة
التى تعقب ذلك من شأنها أن توحى بالشك لدرجة كبيرة فى مدى تطابق السلطة
الراهنة للإسبرطيين وما كان لهم من شهرة تاريخية . لقد سيطر الإسبرطيون
بالفعل على خمس جزر بيلوبونيزيا وكانت لهم الولاية على الجزر الباقية ، كما كان لهم
مثل هذا النفوذ على حلفاء كثيرين خلف حدود إسبرطة ، ومع ذلك فإن المدينة

(١) كان أترئوس مهيباً فعلاً ، وقد استمال إلى جانبه الجماهير فى موكنائى والدول الأخرى
التى تدخل فى حيازة يورثيوس ، (المؤلف) .

تبعث انطباعاً بالذونية ، لأنها لم تكن مدينة مركزية^(١) ، ولم تكن تزنيها مبان عامة فخمة ، دينية كانت أم دنيوية ، اللهم إلا مجموعة من مجتمعات القرى ذات النظام الهليني البدائي . ومن جهة أخرى ، فإن أثينا لو تعرضت للمصير ذاته ، فإن بقايا المدينة المادية من شأنها أن توحى بأن قوة الأثينيين كانت ضعف ما هي عليه في الحقيقة . وعلى هذا فمن الخطأ أن نشك ، أو أن نحكم على الدول من مظهرها الخارجي أكثر من الحكم عليها من قوتها الباطنة ، ومن الأسلم أن نفترض أن الحملة الطروادية قد فاقت ماسبقها من حملات وإن لم تبلغ حدود الحملات الحديثة — هذا على افتراض أن دليل هومر يمكن أن يؤخذ موضع ثقة . لأن هومر من المفروض ، أن يبالي باعتباره شاعراً ، ومع هذه المبالغة فإن انطباع الذونية مازال باقياً ، حتى في حدود الأرقام التي يقدمها ، وهي أنه كانت هناك ١٢٠٠ سفينة ، لها ١٢٠ بحاراً في حامية (بويوتيا) و ٥٠ بحاراً في حامية « فيلوكتيتس » Philoctetes ؛ وأميل إلى اعتبار هذه الأرقام الحد الأعلى والحد الأدنى لعدد السفن — وعلى أية حال فإنه لا يذكر عدد السفن وهو يستعرض الأسطول في مواضع أخرى . وبين بعد ذلك في معرض وصفه لسفن « فيلوكتيتس » أنه لم يكن ثمة فرق بين البحارة والمحاربين ، إذ أنه اعتبر من يقوم بالتجديف رامياً للسهام . وليس من المحتمل أن يكونوا قد نقلوا ركاباً كثيرين فيما عدا الملك والضباط العظام — ولا سيما عندما كان عليهم أن يبحروا هم أنفسهم ومعهم عتاد الحرب عبر البحر المكشوف ، وكان هذا يتم على سفن دون سطح مكشوف ومبنية على أسلوب القراصنة البدائي . وإذا ما أخذنا المتوسط بين أكبر رقم للسفن وأصغر رقم ، فإن الرقم الناتج لجملة القوات سوف لا يبدو كبيراً ، مع العلم بأنه يمثل الحملة المشتركة من مجموع أجزاء هيلاس .

ولم يكن سبب هذا هو الضعف في القوى البشرية بقدر ما كان الضعف في القوى المالية . وقد أدت صعوبات أجهزة التمويل إلى جعل عددهم بالقدر الذي يكفي

(١) وذلك عن طريق توحيد عدد من القرى المبعثرة في مركز حضارى واحد ، وهذه العملية كانت بمثابة النشأة التاريخية لعاصمة الدولة الهلينية . (المحقق) .

اغزو البلد ، وحتى عندما فرضوا سيادتهم في الميدان بعد أن رسوا على البر ،
(وذلك ما كان يجب أن يفعلوه ، وإلا فإنه لم يكن في مقدورهم تحصين معسكرهم)
يبدو أنهم لم يستخدموا قواتهم بأسرها في العمليات ، إلا أن هذه الصعوبات
التموينية قد اضطرتهم إلى أن يعودوا للممارسة الزراعية (في شبه الجزيرة^(١)) وأن
يعودوا إلى القرصنة . وقد ساعد هذا التشتيت في قواتهم الطرواديين ، الذين كانوا
نداً لقوة الهلينيين الحربية في أية لحظة ، على أن يصمدوا أمامهم طيلة عشر سنوات
بينما لوجلب الهلينيون الإمدادات معهم وأبقوا على قواتهم في حالة عمل مستمر ،
دون أن يشتتوها في القرصنة والزراعة ، يضاف إلى ذلك تفوقهم في الميدان ، لكان
من اليسير عليهم أن يستولوا على طروادة . غير أن الذي حدث ، هو أنهم أبقوا
على قواتهم مع وضع قسم منها في الجبهة طالما كان هذا كافياً . وعلى ضوء الظروف
الحديثة ، كان يتعين عليهم أن يقيموا حصاراً منظماً ويستولوا على طروادة في فترة
ومتاعب أقل . وأما كان الأمر ، فإن نقص القوى المالية لم يكن نقطة ضعف
الفترات السابقة فحسب بل نقطة ضعف الحرب الطروادية ذاتها ، والتي ثبت أنها أقل
في الحقيقة من شهرتها التي حظيت بها أكثر من أي حرب سابقة ، وقياساً إلى
الشهرة التي حظيت بها في الشعر . وبقي العالم الهليني ، حتى بعد الحرب الطروادية
معرضاً للهجرة وتكرار الاستيطان اللذين حالاً دون التطور المستقر . وقد أدى
تأخير عودة قوات الحملة إلى عدم استقرار كبير ، واجتاحت الثورات معظم الولايات ،
وأقام اللاجئون ولايات جديدة . وبعد سقوط طروادة بستين عاماً طرد
« التساليون » « البيوتيين » الحاليين من (آر) Arne واحتلوا ما يعرف
الآن ببيوتيا ، وإن كان من المألوف أن يطلق عليهم « القدميس »^(٢) Kadmeis .
وبعدها بثمانين عاماً ، هزم الدوريون بقيادة خلفاء هرقل البيلوبونيزيين . وأخذت
(هيلاس) تهدأ ولكن في ألم وبطء شديدين إلى أن أصبحت مستقرة استقراراً
تاماً وشرعت في إقامة المستعمرات . وقد استعمر الأثينيون (أيونيا) ومعظم الجزر ،

(١) شبه جزيرة جاليبولي Gallipoli (المحقق) .

(٢) استقر فرع منهم بالفعل هناك وأرسل حامية بيوتيا إلى طروادة (المؤلف) .

واستعمر البيلوبونيزيون (إيطاليا) وصقلية وأما كن قليلة خارجها . ويبدو أن جميع عمليات الاستعمار هذه كانت متأخرة عن الحرب الطروادية .

وما إن أصبح العالم الهليني أكثر قوة وثراء عما كان عليه ، حتى قامت (١) حكومات أرستقراطية مستبدة ، وتزايدت الدخول العامة ، وبنيت هيلاس أساطيلها واتجهت نحو البحر بعزم أكبر . ويقال إن (الكورينثيين) Corinthians هم أول من استخدم وسائل البحرية الحديثة ، وإن السفن الحربية (٢) قد تم بناؤها في (كورينثا) Corinth قبل أن يتم بناؤها في هيلاس . ويبدو أن الساميين Samians كان لديهم أربع سفن بناها لحسابهم صانع السفن الكورينثي « أمينوكليس Ameinocles ، الذي ذهب إلى (ساموس) Samos قبل انتهاء الحرب الأخيرة بحوالي ثلاثة قرون . ووقعت أقدم معركة بحرية معروفة بين الكورينثيين والكوركيين Cörcyraeans حوالي عام ٢٦٠ قبل التاريخ المذكور . وكان لموقع كورينثا على البرازخ أكبر الأثر في جعل التجارة بأيدي سكانها منذ أقدم العصور ، لأن اتصالات الهلنيين ببعضهم البعض داخل بيلوبونيزيا وخارجها كانت أصلاً على اليابسة أكثر منها في البحر ، ومن ثم عبر إقليم كورينثا . وقد ملك الكورينثيون سلطان المال ، كما هو ثابت في قصائد الشعراء الأول الذين يشيرون إلى كورينثا بكلمة (الثروة) ، وعندما أصبحت الملاحة أكثر انتشاراً بين الهلنيين ، أصبح للكورينثيين أسطولهم ، وأصبحوا سادة القرصنة ، وأقاموا سوقاً لتتاج البحر تماماً كتجارة البر ، وبسطوا نفوذهم بفضل مواردهم ، ثم قام « الأيونيون » بتطوير أسطولهم في عهد «سيروس الأول» Cyrus ملك فارس Persia وابنه «قبيز» Cambyes . وفي حروبهم مع «سيروس» سيطروا على مياهم لفترة من الوقت . وفي حكم «قبيز» أصبح «بوليكرايس Polycrates سلطان ساموس صاحب سلطة بحرية فأخضع عدداً من الجزر — بما فيها (رهينيا) Rheneia التي

(١) كانت هناك من قبل ملكيات مستبدة ذات إمتيازات ثابتة (المؤلف) .

(٢) سفن حربية ذات قوة مجاديف تبلغ ثلاثة أضعاف النوع القديم (المحقق) .

أهداها إلى « أبولو » في (ديلوس) ، وهزم الفوكيون القرطاجيين في البحر حينما كانوا يقيمون مستعمراتهم في (مرسيليا) Merseilles . تلك كانت أقوى الأساطيل الموجودة وقت ذلك ، وحتى هذه الأساطيل ، برغم أن تاريخها يمتد إلى عدة أجيال بعد الحرب الطروادية ، فإنها على ما يبدو قد استخدمت سفناً حربية قليلة كانت لا تزال تتكون من خمسين مجدافاً ، وقوارب طويلة مثل أساطيل فترة الحرب الطروادية . وإن هي إلا فترة قصيرة قبيل الحرب الفارسية ووفاة « داراً Darius .. خليفة « قبيز » حتى بنيت السفن الحربية في عدد لا بأس به على أيدي الحكام المستبدين في صقلية وعلى أيدي الكوركيين . وهي آخر الأساطيل الهامة التي وجدت في العالم الهليني قبيل حملة « كسر كسيس » Xerxes . وقد كان لدى « الأيجنتيين » Aegnetans والآثينيين ، وآخرين سفن قليلة كانت في الغالب من ذات الخمسين مجدافاً ، وفي إحدى فترات التاريخ المتأخرة نسبياً حث « ثيميستوكليس » Themistocles الآثينيين ، وقت أن كانوا في حرب مع « أيجنيا » Aegina ، على أن يبنيوا السفن التي حاربوا بها فعلاً - وهي سفن ، كانت زيادة على ذلك ما تزال دون ظهر مكشوف ، وكان غزو الشرق على وشك أن يقع .

هذا هو تاريخ الأساطيل الهلينية في أزمنة متقدمة ومتأخرة . وبذات الوقت ، فإن الأمم التي زادت من الاضطرابات أحرزت سلطة لا بأس بها في الدخل المالى والرقعة الخارجية . لقد غزوا الجزر وهزموها خاصة تلك المناطق التي لم يكن أهلها يعتمدون على أنفسهم . ومن جهة أخرى ، لم تحدث أية حرب نتيجة لتركز السلطة على البر ، كتلك الحروب التي حدثت بين سكان الحدود . ولم يقم بمد الهلينيون بحملات عسكرية بعيدة لغزو دائم ، لأن أكبر الولايات لم تكن قد أخضعت بقية الولايات ، بينما لم تقم الوحدات المستقلة بحملات مشتركة على قدم المساواة . ولم يكن هناك سوى حروب محلية بين الجماعات المتجاورة . أما الحرب المبكرة بين (خالكس) Chalcis و (إرتريا) Eretria فقد كانت أول بادرة مهدت للانقسام العام في العالم الإغريقي إلى معسكرين ، واصطدم تطور الدول المختلفة بعدئذ بعقبات متباينة ، وأحرز الأيونيون تقدماً

ملحوظاً عندما هاجمهم «سيروس» والملكية الفارسية ، بعد هزيمة «كرويسوس» Croesus والبلدان الواقعة غربى نهر (هاليس)^(١) Halys وانتقصوا من مساحة دولهم على اليااسة . وبعد ذلك أقام « دارا » من نفسه سيداً على الجزر ، بمساعدة الأسطول الفينيقى . وقد أسهم الطغاة المختلفون الذين نشأوا فى الدول الهلينية ، وكانت نظرتهم الأنانية محصورة فى تأمين راحتهم الشخصية وثرورات عائلاتهم ، فى السلام بقدر ما استطاعوا فى سياستهم الخارجية . ولهذا لم تحدث أية عواقب هامة ، خلاف ما كان يقع باستمرار بين الجماعات فى قطاعهم المحلى . وقد نشأت أقوى الدول على أيدى جبابرة صقلية . وهكذا كان العالم الهلبنى خاضعاً لفترة طويلة للضغط من كل اتجاه ، مما حال دون أى عمل مشترك واضح ، وألقى بالدول المنعزلة فى سلبية مهينة .

وأما كان الأمر ، فقد أطاح الإسبرطيون^(٢) بغالبية عتاة أثينا وبقية مدن هيلاس (حيث كانت الحكومات المطلقة سائدة لفترة من الزمن) — وعلى وجه الدقة أطاحوا بآخر هؤلاء الحكام ماعدا حكام صقلية — ولم تمض سنوات طويلة بعد الإطاحة بهم حتى نشبت معركة (ماراثون) Marathon بين الفرس والأثينيين . وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ سار « دارا » بجيشه العظيم للمرة الثانية نحو هيلاس كى يستولى عليها . وسيطر الإسبرطيون فى هذه الأزمات على حلفائهم باعتبارهم أقوى دولة هلينية ، بينما قابل الأثينيون الغزو الفارسى بالتخلى عن مدينتهم والجلء عنها على السفن التى كانوا قد أعدوها فى البحر . ولم يتم وضع حد لدارا بالجهد المشترك . وما كاد الهلينيون يتحررون من فارس حتى انقسم حلفاء الأمس إلى معسكرين أحدهما تزعمه إسبرطة والثانى أثينا ، أقوى دولتين ظهرتتا فى ذلك

(١) كوزيل يرماك Qyzyl Ermaq (المحقق)

(٢) بعد تأسيس إسبرطة على أيدى سكانها الدوريين الحاليين ، تمزقت بفعل الاضطرابات الداخلية لعدة سنوات متقطعة ، ولكنها كانت أيضاً رائدة الإصلاح ولم تقع فى قبضة طاغية على الإطلاق . وعاش الإسبرطيون لمدة أربعة قرون تحسب منذ نهاية الحرب الأخيرة ، عاشوا فى ظل الدستور^٢ تهمه الذى منحهم سيطرة التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى . (المؤلف)

الوقت — إحداهما في البر والأخرى في البحر . وبعد أن كان العمل مشتركاً بين الجيوش لفترة وجيزة ، تنازع الإسبرطيون والأثينيون وانطلقوا للقتال ، كل فريق بحلفائه ، وأحازت الدول الإغريقية الأخرى التي تنازعت منذ ذلك الحين ، إلى هذا الفريق أو ذاك . ومنذ الحرب الفارسية حتى الحرب الأخيرة ، تعاقبت المهادنات والحملات بشكل دائم (يتصارع فريق مع الفريق الآخر ، أو يحدث صراع مع المنشقين بين صفوف حلفاء كل فريق) ، مما أدى إلى إتقان تسليحتهم وتحسين تكتيكهم الحربى بالتدريب على القتال المباشر . ولم يفرض الإسبرطيون على حلفائهم الذين قدموا لهم مساعدات عسكرية أن يسهموا بالمال بل التزموا أمامهم بتأمين حكمهم لصالح إسبرطة حسب لأئحة محددة . وسيطر الأثينيون تدريجياً على أساطيل الولايات الكونفدرالية فيما عدا (خيوس) Chios و (ليسبوس) Lesbos ، وفرضوا ضريبة سنوية محددة عليهم جميعاً ، مما أدى إلى أن تصبح الأسلحة المحلية التي كانت في حوزتهم في بداية الحرب الأخيرة ، تفوق أقوى أسلحة كانت في أيدي الأتحاد عند بدايته .

هذه هي نتائج أبحاثى عن الماضى — وإن كان من العسير فى هذا المجال أن نعتمد كل دليل بصورته التى يرد بها إلينا . وإنما نقبل الروايات التاريخية ، بما فيها تلك التى تتعلق بالأحداث المحلية ، بنفس الافتقار إلى النقد الذى لا يتغير من عقل إلى آخر . وتتصور غالبية الشعب فى أثينا أن « هيبارخوس » Hipparchus كان طاغية حينما اغتاله « هارموديوس » Harmodius و « أرسطوجيتون » Aristogeiton ، ولم تتأكد من أن « هيبياس » Hippias خلف والده « بيزيستراتوس » Peisistratus بمقتضى حق الوراثة ، وأن « هيبارخوس » و « تسالوس » Thessalus مجرد إخوة له . وسبب هذا ، أنه يوم محاولة الاغتيال خشى « هارموديوس » و « أرسطوجيتون » فى آخر لحظة ، أن تكون الخطة ، قد تسربت بواسطة زملائهم فى المؤامرة إلى « هيبياس » ، فلم ينفذوا قتل « هيبياس » على زعم أنه قد اكتشف الخطة . وبينما هما يتوقعان إلقاء القبض عليهما بين لحظة قهراً ألا يضحيا بنفسيهما سدى ، فأغتالا « هيبارخوس » أثناء انشغاله بعمل

الترتيبات لموكب (البانأثيناى)* في حرم (اليوكريوم) Leocureum . وقد تظلمت ذكريات الماضي بمضى الزمن ، إلا أن أنظمة كثيرة كانت قائمة قد أساء فهمها العالم الهليني بأسره . فمثلاً كان يشيع الظن ، بأن لكل ملك من ملوك إسبرطة صوتان انتخابيان بدلاً من صوت واحد ، وأنه كان هناك ما يسمى (كتيبة بيتان) Pitane Battalion — وهي وحدة لم توجد قط . وقد عانت أغلبية الشعب بعض الآلام في البحث عن الحقيقة وهي على استعداد لقبول الرواية الأولى التي تفرض نفسها . وما زال من المضمون استخلاص الفتايج التي استخلصتها أنا من الدليل الذي سرده بعكس ترهات الشعراء المبالغ فيها أو المسلية أكثر من المؤلفات الدقيقة التي يقوم بها علماء السلالات . ولا توجد في الحقيقة ، أية وسائل تؤكد موضوعاً له مثل هذا القدم ويمكن بواسطتها شق الطريق بين الروايات الغامضة . وربما يكفي هذا القدر في مثل هذا المجال مادامت هناك سمات بارزة . أما الحرب الأخيرة فهي مسألة مختلفة . وإنني أدرك أن الناس خلال الحروب يمتقدون دائماً أنهم غارقون في أعظم حرب عرفها التاريخ ، ثم لا يلبثون أن يعودوا يتغنون بالمجد الغابر بعد إقرار السلام ، ولو أن حقائق الحرب الأخيرة تنطق بذاتها وتبين أنها قد فاقت سابقتها .

وفيما يتعلق بالأحداث المختلفة التي ألقيت قبل الاعتداءات أو بعدها ، فقد وجدت أنه من المسير المحافظة على دقة الرواية الشفاهية في الحالات التي كتبت أنا فيها الراوى ، أما الأشخاص الآخرون الذين أخذت عنهم تقاريرى فقد نقلوها بدورهم عن غيرهم ممن عاشوا التجربة ذاتها . وكان منهجى هو أن أعيد صياغة ما يصلنى باللغة التي تبدولى أنها الأرجح والأكثر ملاءمة لكل مقام . بينما أحافظ بإخلاص وبقدر المستطاع على المعنى العام للحديث الذي ألقى فعلاً . أما فيما

* كان هناك في بادىء الامر احتفال دينى يقام لإجلال الالهة (أثينا) حامية مدينة أثينا . ولما أصبحت البلاد كلها تحت حكومة واحدة صار الاحتفال بالهة مدينة أثينا عيداً للدولة بأسرها وتغير الاسم القديم (أثيني) ، إلى (بانأثيني) . ويلاحظ أن المقطع الأول (Pan) . معناه كلى أو جميع (المترجم العربى) .

يختص بوقائع الحرب المادية ، فإنني لم أكن راضياً عن اتباع المخبرين الرسميين أو تصويرى الخاص . وفي المواضع التي لم أكن فيها شاهد عيان بنفسى ، تحريت بأكبر دقة بالغة ممكنة كافة التفصيلات التي وصلتني عن طريق ناقلى الروايات ، وكان ذلك عملاً مضمناً لأن شهود الأحداث الخاصة ذاتها قد قدموا روايات اختلفت باختلاف مشاعرهم الذاتية أو أولياء نعمتهم . وقد يجد الجمهور فى روايتى جفافاً لا يستسيغونه ، إلا أننى سأكون راضياً ، إذا ما قوبل عملى بالرضا من جانب القراء الذين يضعون نصب أعينهم دقة المعلومات فى الوقائع التي لم تحدث فحسب ، بل التي يمكن أن تحدث مرة أخرى فى أى احتمال بشرى . لقد حاولت دائماً أن أسهم فى المعرفة أكثر من أن أقوم بعمل من أعمال البطولة .

لقد كانت الحرب الفارسية أعظم حرب قبل الحرب الأخيرة ، وقد وقعت فور الاشبك فى البحر والبر مرتين . إلا أن الحرب الأخيرة استغرقت فترة طويلة ورزأت هيلاس بكوارث ليس لها مثيل فى أية فترة تاريخية سابقة . ولم يحدث أن سقطت مدن أو دمرت بهذه الكيفية من قبل على أيدي غير الهلنيين والمخارين الهلنيين أنفسهم^(١) ، ولم يحدث أن طرد الناس من بيوتهم أو ذبحوا بهذه الصورة سواء فى الحرب ذاتها أو فى الاضطرابات الأهلية . وفضلاً عن ذلك فإن أحداثاً مروعة وقعت على نطاق واسع وكان لها سوابق مماثلة وإن كانت قليلة . . كالهزات الأرضية التي حدثت بدرجة من المدى والعنف لا مثيل لها ، وتكرار حالات كسوف الشمس التي لم يحدث لها مثيل . وهناك أيضاً أحداث القمع المحلية القاسية والمجاعات المتكررة ، وأحد هذه الكوارث الفظيعة الطاعون ، الذي أدى إلى نقص عدد السكان . كل ذلك وكان الحرب كانت بمثابة إشارة البدء لهجوم سائر قوى الطبيعة تلك .

وكان نشوب الحرب يعنى نقض السلام الذى دام ثلاثين عاماً والذى عقده الأثينيون والبلوبونيزيون بعد قهر (يوبويا)^(٢) Euboea . وسوف أدلى برواية

(١) هناك حالات حدث فيها تغير فى السكان عقب سقوط المدن (المؤلف)

(٢) وقعت من جانب الأثينيين فى عام ٤٦٤ ق م (المحقق) ؛

أولية عن المنازعات التي أدت إلى نقض السلام ، حتى لا يفوت القارىء ما يجب عليه إدراكه عن كيفية انزلاق الهلينييين إلى مثل هذا الصراع المروع . وفي رأبي ، أن ما دفعهم إلى امتشاق الحسام ، هو هذا الخوف الذي بثه الأثينيون في قلوب الإسبرطيين نتيجة لحشودهم العسكرية ، وهو السبب الذي اعتبره صورة رئيسية في الروايات الرسمية .

تاريخ الحرب البيلوبونيزية

(الجزء الثاني)

(نص أكسفورد ، تحقيق ستيفارت جونز Stuart—Jones الكتاب الخامس . الفصول ٢٥ — ٢٦) .

بعد أن انتهت مفاوضات المعاهدة والتحالف بين (إسبرطة) و (أثينا) ؛ والتي انتهت بمقتضاها حرب السنوات العشر^(١) ، ألقى الموقعون أنفسهم في سلام^(٢) . ولكن (كورينثا) ودولاً أخرى من البيلوبونيز بدأت في تقويض دعائم الاستقرار ، على نحو جعل إسبرطة تفرق في مشاكل جديدة مع حلفائها . وأصبح الإسبرطيون بمضى الزمن ، يرتابون بدورهم في الأثينيين ، لأنهم أخفقوا في تنفيذ نصوص معينة من شروط الاتفاقية . حقيقة أنهم أحجموا طيلة الست سنوات والنصف الأولى ، عن غزو أى إقليم من الأقاليم الأخرى ، إلا أنهم لم يفوتوا فرصة لإزالة الضرر أجدها بالآخر في ميادين أخرى . وظلت الهدنة مزعزعة ، حتى جاءت ظروف دفعت بهم في النهاية إلى تعكير صفو السلام الذي عقد بعد السنوات العشر الأولى وتحول إلى عداء مكشوف .

(١) ٤٣١ — ٤٢١ ق م (المحقق) .

(٢) في بليستولاس Pleistolas وهو عام مجلس الحكم في إسبرطة و (السكاپوس)

في أثينا ١

وقد كتب ثوكوديديس الأثيني ، تاريخ الطور الثاني من الحرب — في تعاقب
زمني بين الشتاء والصيف ، إلى يوم أن أطاح الإسبرطيون وحلفاؤهم بالإمبراطورية
الأثينية ، ثم احتلوا (الجدران الطويلة) Long Walls ، (و بيرايوس)^(١)
Peiraeus . وتبلغ فترة استمرار الحرب حتى هذا التاريخ سبعة وعشرين سنة بما
فيها فترة الهدنة التي يعتبر إسقاطها من الحساب خطأ . وإذا كان هناك قارىء
لا يوافقني في هذا الرأي ، فما عليه إلا أن يفحص هذه الفترة في ضوء الحقائق حتى
يتأكد من أن كلمة (السلام) لم تنطبق على فترة الهدنة . لأن كلا الفريقين لم يستعد
أو يسترد كافة الأماكن المنصوص عليها في الاتفاقية ، ناهيك عن انتهاك السلم من
جانب الفريقين في الحروب المانتينية Mantanean والأبيدورية Epidaurian وفي
مناسبات أخرى ؛ ولم يكف حلفاء أثينا على ساحل تراقيا عن العدوان ؛ وعقد
البيوتيون فقط هدنة على فترات متقطعة تبلغ كل فترة عشرة أيام في كل مرة . وإذا
أدخلنا الحرب الأولى (التي دامت عشر سنوات) ، والهدنة المزعومة التي أعقبها
والحرب الثانية التي أنهت تلك الهدنة ، فإن مجموع السنوات ، إذا ما حسبت
بالفصول ، تبلغ أقل من الرقم الذي ذكرته بأيام قليلة ، ومن الصدف فإن هذه الحادثة
إنما تؤيد من يعتقد في الرجم بالغيب . إنني أذكر تماماً تكرار القول دائماً في دوائر
عريضة ، منذ بداية الحرب إلى نهايتها ، بأن الحرب مقدر لها أن يطول أمدها إلى
تسع سنين مضروبة في ثلاث . ولقد عشت خلالها جميعاً ، ولم أكن في سن من
يدرك فحسب ، بل كنت أتجشم مشقة الوقوف على معلومات دقيقة . وقدر لي أن
أنق من بلدي لعشرين سنة بعد قيادتي في (أمفيبوليس) Amphipolis ، وفي
هذا الموقف تمكنت من أن أرى شيئاً لدى كلا الجانبين — البيلوبونيزي والأثيني —
وأن أعد دراسة حول الحرب في وقت فراغي . ويتعين على الآن أن أسرد المنازعات
التي أعقبت خاتمة حرب السنوات العشر الأولى ، ونقض المعاهدة ، وسير الحرب
الثانية التي تلت ذلك .

(١) مات المؤلف ، لسوء الحظ ، قبل إتمام مشروعه (المحقق) .

بولوبيوس الميجالى

Polybius of Megalopolis

(٢٠١ — ١٢٠ ق.م)

تاريخ العالم

(نص توينر Feubner تحقيق و . بتر وبست W. Buttner—Wobst ؛
الكتاب الأول الفصول ١ — ٤) .

إذا ما كان المؤرخون السابقون قد أغفلوا تقرير فهم الخاص بهم ، فلقد كان من واجبي أن أنوه بإشارة عابرة عن الود الذى قوبل به هذا الفرع من الأدب . لأن معرفة الأحداث الماضية هي بمثابة المقوم الحقيقي للطبيعة البشرية . وأبما كان الأمر ، فإن هذا الواجب لا ينبغي أن يتم بشكل شاذ أو دون اكتراث . فهو من الناحية الفعلية الإشارة التى بدأ بها كافة المؤرخين تقريباً وأنهم أعمالهم ، حينما أطروا دروس التاريخ على اعتبار أنها أسلم تربية وتدريب للحياة السياسية ، وبدراسة تغير أحوال الآخرين باعتبارها أكثر المدارس فعالية ، أو أنها فى الحقيقة المدرسة الوحيدة التى تكتسب فيها الروح الحققة لتحمل تقلبات الحظ . وعلى هذا ، فمن الجلى ، أنه لا يلتمس العذر لأى مؤرخ يكرر ما يكون قد تردد أو قيل من قبل بشكل بارع ، وأقل هؤلاء طراً هو كاتب هذه السطور . فإن الأحداث التى اختارها مادة له هي بذاتها شاذة بما يكفى أن تثير وتوقظ انتباه أى قارىء صغراً أو كبيراً . وأى عقل هذا الذى مهما بلغت تفاهته أو عدم اكترائه لا يستشعر تطلعاً إلى تعلم تلك العملية التى كان من جرائها أن سقط العالم كله تقريباً تحت سطوة روما دون منازع خلال فترة أقل من ٥٣ عاماً ، أو لا يتطلع إلى أن يلم بالتنظيم السياسى الذى يعزى إليه هذا الانتصار — وهى ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجنس البشرى ؟ وأى عقل هذا الذى مهما خلبته مشاهد أو دراسات أخرى ، كان أمامه أن يجد مجالاً للمعرفة أكثر فائدة من هذا المجال ؟

إن الطبيعة غير العادية والأهمية الفائقة للمشكلة التي يعنى بها عملنا هذا ، ربما اتضح أكثر إذا عقدنا مقارنة نقدية بين سيادة روما وأكثر الإمبراطوريات شهرة في التاريخ القديم والتي استحوذت على انتباه المؤرخين حتى الآن . وأصدق هذه الحالات هي : الفرس الذين امتد سلطانهم مدة من الزمن على إمبراطورية شاسعة ، ولكنهم منذ أن غامروا خلف حدود آسيا ، بدأوا يفقدون ، لا إمبراطوريتهم فحسب ، بل وجودهم أيضاً . والإسبرطيون الذين تولوا مركزاً قيادياً في هيلاس بعد نزاع طويل الأمد ، وظلوا في وضع لا نزاع فيه لعشرة أعوام فقط ، والمقدونيون Macedonians الذين أقاموا حكمهم في أوروبا من الأدرياتيك Adriatic إلى الدانوب Danube (وهو قسم ليس بذى أهمية من تلك القارة كما يبدو لنا الآن) ، وضموا بعد ذلك رقعة آسيا بعد أن أطاحوا بالإمبراطورية الفارسية . كانت كل هذه إمبراطوريات شهيرة ومتسعة وقوية في زمانها ، إلا أنها تركت بالفعل الجزء الأكبر من المعمورة خارج حدودها . ولم تسع أبداً إلى أن تنازع سيادة صقلية وسردينيا أو شمال أفريقيا ، وتجهل كذلك وجود معظم الشعوب التي تنزع إلى الحرب في أوروبا وهي شعوب الغرب . ومن جهة أخرى فإن الرومان لم يخضعوا جزءاً من العالم فحسب ، ولكنهم أخضعوا العالم المعمور فعلاً ، وأقاموا دولة ذات شهرة لم تحظ بها الدول المعاصرة لها ، ولم يتيسر حتى للدول التي جاءت بعدها أن تطمع في التفوق عليها . ومن أهدافنا هنا أن نلقى ضوءاً أعلى هذه الظاهرة^(١) وأن نبين الفوائد العديدة الهامة التي تقدمها إلى الدارسين الجادين لهذا الفرع العملي من التاريخ .

إن نقطة بداية هذا العمل من الناحية التقويمية هي الأولمبياد^(٢) Olympiad المائة والأربعون . وفيما يلي المعاملات الأولى المسجلة : في هيلاس . هناك ما يطلقون عليه الحرب الفيدرالية ، التي بدأت بحلف عدائي ضد « الأيتوليين » Aetolians

(١) النص اليوناني لهذه الجملة متآكل (المحقق) .

(٢) استعمل بولوبيوس كلمة فنية خاصة للإشارة إلى مؤلفه .

(٣) كان الأولمبياد يعقد دورياً كل أربعة أعوام ، يقاس بتكرار الألعاب الأولمبية ، وبدأ الأولمبياد المائة والأربعون في الصيف الأخير من عام ٢٢٠ ق . م (المحقق) .

بين «الآخيين» Achaeans و«فيليب» Philip، ابن «ديمترىوس» Demetrius ووالد «برسيوس» Perseus ، وفي آسيا ، حرب جوف سوريا Hollow Syria بين «أنتيوخس» Antiochus و«بطليموس فيلو باتور» Ptolemy Philopator في إيطاليا وشمال أفريقيا ، هناك الحرب بين الرومانيين القرطاجيين ، والتي تعزف عادة بالحرب الهاننيالية . وهذه المعاملات تلحق بآخر جزء مسجل في مؤلف «أراتوس السيكوني»^(١) Aratus of Sicyon . وفي الفترات السابقة وردت عمليات العالم المأهول في أبواب مستقلة ، ووردت فيها المشروعات التي سعوا للقيام بها ، والنتائج التي أحرزوها والمراکز التي تشتمل عليها ، وردت في شكل غير مترابط . إلا أنه منذ ذلك التاريخ فصاعداً والتاريخ يكتسب خاصية عضوية فإن العمليات الخاصة بإيطاليا وشمال أفريقيا ، أصبحت تدرج ضمن عمليات هيلاس وآسيا ، وأصبحت كافة التيارات تتجه إلى هدف واحد . وهذا ألزم الكاتب بأن يبدأ عمله في التاريخ المذكور آنفاً . فالكاتب ينظر إلى هزيمة القرطاجيين على أيدي الرومان في الحرب الهاننيالية على أنها الخطوة الحاسمة في مسعى الرومان للسيطرة على العالم . وما إن تمت هذه الخطوة حتى تجاسروا ليمدوا أيديهم إلى بقية العالم ويخولوا لأنفسهم حق التدخل العسكري في هيلاس وآسيا .

وإذا ما كانت مجموعتا الدول اللتان تتنازعان سيادة العالم في هذه الحرب مادة لمعرفة شائعة، فربما يكون من نافلة القول أن تزج بقسم تمهيدى نشرح فيه السياسة والموارد التي أوحى اليهم أن يباشروا مشروعات ضخمة كهذه . وأيما كان الأمر فإن الموارد السابقة وتدابير الدول الرومانية والقرطاجية كانت بالفعل غير مألوفة لدى أغلبية الشعب الهليني بحيث يبدو من الضروري أن نقدم لهذا التاريخ بمجلدين تمهيديين^(٢) وهذا من شأنه أن يضمن ألا يجد أى قارئ نفسه في بداية روايتي

(١) هو السياسى الهليني البارز في عصره ٢٧١ — ٢١٣ ق . م (المحقق)

(٢) إن المجلد ، وهو في أصله ومعناه الحرفى عبارة عن لفة من ورق البردى أو الجلد ، كان وحدة أصغر بكثير من المجلد الغربى الحديث المطبوع (المحقق) .

الرئيسية دون إجابة على سؤاله : أية سياسة كانت في أذهان الرومان ، وأية موارد عسكرية واقتصادية كانت في متناول أيديهم ، عندما شرعوا في هذا المشروعات التي أدت إلى أن أصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط بأسره وساحله أيضاً ؟ وسيوضح هذان المجلدان أن الوسائل التي كانت تحت أيدي الرومان قد استخدمت لخلق الدولة العالمية والإمبراطورية العالمية بالصورة التي حققوها ، وذلك بشكل يدعو للإعجاب .

ويعتبر الاتفاق الذي ساق كافة تدابير العالم في اتجاه واحد ووجهها نحو هدف واحد ، هو الخاصية الشاذة للعصر الراهن ، وتعتبر القسمة الخاصة للعمل الراهن نتيجة لهذا الاتفاق . وتفرض وحدة الأحداث على المؤرخ وحدة مماثلة من التأليف عندما يصور لقرائه عملية قوانين الحظ على مدى واسع ، وكان هذا هو الباعث الرئيسي المنبه لي في العمل الذي أخذته على عاتق . وإلا لكان من شأن هذا المجال أن يثبت جاذبية أقل لطموحى . والذي حدث هو أن الحروب المحلية وبعض التدابير المرتبطة بها قد تناولها عدد من المؤرخين ، بينما لا يوجد مؤرخ واحد ، على ما أعلم ، حاول أن يفحص ، من وجهة النظر العامة ، العلاقات الداخلية لتتابع الأحداث وأصولها ونتائجها . وقد جعلني يقيني هذا أشعر بالضرورة المطلقة لعدم إغفال أكثر إجراءات الحظ جدارة بالإعجاب والتي لها دلالة تثقيفية أو المرور دون تعليق واحد عليها . إن الحظ وهو ذلك الثورى الجبار ، الذى جعل من حياة البشر قطع شطرنج في يديه ، لم ينجز من قبل عملاً بطولياً مثيراً للدهشة . كهذا العمل الذى قام به لصالح جيلنا . إلا أن الموضوعات التي دمجها المؤرخون المتخصصون لا تقدم أى إشارة للصورة الكاملة ، وإذا ظن أى قارىء أن معاينة البلدان الرئيسية ، كل بمزلة عن الآخر ، أو بالأحرى ، أن تأمل تواريخها المحلية كل على حدة ، من شأنه أن يقدم له صورة سريمة للعالم في ترتيبه ووضع العام ، فإننى أرى من واجبي أن أسارع بفضح مغالطته هذه ، لأننى أعتقد أن الإصرار على القول بأن الدراية بالتاريخ المحلى تقدم نظرة مترنة عن الظاهرة بأسرها ، أمر خاطيء كخطأ الظن بأن تأمل عضو من أعضاء الجسم ، يعادل الملاحظة المباشرة للكائن نفسه بكل ما في (م ع — الإغريق)

الحياة من طاقة وجمال . وإننى لأتصور أن أى إنسان يتمسك بمثل هذا الوضع عليه أن يقبل توأاً جسامه خطئه المضحك ، فى تصورهُ أن ساحراً ما بوسعه أن يكشف له سر الكائن ، بضربة واحدة ، فى مثل كمال شكله الأصيل وفيض حيويته . حقيقة أن الجزء قد ينبىء ويقدم لمسة عن الكل ، إلا أنه ليس من الممكن أن يقدم معرفة دقيقة ومؤكدة عنه ، يستدل من هذا أن الإخصائين قد أسهموا بالنزر اليسير نحو فهم حقيقى لتاريخ العالم . فإن دراسة الاتصالات العامة والعلاقات والمثالثات العامة والاختلافات العامة هى الطريق الوحيد لفهم عام ، وبغيرها لا يمكن استخلاص فائدة أو متعة من البحث التاريخى .

تاريخ العالم

مقدمة المجلد التاسع

(نص توبنر تحقيق بتنر وبست الكتاب التاسع ، فصول ١ - ٢)

إننى ادرك أن هناك شيئاً ما لا يستساغ فى عملى ، على اعتبار أنه يوافق طبقة خاصة من القراء ، وأنه معرض للنقد بسبب رتابة أسلوبه . إن سائر الكتاب الآخرين تقريباً ، أو غالبيتهم على أى تقدير ، يقدمون جميع فروع الكتابة التاريخية على اختلافها ، ولهذا فهم يجتذبون جمهوراً عريضاً يتصفح مؤلفاتهم . فن يحب القصة يجذبه الجانب الخاص بالأنساب ، والعقول التواقه للاستطلاع والتمحيص تجذبها أبحاث أصول الدول ، وقيام المستعمرات وموضوعات الأجناس البشرية كتلك التى نجدها عند « إيفورس » Ephorus ، فى حين تميل العقول ذات الاتجاه السياسى إلى ذلك الجانب الذى يعنى بأعمال الناس والدول والحكام . أما أنا فقد هيات نفسى بوجه خاص إلى هذا الجانب الأخير ، وأنا إذ أجمع عملى كله حول هذا المركز الذى طاب لى ، أكون ، كما قلت ، قد جعلته يناسب طبقة

خاصة من القراء ، وذلك على حساب جعله مادة غير جذابة بالنسبة للغالبية . أما الأسباب التي حدثت بي إلى نبذ الفروع الأخرى والتزام الجانب العملي ، فقد شرحتها بتفصيل وافٍ في مكان آخر . ويبدو أنه ليس هناك ما يحول دون إيجازها مرة أخرى حتى تؤكد الاتجاه وأفيد قرأني .

وحقيقة الأمر ، أن قصة علم الأجناس والأصول والأساطير والسلالات والاستعمار قد تعددت روايتها من جانب كتاب كثيرين لدرجة أن أى مؤرخ يتناول القصة اليوم ، لا يجد مندوحة من أن يختار بين إعادة قول الغير على أنه قوله ، وهذا مسلك غير أمين بالمرّة ، أو أن ينزع إلى تقرير حقيقة قائمة لاسبيل إلى إخفائها ، فيعترف ضراحة بأن الموضوع الذى يبني عليه أفكاره وبراعته الأدبية إنما قد تناوله من سبقوه بصورة وافيه . ولهذا السبب ولغيره من أسباب تحلّيت عن هذه الفروع من جهة واحتضنت الفروع الخاصة بالإجراءات العملية - فأولا ، لأن المادة الحديثة تراكم دأعماً وتتطلب تسجيلاً حديثاً (لأنه يستحيل منطقياً أن يجبرنا كتاب الماضى بمعاملات الفترات المتأخرة) ، وثانياً ، لأنه فرع تثقيفى أكثر من غيره . لقد كان هذا الأمر صحيحاً على الدوام ، إلا أنه لم يكن صحيحاً كما هو صحيح اليوم ، إذ أن تقدم المعرفة والتكثيف قد بلغ حداً أمكن معه تناول أى ظاهرة يكشف عنها تطور الأحداث تناولاً علمياً وبأيدٍ خبيرة . ومن ثم لم أستهدف إمتاع القارىء العادى بقدر ما استهدفت تثقيف الدارس الجاد . وعلى هذا فقد آليت على نفسى أن أمثل هذا الفرع وأن أهمل الفروع الأخرى . وسوف أجد أقوى دليل على إنصاف رأى عند الدارس الواعى .

ديودورس الأجرىومى

Diodorus of Agyrium

(٩٠ - ٢٠ ق. م)

مكتبة التاريخ العالمى

(نص توينر، تحقيق ف. فوجل F. Vogel الكتاب الأول الفصول ١ - ٥)

يستحق كتاب التاريخ العالمى شكر زملائهم ، واعترافهم بالفضل للروح التى يقدمون بها أعمالهم من أجل خير البشر. لقد اكتشفوا سر تقديم الثمار من التجربة دون عناء ، ولهذا لديهم معرفة ذات قيمة لا تقدر يقدمونها إلى قراء مؤلفاتهم . وإن المشاق والمخاطر لهى ضريبة الحكمة التجريبية التى تجلبها الحياة اليومية ، وإننا لنجد أن البطل الأسطورى الذى تعتبر خبراته ثمينة جداً ، عليه أن يتكبد المشاق المضنية من أجل ...

أن يرى مأوى أناس كثيرين

وأن يقرأ ما يجيش فى صدورهم

بينما نجد التاريخ قادراً على أن يقدم معلوماته دون آلام بتقديسه فكرة عن فشل الآخرين ونجاحهم . ونحن مدينون كذلك لهؤلاء المؤلفين لما بذلوا من جهد لتآلف سائر الجنس البشرى، الذى ينخرط أعضاؤه جميعاً فى نظام واحد عظيم ، رغم حواجز المكان والزمان . وهم فى مسعاهم هذا، لم يعتبروا أنفسهم أكثر من خدام للعناية الإلهية . وقد ربط الله برعايته سير نجوم السماء وطبائع الناس فى نظام واحد ، وحفظها فى حركة دائمة إلى الأبد . وأعطى لكل واحد حظه المقسوم هذا، بينما يقوم مؤرخو العالم بتسجيل المعاملات العامة للعالم كما لو كان مجتمعاً قائماً بغيره ، ويفضلون تدابير العناية الإلهية خلال القيام بعملية الفحص العظيم للتنظيم الداخلى .

وإنه لمن نعم الله علينا أن يعطينا الفرصة لتطوير أنفسنا بتحاشر أخطاء الآخرين، وفي كافة فرص هذه الحياة الزائلة وتغيراتها، فإن المرء حر في أن يكرر نجاح الماضي بدلاً من أن يكون مجبراً على تجربة مؤلمة في الحاضر. وفي أمور الحياة العادية، تعتبر أحكام الجيل الأكبر مقبولة دائماً من جانب الجيل الأصغر، وذلك للخبرة التي حصل عليها ذلك الجيل على مر الزمن، إلا أن المعرفة التي يقدمها التاريخ تفوق خبرة الأفراد في قيمتها، وذلك لتفوقها الواضح في الدرجة والقيمة. وسوف تكون الفائدة الكبرى من هذه الدراسة موضع رضا عام بالنسبة لكل موقف معقول في الحياة. ويفيد الصغار من هذه الدراسة عن طريق فهم الكبار، وتتضاعف بفضلها تجربة الكبار إلى مائة ضعف، وبفضلها يتحول عامة الناس إلى قادة، والذين ولدوا ليتولوا مراكز قيادية يثيرهم خلود الشهرة التي تقدمها لهم هذه الدراسة فيقومون بمشروعات نبيلة، وينبهر الجنود أيضاً بالمجد المرتقب مما يدفع بهم إلى المغامرة بحياتهم في سبيل بلادهم. أما الآثمون فيقف في وجوههم الخزي الأبدي الذي يتوعدهم به التاريخ جزاء دوافعهم الشريرة. وعلى العموم، فإن فضائل التاريخ لقيت مجداً كبيراً، حتى إن الأمل قد دفع بالبعض ليقوموا بتأسيس الدول، وبالبعض الآخر كي يقدم قوانين تسهم في أمن البشر، وبالبعض الثالث كي يقوموا باكتشافات علمية وعملية أفاد منها الجنس البشري كله. وتزايدت درجة السعادة الإنسانية نتيجة لكل هذه الجهود، فبينغي والحال هكذا أن يعود المديح كله إلى التاريخ، فهو السبب الرئيسي في هذا كله. إذ يمكن القول بأن التاريخ وصى على الذين يريدون الاحتفاظ بالشهرة، وهو الشاهد على الذين يفرطون غيها، وهو صاحب الفضل على الإنسانية بأسرها. حتى إن أسطورة الجحيم، وهي خرافية تماماً، تعتبر أداة فعالة لتحويل قلوب الناس إلى البر وخافة الله. وعلى هذا، فبأي قدر من العظمة، يجب علينا أن ندرك أننا القوة الفعالة عظيمة القدر بالنسبة للتاريخ، نبي الحقيقة وينبوع الفلسفة؟ وسر الطبيعة هي أن حياة الأفراد جزء ضئيل جداً من الأبدية إذا ما قورنت بالزمن الذي يجيء وهم غير موجودين فيه أما أولئك الذين لم ينجزوا ما يستحق الذكر في حياتهم، فإن موت الجسد يعقبه انقراض

وجودهم تماماً ، أما أولئك الذين أكسبتهم قدراتهم المجد ، فإن الثناء الذي يقطر من شفاه التاريخ القدسية ليؤكد ذكرى خلود أعمالهم . والشخص الحكيم هو من يجد في الشهرة الخالدة بالطبع تعويضاً مجزياً عن المتاع الزائلة . ومن المعروف تماماً أن « هرقل » Heracles قد كرس وقته كله الذي قضاه في هذا العالم في تحمل ثوري المتاعب والأخطار المضيئة المستمرة . ومن أجل هذا كان ينبغي أن يحظى بالخلود باعتباره صاحب فضل على الجنس البشرى . كذلك القديسون الذين حازوا شرفاً بطولياً أو إلهياً ، مدينون جميعاً بكل ما حصلوا عليه من مجد إلى الخلود الذي جعل التاريخ يتفرغ لما حققوه . أما سائر الذكريات الأخرى فهي زائلة وعرضة للتلف تحت ظروف كثيرة ، إلا أن التاريخ ، الذي يمتد سلطانه على العالم ، وجد في الزمن متلافاً كبيراً ، وحارساً في الوقت ذاته لتراثه الدائم من أجل الأجيال القادمة .

والتاريخ معلم البلاغه ، وموهبة المواهب ، فالبلاغة تجعل الهليني في مرتبة أعلى من غير الهليني ، والمتعلم فوق الجاهل ، وهي السلاح الوحيد الذي يمكن رجلاً بمفرده من أن يتغلب على كثيرين . وعلى العموم ، فإن أية قضية تتوقف على مقدرة الرجل الذي يعرضها . إننا نطلق على الطيبين من الناس أنهم (جديرون بالذكر الطيب) بمعنى أنه الجزء الذي استحقوه لقاء ما قاموا به . وفي الفروع العديدة التي تنقسم إليها البلاغة ، يقدم الشعر المتعة أكثر من المنفعة ، والتشريع يتجه للعقوبة أكثر منه للتعليم . كذلك فإن الفروع الأخرى لا تسهم في السعادة الإنسانية ولا تقدم محصولاً يجمع بين الحنطة والحشائش ، بل يخون بعضها الحقيقة . وليس في التاريخ اتساق بين الحقائق ومعناها الحرفي فحسب ، بل هناك ولحده لكل منفعة . انظر إلى ثماره وأنت تدرك أنه يهدف للصواب وينبذ الشر ويحبد الخير ، وبعبارة موجزة ، يضيف إلى الذين يدرسونه الحكمة الإنسانية .

إن تأمل الإستحسان الذي قوبل به المؤرخون قد أثار في حماساً مماثلاً للموضوع ، أولهمتني دراسة من سبقوني في هذا المضمار أقوى المشاعر للاتفاق معهم في الهدف .

وأكد أشعر في الوقت نفسه ، بأن إمكانيات المعرفة الزاخرة والكامنة قد تحققت في أعمالهم . وتتوقف قيمة مثل هذه الأعمال بالنسبة للقارىء ، على درجة تمهيد أكبر عدد من الظروف وتباينها ، إلا أن معظم المؤرخين يقتصرون في تسجيلاتهم على حروب متفرقة شنها أناس بعينهم أو دول بعينها ، بينما حاولت قلة منهم تسجيل أعمال الجنس البشرى منذ أقدم العصور حتى عصرهم . ومن هذه القلة أيضاً ، نفر اقتصروا على الأعمال التي قام بها العالم الهليني . ورفض البعض أساطير الأقدمين على اعتبار أنها مادة صعبة . واختطف القدر البعض الآخر قبل أن ينجحوا في إتمام برنامجهم الذي شرعوا فيه ، لدرجة أنه لا يوجد بين الذين وضعوا لأنفسهم برنامجاً محدداً بدءوا فيه فعلاً ، كاتب واحد واصل تأريخه إلى ما بعد عصر المقدونيين . وقد اختتم البعض تسجيلاته بأعمال فيليب . وتوقف آخرون عند « الإسكندر Alexander » وآخرون عند خلفاء الإسكندر في الجيل الأول أو الثانى . وبرغم أن الأعمال فيما بين التاريخ الأخير وجيلنا ، والتي تركت دون أن يقربها أحد ، عديدة وهامة ، فإن إتساع الموضوع قد منع أى مؤرخ من أن يحاول تناولها في حدود عمل واحد . وترتب على هذا أن تبعث تسجيل الأعمال التاريخية في عدة مؤلفات كتبها مؤرخون متعددون وتناولوا فيها الفترات المتباينة . ولهذا كان من العسير أن تتحكم في الموضوع كوحدة كاملة أو حتى تمتد كره .

وبعد أن انتهيت من فحص مؤلفات مختلف الكتاب الذين سبقت الإشارة إليهم ، قررت أن أكرس جهدى في موضوع تاريخى يجمع بين أكبر منفعة ممكنة مع أقل احتمالات إدخال الملل على القارىء . وقد وضح لى أن كل مؤرخ منهم بذل أقصى الجهد في تعقب الأعمال التاريخية المسجلة عن العالم بأسره منذ أقدم العصور ، على أساس تناول الموضوع من ناحية واحدة . وبهذا ألقى على عاتقه عبئاً هائلاً ، إلا أن العمل الناجم عن مجهوداته في الوقت نفسه ، كان من شأنه ، أن يؤتى ثماره لجمهور القراء ويعتبر مورداً غنياً يستطيع كل واحد أن ينهل منه ما يروى ظمأه دون مشقة . والقراء الذين يحاولون أن يتلمسوا طريقهم وسط تيه الأعمال التاريخية القائمة ، يواجهون في المحل الأول ، صعوبة الحصول على مداخل للكتب اللازمة

ويجدون ، فى المحل الثانى ، أن سيادة الأحداث تنوء منهم فى أشنات المؤلفات المنشورة المتشعبة . ومن جهة ثالثة ، فإن تناول الموضوع كوحدة يسهل المهمة على القارىء وذلك بتزويده برواية مستفيضة ، يسهل التحكم فيها . ومجمل القول ، فإن تفوق هذا الفرع من التاريخ على بقية الفروع يقدر مثماً تقدر منفعة الكل الفائقة بالنسبة إلى الجزء ، وبمنفعة الدوام بالنسبة إلى عدم الاستمرار ، فضلاً عن فوائده فى إيجاد تقويم دقيق للروايات التى لا يكاد يظهر منها أكثر أدلة التاريخ غموضاً .

وانطبع فى نفسى أيضاً مدى الفائدة من عمل يحتذى النهج السابق ذكره رغم التضحية بالجهد والوقت اللازمين ، وعلى ذلك فقد كرسى ثلاثين عاماً لهذه المهمة ، تعرضت خلالها لمتاعب ومخاطر لا بأس بها فى القيام برحلات طويلة فى آسيا وفى أوروبا أيضاً . وقد قررت أن أقف بنفسى على أكثر الأماكن ، على الأقل الهامة منها ، لأن الافتقار إلى معرفة خصائص الأماكن ضلل دائماً الكتاب الذين هم فوق المستوى العادى ، أو حتى بعض من ذاع صيته منهم . وكان رأسمالى الوحيد لتنفيذ مشروعى هو حماس للعمل — تلك الروح التى مكنت الطبيعة البشرية من فعل المستحيلات الواضحة — بلى ذلك ، مواد دراسة موضوعى التى تتوافر فى روما . إن تفوق روما وسلطانها الذى يمتد إلى أقاصى الأرض ، قد وفر لى خلال الفترة الطويلة التى أقيمت فيها هناك مصادر لا تحصى وتسهيلات . أما موطنى (أجيريم) فى صقلية ، واتصالى بالمستوطنين الناطقين باللاتينية فى الجزيرة ، فقد جعلنى أجيد اللغة اللاتينية إجادة تامة ، ولهذا استطعت أن أستخلص معلومات دقيقة عن كافة المعاملات الرومانية من السجلات المحمية ، التى كانت محفوظة منذ تاريخ مبكر . واتخذت الأصول الأسطورية للعالمين الهليني وغير الهليني ، نقطة بداية لتاريخى ، حسب الروايات المتباينة التى لم أدخر وسعاً فى الإفادة منها .

والآن وقد تم برنامجى ، قبل أن أعرض نتائج جهودى على الملأ ،

(١) كانت اللغة السائدة فى صقلية حين ذاك (وحتى القرن الحادى عشر بعد المسيح) هى اللغة اليونانية (المحقق) .

ينبغي أن أمهد لها بجدول صغير يحتوى على العمل كوحدة قائمة بذاتها . فجلداتى الستة الأولى تحتوى على أعمال وأساطير سابقة على الحرب الطروادية — المجلدات الثلاثة الأولى غير هلينية ، بينما تزخر غالبية المجلدات الباقية بتاريخ هيلاس القديم . وسجلت فى المجلدات الأحد عشر الأعمال العامة للعالم منذ الحرب الطروادية حتى موت الإسكندر ، بينما أتيج لى فى المجلدات الثلاثة والعشرين التالية أن أسجل سائر الأعمال بين ذلك التاريخ وبداية الحرب الكلتية — الرومانية Celto — Roman التى حطم فيها « جايوس يوليوس قيصر » Gaius Julius Caesar ، قائد القوات الرومانية التى أحرزت له شرفاً قدسياً ، مقاومة غالبية الشعب الكلتى (بما فيها معظم المحاربين) ، وبسط سيادة روما حتى الجزر البريطانية . وقد تمت العمليات الأولى لهذه الحرب فى السنوات الأولى للأولمبياد المائة والثمانين ، وفق السنة التى حكم فيها « هيرودس » Herodes فى أثينا .

كانت تلك هى الأبعاد الزمنية لعملى ، إلا أننى لم أسع إلى تقويم محدد لأحداث ما قبل الحرب الطروادية ، طالما لم تقع فى يدى أية قائمة تحتوى على تواريخ لهذه الفترة يمكن أن يوثق بها . وفيما بين الحرب الطروادية وعودة « بنى هرقل » حذوت حذو « أبولودورس » Apollodorus الأثينى فى افتراضه فترة ثمانين عاماً ، وأن الفترة بين التاريخ الأخير والأولمبياد الأول قد قدرت بثلاثمائة وثمانية وعشرين عاماً ، قام فيها حكم ملوك إسبرطة Sparta ، فى حين أن الفترة بين الأولمبياد الأول وآخر تاريخ لعملى ، هو بداية الحرب الكلتية ، تقدر بسبعمائة وثلاثين عاماً . ينبغى أن توضع فى الاعتبار . لذلك فإن الأربعين مجلداً التى تشتمل على عملى بأمله تحتل فترة تقدر بـ ١١٣٨ سنة ، دون أن تدخل فيها الفترة التى حدثت فيها أحداث سابقة على الحرب الطروادية .

إن الهدف من هذه القائمة الدقيقة للمحتويات لم يقتصر على تقديم مفهوم لخطى فحسب ، بل يمنع أيضاً تجار النشر عن ممارسة تشويه مؤلفات الغير . والجزاء الوحيد الذى أرجوه هو أن تجد الفقرات الناجحة فى مؤلفى قبولاً كريماً وأن تجد

الأخطاء تصويباً من جانب قراء أكثر منى كفاية . فهذا يتمم برنامجى ، وما على الآن إلا أن أحاول إنجاز وعدى فأقدم العمل ذاته .

ديونوسيو س الهاليسكارناسى

Dionysius of Halicarnasuss

(عرف فى النصف الأخير من القرن الأول ق . م)

تاريخ روما القديم

(نص تويينز ، تحقيق ك . چا كوبي C . Gacoby الكتاب الأول .

الفصول ١ - ٨)

أراني ملزماً ، وهذا لا أرغب فيه كثيراً ، أن أقدم هذه الملاحظات الشخصية الأولية وهى سمة جد شائعة . فى مقدمات الأعمال التاريخية . وأيما كان الأمر ، فإننى لا أنوى أن أسهب فى الحديث عن جدارتى ، لأننى أدرك تماماً أن الحديث فيها من شأنه أن يبعث السأم لدى قرأى ، كما لا أنوى الخوض فى النيل من زملائى الكتاب ، على نحو ما فعل « أنا كسيمينيس » Anaximenes و « ثيوبومبوس » Theomopus فى مقدمات مؤلفاتهما التاريخية . أما الدافع عندى ، فهو ببساطة ، شرح الأسباب التى حدثت بى شخصياً أن أبأشر هذا العمل ، وأن أولى بعض الأهمية لمصادر معلوماتى . وأعتقد أن أى فرد يريد أن يترك للأجيال المقبلة بعض الذكريات تبقى بعد زوال وجوده المادى ، عليه أن يلتزم — بالدرجة الأولى ، ولا سيما كاتب المؤلفات التاريخية (ذلك الذى يقدر ما نعتقد أنه المبدأ الأول لكل حكمة وإدراك وهو الحق) — باختيار موضوع جيد ذى طبيعة سامية يفيد القارى حقاً . وبلى ذلك فى الأهمية أن يولى هذا الكاتب أقصى العناية والبذل لتزويد نفسه بالمصادر الصحيحة لمؤلفه الخاص . وهناك بالطبع مؤلفون دفعهم التعطش للشهرة إلى الضلال ، دون نظر إلى طبيعة هذه الشهرة أو المناسبات التى يعرضون فيها قدرتهم

الأدبية في عمل من أعمال البطولة . وهناك من اتخذوا من أحداث شائنة أو سخيصة أساساً لعملهم . فمثل هؤلاء الكتاب لا يستحوذون على إعجاب الأجيال المقبلة بعارفهم ولا يشتهرون بأعمالهم أو قدراتهم ، بل إنهم يتركون ، في كل عقل يدرس مؤلفاتهم ، انطباعاً مؤداه أن أهدافهم الشخصية في الحياة قد انعكست فيما ينشرون — إذ أن المؤلفات الأدبية ينظر إليها في العادة وبشكل عام على أنها مرآة لشخصية مؤلفها . كذلك الكتاب الذين يختارون موضوعات طريفة إلا أنهم يكشفون فيها عن سواتهم وعن اعتمادهم الصريح على الإشاعات ، لا ينالون أى ثقة فيما يختارونه ، لأن هذا الاتجاه يؤدي مشاعرنا ، حينما نرى تاريخ الأمم المعروفة ومشاهير الحكام يعالج بطريقة ارتجالية . كانت تلك إذن هي المبادئ التي أعتبرها ضرورية لكتاب التاريخ . وقد أوليت اهتماماً كبيراً لكل منها ، ولهذا لم أشأ أن أتركها دون تسجيل ، وما كنت لأجد مكاناً أكثر ملائمة لها من مقدمة مؤلني هذا .

وأنا على ثقة بأن الأمر لا يتطلب عبارات كثيرة لتوضيح جودة الموضوع الذي اخترته ، وسمو طبيعته أو اتساع نطاق الإفاده منه . هذا إذا ما افترضت سلفاً في قرأى الإمام بالمبادئ الأولية للتاريخ العام . وما على هؤلاء إلا أن يعودوا بذكريتهم إلى إمبراطوريات الماضي (سواء التي أخذت شكل المدن الرئيسية أو شكل الأمم) والتي لها سجلات تحت أيدينا ، وأن يفحصوها أولاً منفردة ثم مقارنة ، بقصد تحديد أيها حاز سيطرة أوسع وقام بأكثر الأعمال للماعية في السلم والحرب . وسيجدون أن الإمبراطورية الرومانية قد فاقت بشكل لا يمكن قياسه كافة الإمبراطوريات التاريخية التي سبقها ، ليس في اتساع رقعتها وروعة أعمالها فحسب ، (تلك الأعمال التي لم تقدر بعد حق قدرها في الأدب) ، وإنما في طول أمدها حتى عصرنا الراهن أيضاً . إن الإمبراطورية الآشورية Assyrian القديمة شبه الأسطورية لم تمتد رقعتها إلى أكثر من جزء في آسيا ، والإمبراطورية الميديّة Median التي أطاحت بالإمبراطورية الآشورية وأظهرت سلطاناً أعظم ، فقد افتقرت إلى البقاء وسقطت في الجليل الرابع . والفرس الذين قهروا الميديين

وامتد سلطانهم على سائر آسيا تقريباً ، لاقت محاولاتهم في إلحاق الهزيمة بشعوب أوروبا نجاحاً محدوداً وظل ضعف سلطانهم أكثر من قرنين . كذلك السيطرة المقدونية التي أطاحت بفارس القوية وفاقت رقعتها كافة الإمبراطوريات السابقة ، تمتعت برخاء عابر وبدأت في الاضمحلال عقب موت الإسكندر . وتفسخت الإمبراطورية ، في الجيل الأول لخلفائه ، بين عدد من الحكام المتنافسين ، وظلت قوتها مدة جيلين أو ثلاثة فقط قبل أن تنهار بفعل التدهور الذائ حيث اكتسحتها روما نهائياً . حتى الإمبراطورية المقدونية لم تبسط سيادتها الشاملة على البحر والبر ، ولم تحرز موطناً لقدم في شمال أفريقيا بعيداً عن الركن المجاور لمصر ، ولم يتيسر لها أن تخضع سائر أوروبا ، ولم تتقدم شمالى القارة التي تقع فيها إلى أبعد من (تراقيا) شرقاً أو أبعد من الأدرياتيك غرباً .

تلك كانت أقصى حدود السلطان والرخاء التي بلغتها الإمبراطورية السابقة ، والتي يوجد بها قبل أن تسقط سجل تاريخي تحت أيدينا . كما أنه بالنسبة للدول الهلينية ، فإن امتداد إمبراطوريتها وفترة عظمتها كانت ضئيلة جداً إذا ما قورنت بالإمبراطوريات السابق ذكرها دون أى وجه للمقارنة . واقتصرت الإمبراطوريات الأثينية التي ظلت ثمانية وستين عاماً ، على الساحل وعلى مجرد شريط ضيق بين البحر الأسود والبحر البامفيلي Pamphylian حتى في أوج سلطان أثينا البحري . إن الإسبرطيين ، الذين انتهت إمبراطوريتهم ، قبل أن يتمتعوا بها أكثر من ثلاثين عاماً كاملة ، على أيدي أهل طيبة ، نجحوا فقط في بسط سلطانهم على جزر البيلوبونيز وبقية هيلاس كما فعلت مقدونيا وأصبح أمام روما أن تقيم إمبراطوريتها على كل ما يمكن الوصول إليه من ممتلكات على وجه الأرض حتى حدود العمران البشري ، وكذلك البحر بأسره — لا البحر المتوسط فحسب ، بل كافة مياه الأطلنطي الصالحة لسير السفن . إن روما وحدها ، دون سائر الدول التي عرفها التاريخ منذ عصوره الأولى ، هي أولى من امتدت حدودها ، من مشرق

الشمس إلى مغيبها ، وحافظت على سلطانتها لا لفترة زمنية وجيزة فحسب بل لفترة ليس لها مثيل في أية دولة أو مملكة أخرى . لقد أخذت تؤكد سلطانتها عقب تأسيسها مباشرة على جيرانها المحاربين العديدين ، ولم يفلت أى منافس من الخضوع لها ، وانعقد لها الواء النصر هذا دون انقطاع لمدة سبعمائة وخمسة وأربعين عاماً ، حتى زمن قنصلية « كلوديوس ، نيرون » ^(١) Claudius Nero و « بيزوكالبورنيوس » Piso Calpurnius اللذين انتخبا في الأولياد الثالث والتسعين بعد المئة . وما إن ركعت سائر أجزاء إيطاليا تحت أقدام روما ، حتى تطلعت في جرأة إلى سيادة العالم . وحينما طردت (قرطاجنة) Carthage الدولة البحرية الأولى من البحار ، وقهرت مقدونيا ، التي كانت تعتبر الدولة البرية الأولى من قبل ، بقيت روما دون منافس في العالم الهليني وغير الهليني على السواء . إن إمبراطورية روما العالمية ، التي قامت على هذه الصورة ، بلغت الآن الجليل السابع ، ولا تكاد توجد أمة تتحدى حتى سيّطرتها على نفسها ، ناهيك عن سيادتها العالمية . وبقيناً فإنني في حل من إيراد أى إيضاح أكثر يخرج بي عن الموضوع الأصلي . لأنني لم أختار موضوعاً تافهاً ولم أقرر أن أرى أعمالاً سخيفة أو تافهة .

وأما كان الأمر ، فينبغي أن أورد عبارات تمهيدية قليلة لأشرح أن تخصصي في (تاريخ روما القديم) كان قراراً صادراً عن ترو وتعل ، اتخذته وأنا في وضع تسانده الحجج المقنعة . وإلا فثمة خطر في أن أصبح محل إدانة أولئك النقاد الخصوم الذين لا يسرهم شيء ، والذين سوف يلومونني لأنني أعرضت عن كافة الموضوعات الشهيرة التي يتضمنها تاريخ روما وانصرافي إلى تاريخها القديم غير الواضح . سوف يقولون لي إن مجد روما المعاصر وليد أصول وضيعة غير مجيدة ولا تستحق التناول التاريخي . فشهرتها وعظمتها تعودان إلى إلحاق الهزيمة بالدول المقدونية وانتصارها وليد الحروب البونية ^(٢) Punic war ، لعدة أجيال مضت نسبياً . وردى على

(١) كان توليه الحكم للمرة الثانية في عام ٧ ق . م

(٢) البونية . الفيدقية . . مثل القرطاجيين (المحقق) .

الأجيال القادمة في المحل الأول ، جزاء الطيبين الصادقين ، ومن حذا حذوهم . وهذا من شأنه أن ينسخ الطبيعة البشرية ويخلد أعمال الناس بعد موتهم . وفي المحل الثاني ستدفع هذه الشهرة الأحياء وخلفاء هؤلاء الأبطال الذين لم يولدوا بعد إلى تفضيل حياة الطموح النبيل على حياة المتعة والدعة ، وفي اعتقادهم أن أولئك الذين تافقوا هبة وراثية أولية خصبة ، كان ينبغي عليهم أن يضعوا أنفسهم في مستوى أعلى ، وألا يبدوا أبداً غير جديرين بالانتساب إلى أسلافهم . إن جزأى الوحيد على انصرافى لهذا العمل ، دون التفكير فى القلق ، بل التفكير فى الحق والعدل (وهى الأهداف الحقيقية لكل تاريخ) ، يظهر أولاً فى التعاطف مع كافة الذين ابتهجوا بشرف لدراسة الأحداث العظيمة المهمة ، وثانياً ، فى إزجاء الشكر إلى روما . وهذا ما فى وسعى ، ذا كراً التربة والهبات الأخرى التى أسدتها لى رؤما أثناء إقامتى كغريب داخل أسوارها .

أما وقد قدمت الآن عرضاً لبرنامجى ، فلا يزال من واجبى أن أتعرض للمصادر التى رجعت إليها عند كتابتى هذا التاريخ . إن القراء الذين يألفون فعلاً «هبرونيموس» و «تيايوس» و «بولوبيوس» أو أى كاتب آخر من الذين اتهمتهم آنفاً بالسطحية ، سوف يلاحظون أن الجزء الأكبر من مادى غير موجود فى مؤلفات هؤلاء الكتاب . وقد يكون من المعقول أن يتهمونى بالارتجال ، أو أنهم غير راضين عن المصادر التى استقيت منها معلوماى . وبوسعى أن أزيل مثل هذه الشكوك من أذهان قرأى بتقديم بعض الملاحظات الأولية عن الكتب والسجلات التى اتخذتها مرجعاً أساسياً لى . والحق أننى كنت فى إيطاليا وقت أن كانت الحرب الأهلية توشك على نهايتها على يدى « أغسطس قيصر » Augustus Caesar فى منتصف الأولمبياد السابع والثمانين بعد المائة^(١) . ومنذ ذلك التاريخ مر اثنتان وعشرون عاماً ولم أعادر روما أبداً . فقد تعلمت اللغة اللاتينية ، وألمت بالأدب وشغلت نفسى بشكل مستمر بالدراسات المتعلقة بموضوعى الراهن . وقد حصلت

(١) مثلاً ٣٠ ق م (المحقق) .

عن طريق الرواية الشفاهية على جزء من معلوماتي من أفواه الحكماء الرومان المشهورين الذين اتصلت بهم شخصياً . وطالعت جزءاً من الأعمال التاريخية التي تحظى بأكبر شهرة بين الرومان أنفسهم ، من أمثال « بوركيوس كاتو » Porcius Cato و « فايوس ماكسيموس » Fabius Maximus و « فاليريوس الأتيوي » Valerius of Antium و « ليكينيوس ماكير » Licinius Macer وأبلي Aelii وجيلي Gelli وكالبورني Galpurni وغيرهم من الكتاب الممتازين . وتعتبر هذه الأعمال (التي تمثل التواريخ الهلينية المحلية) من الأسس التي اعتمدت عليها في مؤلفي . ولست في حاجة للجديث عن نفسي أكثر ، وعلى أن أذكر الحدود الزمنية لعملي ، ومحتوياته الرئيسية وخطته العامة .

وأبدأ قصتي بالأساطير الموعلة في القدم والتي أغفلها المؤرخون الذين سبقوني ، لأنها كانت تحتاج في تحقيقها إلى بحث مضمّن . وأصل بروايتي إلى بداية الحرب البونية الأولى ، والتي يرجع تاريخها إلى السنة الثالثة من الأولمبياد الثامن والعشرين بعد المائة (١) وقد سردت سائر حروب روما الخارجية التي وقعت في تلك الفترة ، وكذلك الإضطرابات الأهلية التي مرت بها ، مع بيان الأسباب التي أدت إليها وإلى إنهاؤها وسبل ذلك . وأتناول كذلك دساتير روما المتعاقبة سواء قبل سقوط الملكية أو بعدها ، وأصف مجلداتها . وأصف كذلك أكثر أنظمتها إعجاباً وأكثر قوانينها شهرة . وبالاختصار أقدم صورة كاملة عن حياة روما في الأزمنة الغابرة . وتختلف الخطة التي أبنى عليها مؤلفي عن تلك الخطة التي يسلكها المؤرخ الحربي أو الدستوري الخالص ، ولا يكاد يشبه العرض الموجز الذي يسوقه الإخصائي وينشره عن تاريخ أثينا المحلي ، فهناك رتبة كامنة في سائر هذه النماذج التي سرعان ما تبعث الاستياء في نفس القارى . وحاولت في مؤلفي أن أجمع بين الجوانب الثلاثة للأدب وهي الجوانب الجدلية والعلمية والترويحية ، على أمل أن يرضى ذلك كتاب الشئون الدولية ، الذين يكمن اهتمامهم في التأمل الفلسفي ، وأي قارى يبحث عن

(١) عام ٢٦٥ ق . م (المحدث) . .

شكل هادى من اللهو في دراسة التاريخ . ولقد أوضحت الآن موضوع مؤلفي وخطته .

(التوقيع) ديونوسيوس ابن الإسكندر الهاليكارناسى (مؤلف تاريخ روما القديم) .

إنجيل القديس لوقا

[العهد الجديد في الأصل اليونانى . تحقيق ب. ف. وستكوت B. F. Westcott
وف . ا . هورت F. J. A. Hort (لندن ١٨٩٥ الناشر ماكيلان) الإصحاح
الأول . الآيات ١ - ٤ : مهادة إلى ثاوفيلس]

عزيزى

لقد سمى شهود كثيرون من قبلى الى أن يؤلفوا قصة فى الأمور التى تمت فى مجتمعنا ، وما إن وصلت الينا الحكمة من الذين كانوا منذ البدء معانين لها وكرسوا أنفسهم لصيانتها ، رأيت أنا أيضا ، إذ قد تتبعت كل شىء حتى أصوله الأولى ، أن أكتب إليك تباعاً اصالحك ، على أمل أن أمدك بكلام صحيح فى الرواية التى أحطت علماً بها شفاهة .

فلافيوس يوسيفوس الأورشليمى

Flavius Josephus of Jerusalm

(٣٧ - ١٠٠ م)

الحرب اليهودية

(نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الخامس ، تحقيق س . ا . نابى S. A. Naber
الكتاب الأول الفصول ١ - ٦)

إن الحرب اليهودية الرومانية هى أعظم حرب فى أزمئتنا ، ولا نكون مغالين

إذا ما أضفنا أنها أعظم الحروب التي سجلت بين المدن العالمية أو الأمم على السواء. ومع ذلك فإن المؤلفين الذين لم يشتركوا في الأحداث ذاتها ، كتبوا تاريخها بأسلوب أكاديمي ، إلا أنهم جمعوا ما تواتر من أقوال اعتباطية وتعليقات متباينة عن طريق الإشاعات بينما حاول شهود العيان الأول ، بمحض إرادتهم ، أن يتملقوا الرومانيين أو أن يحرّفوا الوقائع بسبب كراهيتهم لليهود . وتحتوى مثل هذه الأعمال على قدح ومدح متبادلين ، دون أثر لأية دقة تاريخية ، مما دفعنى الى أن أقدم لجمهور الإمبراطورية الرومانية ، فى ترجمة إلى اليونانية ، عملاً خاصاً بى ، تم تأليفه أصلاً فى لغتى الوطنية ^(١) ونشر فى الشرق غير الهليني ^(٢) . واسمى « يوسفوس » بن « ما تياس » Mathias . وأنا عبرى بحكم النشأ من أورشليم ، وكاهن بحكم المهنة حاربت ضد الرومانيين فى مستهل الحرب ، واضطرتت إلى أن أشهد مراحلها الأخيرة .

لقد كانت هذه الحرب ، كما أشرت ، انفجاراً على أعظم جانب من الأهمية ، وقع الرومان خلالها فريسة الاضطرابات الداخلية ، فى حين أن العنصر الثورى بين اليهود ، الذى كان فى أوج مجده فى رءوس الأموال والقوات على السواء ، حدد وقت تمرده بحيث يفيد من الاضطرابات المنتشرة . وكانت الهزات المتعاقبة عنيفة لدرجة أن مصير الشرق تعلق فى الميزان بين الطرفين المتحاربين ، وكان لدى كل طرف على حدة أمل وخوف من النتيجة النهائية . فاليهود كانوا يأملون فى أن يضم إليهم فى هبتهم ، مواطنوهم عن بكرة أبيهم فيما وراء نهر الفرات Euphrates ، بينما أفضت مضاجع الرومان هجمات جيرانهم الألمان ^(٣) ، والقتلاقل بين رعاياهم الكلتيين Celtic ، والهزات الشاملة التى أعقبت موت « نيرون » ، إذ نتج عن

(١) اللغة الأرامية Aramic (المحقق) .

(٢) المعنى الحرفى (فيما بين غير الهلنيين فى الداخل) فعلى سبيل المثال ، أن « الداخل » خلف الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، يتحدد من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى أواسط الأراضى المحيطة (المحقق) .

(٣) فى اليونانية جلاتيون Galatian (المحقق) .

الوضع السياسي أن تطلع عدد من المتنافسين إلى العرش والسلطة العسكرية ، وألهبهم الأمل في الثروة والحماس للتغيير السياسي . وأحسست بأنه من المتناقض أن تظل الحقيقة الخاصة بأحداث ذات أهمية كهذه ، غير معترف بها ، وأنه ينبغي أن أحيط «البارثيين» Barthians و«البابليين» Babylonians وسكان الجزيرة العربية الأول Arabia ، ومواطني ماوراء الفرات وسكان (أديابين)^(١) Adiabene علماً ما وبشكل دقيق ، خلال جهودى أساساً ، بتقلبات الحرب ونتيجتها النهائية فيما لم يكن لدى الهاميين وسائر الرومان الذين لم يشتركوا في الحملة ، أفضل من الملقى أو الرويات الكاذبة التي تحجب الحقيقة .

إن في الكتاب الذين أشرت إليهم وقاحة جعلتهم ينتحلون (تواريخ) لأعمال ليست مريفة فحسب ، بل وفي رأيي ، خبيثة المقصد تماماً . كان هدفهم أن يرفعوا من قدر الرومان وألاتفات منهم فرصة لسيحى اليهود وتحقيرهم ، رغم أنني لاأستطيع أن أدرك ، أية عظمة يمكن أن توجد في التغلب على خصم تافه . وأيما كان الأمر ، فإن هؤلاء السادة ، لم ينجلوا سواء من طول أمد الحرب ، أو كثرة ضحايا الرومان أو قدرات قادة الرومان الفائقة — وهم في رأي المتواضع ، قد حرموا مجد الجهود التي بذلوها في حصارهم المشدد على أورشليم بسبب الحط من قدر أعمالهم .

وأيما كان الأمر ، فإننى لا أقصد أبداً ، أن أدخل الحلبة ضد أبطال الرومان وأن أقرع طبول مواطني . وسوف ألزم بالموضوعية الكاملة عند التحدث عن أعمال كلا الفريقين ، رغم أنني قد أجعل من تعليق على الأحداث تعبيراً عن وجهة نظري الذاتية . وقد أسمع لمشاعري الشخصية أن تجد ثغرة للنواح على مصائب بلدى . إن بلادى قد سقطت كما يسقط البيت الذي ينقسم على نفسه ؛ واشتد ساعد الرومان بسبب طغيان قادة اليهود ، واندلعت النيران في المعبد المقدس بسبب أفعالهم . وقد

(١) المصطلحات الجغرافية الحديثة (الإيرانيون والعراقيون والسكان العرب الأول والمستعمرات اليهودية شرق الفرات وسكان وادى الموصل ، على سبيل المثال أهم سكان الشرق الأوسط فيما بين الهند من جانب والإمبراطورية الرومانية من جانب آخر ، وكان الآراميون هم صلة الوصل في التجارة والثقافة كما كان الإغريق في حدود الجانب الرومانى . (المحقق) .

أقر بهذا « تيتس قيصر » Titus Caesar ، الذى قام بأعمال التدمير ، كما أنه تروى فى استخدام سلطة الثوريين إزاء السكان العزل خلال الحصار ، وأجل الهجوم على المدينة مرات كثيرة ، على أمل أن يصل هؤلاء المسئولون إلى حل معقول خلال فترة الحصار الطويلة . إن هجومى الشديد على الطغاة قطاع الطرق ، إنما هو بدافع الألم إزاء المصائب التى أغرقوا فيها بلدى . وإذا ما رغب أى قارىء أن يتخذ من هذا رصيده ضدى ، فبوسعى فقط أن أطالبه بالتخلى عن العرف التاريخى فيعطى فرصة لمشاعرى ، وأن يضع فى ذهنه أن (القدر) قد رفع مدينتنا إلى قمة من الرخاء أعلى من أية مدينة كانت فى حوزة روما ، ثم يلقى بها فى النهاية إلى الحضيض ، إلى أسفل مراتب الكوارث . وإن كافة كوارث الجنس البشرى التى عرفت منذ بداية التاريخ لتتضاءل ، فى رأى ، إذا ما قورنت بالكوارث التى حلت باليهود ، ومسئولية هذه الأكاذيب لا تقع على عاتق أى شخص غريب . وفى مثل هذه الظروف لا بد من جهد بشرى هائل يخمد مشاعرى . ولكن إذا قسا أحد قرأنى فى حكمه دون أن تتسرب إلى قلبه الرحمة ، فإننى أتوسل إليه أن ينظر إلى الكتاب على أساس الرواية التاريخية للأحداث وليحاسبنى أنا شخصياً على النواح .

وينبغى فى الحقيقة أن يلتمس لى العذر لى التهجم على المؤرخين الهلينيين ولوى لهم على سلوكهم . لأنهم يؤثرون ، إزاء أحداث معاصرة بمثل هذه الأهمية ، تتضاءل أمامها الحروب القديمة ، يؤثرون أن يظلوا نقاداً ، ونقاداً متحفزين ، للكتاب الذين يغامرون باقتحام هذه الساحة (رغم أنهم يتضاءلون إلى جانبهم فى المفهوم بالدرجة التى يتفوقون بها عليهم فى العمل الأدبى) . إنهم يرضون لأنفسهم كتابة تاريخ آشور Assyria وميديا Media وكأنهم استطاعوا أن يدخلوا تحسیناً على ما قدمه المؤرخون القدامى ، فى حين أنهم فى الحقيقة أقل من الآخرين فى القدرة الأدبية والذهنية . لقد كرس جميع المؤرخين القدامى أنفسهم لكتابة تاريخ عصورهم حين ساعدتهم مشاركتهم الشخصية فى الأحداث على إيضاح عرضهم التاريخى . وكان من المؤكد أن يكشف الجمهور الذى يعرف هذه الأحداث أى تزييف يقع من

جانهم . إن تسجيل أحداث لم ترو من قبل ، وإمكان وصول الأجيال القادمة إلى التاريخ المعاصر لهو نشاط جدير بأن تقف أمامه وتقدره . ولا يشتمل البحث التاريخي الأصيل على مجرد إعادة ترتيب المادة الخاصة بالآخرين ، وإنما يشتمل على إقامة بناء راسخ من المعرفة التاريخية التي تثبت شكلاً جديداً للحديث . فأننا الرجل الأجنبي ، لم أذكر جهداً أو مالا في سبيل إهداء الهلينيين والرومان مذكرات عن أعمالهم ، بينما يفغر بنو وطني أفواههم ، وتندل ألسنتهم حيث تنفق الأموال ^{www.google.com} في (الخان) ويجدون أنفسهم مكتمى الأفواه ومكتوفى الأيدي حيث يكون هناك حق يجب أن يحفظ ومعلومات تجمع بالبحث المضني في كتابة التاريخ . إنهم يتركون هذه المهمة الأدبية إلى الإخوة الذين لا يملون بأعمال الشخصيات البارزة . إن أقل ما يمكن أن نفعله نحن الشرقيين هو أن نولى الحق التاريخي بعض الأهمية ، الذي لا تضعه هيلاس في حسابها حالياً .

تاريخ اليهود القديم — رد على أبيون^(١) Apion

(مهدي إلى إيبأفروديتوس Epaphroditus)

(نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد السادس تحقيق س. ا. نابر الكتاب

الأول الفصول ١ — ٥٩)

عزري

أدرك أنني قد بينت ، في مؤلفي عن التاريخ القديم ، بشكل كافٍ لأي فرد على درجة متوافرة من حسن النية تؤهله ليصبح من عداد قرأني ، بينت التاريخ الموغل في القدم لجنسنا اليهودي ، ونقاء مجموعته الأصلية والظروف التي استقر فيها في البداية في البلاد التي ما زالت موطناً لنا . وهذه القصة ، التي تمتد إلى فترة

* كان كاتباً قديراً وعالماً يونانياً عرف بعدائه الشديد لليهود ، وهو أحد المدويين اليونانيين الثلاثة الذين قابلوا كابوس بعد فتنة الإسكندرية الشهيرة (المترجم) .

خمسة آلاف عام، أخذتها من كتبنا المقدسة وأعيد كتابتها باللغة اليونانية . في حين أنني ، أجد قسماً لا بأس به من الجمهور يتأثر بشكل كافٍ بالتحريفات المفرضة من جانب أعدائنا الحقيقيين ، وذلك حتى يرتابوا في روايتي عن تاريخنا القديم، ويجدوا دليلهم، على أن جنسنا حديث الأصل، في أن أكثر المؤرخين الهلنيين شهرة قد جهلوا وجوده . وبناء على هذا أحسست بأني ملزم بأن أسهم قليلاً في هذه المجادلة ، كي أفضح القصد الخبيث والإفك المبيت من جانب الذين يفترون علينا، وحتى أصحح جهل محتالينهم، وأنير السبيل أمام سائر الذين يهتمون أصلاً بمعرفة حقيقة أصولنا . وتدعيماً لآرائي ، سوف أسرد دليل الكتاب الذين ينظر الهلينيون إليهم على أنهم أكبر الثقة في مجال التاريخ القديم بأسره ، وذلك حينما أبين كيف أن الكتاب الذين افتروا علينا وحرّفوا أفكارنا ، يمكن إدانتهم من أفواههم . وسوف أحاول شرح الأسباب التي أدت بالهلينيين إلى ذكر عدد قليل نسبياً من جنسنا في مؤلفاتهم التاريخية ، وسوف أبين فيما بعد الحالات التي لم يهمل فيها تاريخنا ، إلى أولئك القراء الذين لا يعرفونها أو هكذا يقولون .

إن الباعث الأول لي هو أن أعبر عن دهشتي إزاء أولئك الذين يعتبرون الهلينيين هم الثقة الوحيدين الذين يمكن تعلم حقيقة التاريخ القديم منهم ، في حين أنهم يعتبروننا والآخرين جميعاً غير جديرين بالتصديق . والأمر كما أراه أنا، هو أن هذا قلب كامل للحقائق ، هذا إذا لم يكن علينا أن نسترد بتأملات فارغة وإنما نترك الحقائق تنطق بنفسها . وفي الحقيقة ، سوف نجد أن الحضارة الهلينية بأسرها حديثة جداً إلى درجة يمكن وصفها بأنها نمت بالأمس أو أول أمس . إنني أشير إلى تأسيس الدول الهلينية ، وإلى ابتكاراتها المادية ، وصياغة مواد قانونها أما آخر نشاط عنوا به في هيلاس فهو كتابة التاريخ . ومن ناحية أخرى ، فإن الهلينيين يسلمون (وهم لا يعارضونني في هذا) بأن مصر، وكلدانيا ، وفينيقيا - ولنبعد اليهودية من القائمة الآن - لديها سجلات تاريخية دائمة وموغلة في القدم . وكافة هذه الأمم تقطن مناطق تحلو بصفة خاصة من التأثيرات الجوية المخربة ، وقد عانت الأمرين حتى لا تترك أحد أعمالها دون تسجيل ، ويحفظونها على الدوام

لدى خبراء في السجلات العمومية. وعلى عكس ذلك ، فإن المنطقة التي تقع فيها هيلاس قد تعرضت لتخريبات طبيعية لا تحصى طمست سجل الماضي ؛ وقد كان سكان هيلاس مضطرين الى أن يبدؤوا حياتهم من جديد على الدوام ، وفي كل ظرف من هذه الظروف اعتبروا فترتهم بداية الأشياء كلها ؛ وقد كان اكتسابهم لفن الكتابة عملية متأخرة ومضنية . وحتى أولئك الذين يزعمون بأنهم كان لديهم منذ البداية أكثر التواريخ قدماً ، فإنهم يتباهون بأنهم اكتسبوها من « الكادموس » Cadmus والفينيقيين . وبذات الوقت ، كان من المستحيل أن توجد وثيقة مكتوبة سواء من الوثائق الكهنوتية أو العامة ، والتي حفظت حتى من تلك الفترة ، تأخذ في اعتبارها مقدار التأملات والمناقشة التي تارت حول ما اذا كان فن الكتابة معروفاً للجيل الذي قام بالحملة على طروادة ، وهي جاذبة ذات التاريخ المتأخر كثيراً . إن الرأي القائل بأن منهاج كتابتنا الراهن لم يكن معروفاً لهم ، هو أكثر الاحتمالات صواباً ، ومن ناؤكد أنه ، لا يوجد في العالم الهليني نموذج للكتابة لا نزاع حوله أكثر قدماً من شعر هومر . ومن الواضح أيضاً ، أن « هومر » متأخر عن الحرب الطروادية ، وقيل أيضاً إنه وإن لم يترك شعراً مكتوباً ، إلا أن الناس تداولوه شفاهة ثم جمع بعد ذلك من أجزاء القصائد المختلفة ، الأمر الذي أدى إلى التناقضات العديدة التي يحتوى عليها شعر هومر . وفيما يتعلق برواد الكتابة الهلينية التاريخية ، وأعنى بهم « كادموس الميليتي » Cadmus of Meletus ، و« أ كوزيلاوس الأرجوسي » Acusilaus of Argos وخلفاء « أ كوزيلاوس » ممن حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، فإنهم كانوا سابقين للغزو الفارسي لهيلاس بفترة وجيزة . وفضلا عن ذلك ، فإن آباء التأمل الهليني في الفناك والدين ، مثل « فيريكودس السيروسي » Pherecydes of Syros و« فيثاغورس » Pythagoras و« طاليس » Thales قد ساءوا جميعاً بأنهم تعلموا على أيدي المصريين والكلدانيين قبل أن يكتبوا مؤلفاتهم المتواضعة . إلا أن الهلينييين الذين يعتبرون هذه المؤلفات من أقدم سائر المؤلفات ، يتشككون في نسبتها إلى مؤلفيها المشهورين .

وعلى ضوء هذا كله ، فمن غير المعقول بكل تأكيد أن يتباهى الهلينيون بأنهم

وحدثهم خبراء التاريخ القديم وبأنهم وحدثهم أصحاب الروايات الصحيحة والدقيقة .
وإذا فحصنا مؤلفاتهم يتضح تماماً أنها لا تقوم على أية معرفة مؤكدة ، وإنما تقوم
على الحدس والتخمين . وعلى أية حال ، فليس لما كتبوه أثر أكثر من كشف
أحدهم للآخر . وهم لا يترددون على الإطلاق في إنشاء القضايا المتناقضة حول نقاط
متنازعة . ويكون تطفلاً من جانبي أن أحيط من هو أكثر منى علماً بالتناقضات
التي نشأت بين « هيلانيكوس » Hellanicus و « أكوزيلاوس » Acusilaus
حول مسائل الأنساب ، وحول تصويبات « هسيود » Hesiod التي قام بها
« أكوزيلاوس » ، أو الطريقة التي يعرض بها « إيفوروس » Ephorus عدم
دقة هيلانيكوس في أغلب المسائل ، وعدم دقة « إيفوروس » التي أظهرها
« تيمايوس » Timaeus ، أو أخطاء « تيمايوس » التي أظهرها خلفاؤه ، وأخطاء
هيرودوت التي أظهرها كل إنسان . فإن « تيمايوس » لم يشعر ، حتى بشأن مسائل
التاريخ الصقلي المحلي ، بأنه مطالب بأن يروي الحكاية بنفسها كما روتها مدرسة
« أنتيوخس » Antiochus و « فيليستوس » Philistus أو « كالياس » Callias .
كذلك الأمر فيما يتعلق بكتاب التاريخ الأثيني الذين لم يترسم واحد منهم خطى
الآخر في مسائل هذا التاريخ ، ولا خطى المؤرخين الأرجيفيين فيما يتعلق بالتاريخ
الأرجيفي . وأيما كان الأمر ، فلسنا في حاجة للحديث عن التاريخ المحلي والخاص
بموضوع محدد ، عندما يختلف أكثر المؤرخين شهرة حول ما يختص بأعمال الحملة
الفارسية حتى ثوكوديديس الذي يعتبر من أكثر مؤرخي عصره دقة ، مهمتهم بعدم
توخى الدقة في مسائل كثيرة من جانب نقاد معينين .

وقد يؤدي البحث إلى كشف عدد من أسباب هذا التناقض البالغ ، إلا أنني
أعزو الأثر الأكبر إلى سببين سوف أشرع في ذكرهما . وسوف أبدأ بالسبب الذي
أعتبره أكثر السببين أهمية . إن حقيقة عدم عناية الهلينييين منذ البداية بالاحتفاظ
بسجلات عمومية للأحداث الجارية ، هي السبب الرئيسي بالتأكيد للخلط الذي
وقع فيه الكتاب الذين حاولوا تباغاً تناول التاريخ القديم . وهو السبب الذي أدى
إلى ارتكاب الأخطاء التي وقعوا فيها . إن تسجيل الأحداث لم يهمل في هيلاس

كأها فحسب ، بل في أثينا أيضاً ، تلك المدينة التي اشتهر أهلها بالثقافة والاحتفاء بها حيث لا نجد أى أثر لهذه الظاهرة . وأكثر السجلات العامة قدماً في أثينا ، يقال إنه التشريع الجنائى ل « دراكون » Dracon ، وهو في تاريخ متقدم قليلاً عن فترة حكم الطاغية « بيزستراتوس » Peisistratus . أما بالنسبة للأركاديين ، فإن زعمهم يقدم تاريخهم تنفيه الحقيقة التي تقضى بأنهم نجحوا بالكاد في السيطرة على زمن الكتابة حتى في تاريخ متأخر عن هذا .

إن عدم وجود أساس معد من قبل خاص بشكل السجلات العمومية ، التي تكون قد أفادت الذين رغبوا في معرفة الحق ، وفقدت عدم الدقة ، يعتبر هو السبب الرئيسى في التناقض بين كتاب التاريخ الهلينيين . والسبب الثانى هو أن الهلينيين الذين تطلعوا للتأليف لم يكن لديهم أى غيره على الحق ، وعلى الرغم من أن الجزم بعكس ذلك كان على شفاههم دائماً ، إلا أنهم كانوا يهتمون بإظهار قدرتهم الأدبية .

وعلى هذا ، واءموا أنفسهم مع أى منهج يقدم لهم صورة تبرز منافسيهم حسناً في هذا الشأن . وقد لجأ بعضهم إلى الرواية ، والبعض إلى تملق الدول والحكام عن قصد . وتخصص آخرون في كيل الاتهامات للأعمال ومن قام بتسجيلها ، على اعتبار أن هذا مجال يمكن أن يلمعوا فيه . وباختصار فإنهم يثابرون على عادة تتنافى تماماً مع الروح التاريخية . إن العلامة المميزة للتاريخ الصحيح هي الاتفاق الإجماعى على مسائل بذاتها من جانب كل من الدارسين والكتاب ، بينما اعتبر المؤرخون أن أفضل وسائل إرساء الدقة السامية ، هي أن يقفوا في وصف الأحداث المتماثلة إلى جانب الأقلية المعارضة . أما فيما يختص بالشكل الأدبى والرونق ، فيجب علينا نحن الشرقيين أن نسلم بانتصار المؤرخين الهلينيين ، ولكن ليس بسبب صحة تناول التاريخ القديم ولا سيما عندما يتعلق الأمر بتاريخنا المحلى .

وفي ذلك الوقت ، كان تسجيل الأحداث في مصر وبابل موكولا إلى مسئولية الإخصائين — وهم الكهنة في مصر والكلدانيون في بابل — وقد أفاد

الفينيقيون ، دون سائر الشرقيين الذين احتكوا بالهليينيين ، أكبر فائدة من فن الكتابة من أجل تدبير شئونهم الخاصة ومن أجل تسجيل الأحداث العامة أيضا . وهذه الحقائق مسلم بها تماماً فلا أرى العودة إليها فيما بعد . وسوف أمضى الآن إلى أسلافنا وسأحاول أن أوضح ، على قدر ما يمكنني من إيجاز ، انهم كانوا متخصصين ، شأنهم شأن جيرانهم (سوف لا أدخل في موضوع ما إذا كانوا حالياً أكثر تخصصاً عما كانوا عليه من ذى قبل) في حفظ السجلات ، حتى إنهم وكلوا هذه المهمة لكبار الكهنة والأنبياء ، وبقيت ممارسة هذه المهمة ، حتى يومنا هذا (ويمكنني القول بأنها سوف تكون كذلك فيما بعد) بالغة الدقة .

وهم لا يضعون هذا القسم تحت إشراف صفوة الرجال الذين يلتزمون بخدمة الله ، من البداية فحسب ، بل إنهم يتخذون الإجراءات لصيانة عنصر الكهنة نقياً غير مختلط . ومن يتطلع إلى الكهانة يجب أن يكون مولوداً من أم يهودية . ولا تدخل الثروة والرتبة ضمن الشروط . وعلى طالب الكهانة أن يثبت نسبه من المحفوظات ويأتى بعدد من الشهود . وهذه الممارسة ليست مقصورة على اليهودية . فحيثما يوجد موطن لأمتنا يكون سجل الزواج الدقيق محفوظاً لدى الكهنة^(١) ، يرسلون صوراً منه إلى أورشليم ، حيث يدون اسم والد الزوجة وأسلافها السابقين ، وكذلك أسماء الشهود . وفي حالة الحرب ، التي تكررت مرات كثيرة قبل الآن^(٢) ؛ فإن أعضاء الكهانة ، الذين ما زالوا أحياء ، يعيدون قيود السجلات القديمة ويفحصون النساء اللاتي ما زلن أحياء . ولا يعاد قيد النساء اللاتي وقعن في السبي (لهذا السبب) ، وذلك للشكوك التي تنشأ من الاختلاط الدائم ، في مثل هذه الظروف بينهن وبين الذكور من غير اليهود . إن أبرز الدلائل على دقتناهي أن الكهنة

(١) إنني أشير إلى الكهنة اليهود في مصر وبابل وأى قسم آخر من العالم ينتشر فيه كهنة أمتنا (المؤلف) .

(٢) على سبيل المثال غزوات البلاد على أيدي أتتيوخس ابيفانيس ، وبومبيوس ماجنوس وكوينتيوس فاروس ، وعلى الأخص أحداث زماننا (المؤلف) .

في مجتمعنا يمكن أن يبينوا تسلسلاً غير متقطع ، لألفين من السنين ، من الأب إلى الابن كادونت بالاسم في السجلات ، بينما أى فرد لا يتوافر فيه أى شرط من الشروط السابق ذكرها يستبعد من الخدمة في المذبح ولا يقوم بأى دور في العبادة . وليس هذا الأمر طبيعياً فحسب بل لا مناص منه أيضاً ، إذا ما تذكرنا مرة أخرى أن حق القيد في السجلات غير متروك لحرية تصرف أفراد مخصوصين وأنه ليس هناك تناقض بين القيودات ، فإن الامتيازات مقصورة على الأنبياء ، الذين يأمون بمعظم الماضى البعيد بوحي من الله ، والذين يسجلون الأحداث المعاصرة لهم بإحكام .

وليس في أدبنا أسفار كثيرة تختلف مع بعضها وتتناقض إلى ما لا نهاية . بل لدينا فقط اثنان وعشرون سفرًا تتضمن سجلاً لكل العصور والتي نشق فيها بحق واطمئنان . وخمسة منها هي أعمال موسى ، تحتوي على النواميس وروايات خلق الإنسان حتى وفاة موسى . ومن وفاة موسى حتى حكم « أرتا كسر كسيس » Artaxerxes ، خليفة « كسر كسيس » على عرش فارس ، وهي سجل الأنبياء الذين خلفوا موسى وأحداث أزمته في ثلاثة عشر سفرًا . وتحتوي الأسفار الأربعة الباقية على تسابيح الرب . والإرشادات المتعلقة بسلوك الحياة الإنسانية . ومن « أرتا كسر كسيس » حتى أزمتهنا يوجد سجل متصل ، إلا أنه لا ينظر إليه بمثل الاتكال الوطيد على الوثائق الأولى ، لأن توالى الأنبياء لم يحفظ بشكل دقيق . وتشرح الوقائع ذاتها بشكل واضح موقفنا تجاه سجلاتنا المحلية . فخلال الفترة الكبيرة التي انقضت منذ تأليفها ، لم يجازف أحد بأن يضيف إليها أو يحذف منها أو يغير ترتيبها . وينظر إليها كل يهودى منذ مولده بشكل غريزي على أنها ناموس الله ، التي يراها بإخلاص ويلاقى الموت في سبيلها عن طيب خاطر ، إذا ما تطلب الأمر ذلك . واشتهر أسرى يهود كثيرون قبل الآن ، في مناسبات عديدة ، بأنهم تحملوا التعذيب وصنوف الموت المرعبة في المسارخ العامة ولم ينبسوا بكلمة واحدة ضد

الناموس أو الوصايا التي تتصل به . فهل يتحمل أى هلميني مثل هذا في شخصه ؟
إنه لا يعانى أى متاعب في سبيل الحفاظ على أعمال الأدب الهلميني . وينظر الهلمينيون
إلى مثل هذه الأعمال على أنها عبارات مرتجلة حسب أهواء الكتاب ؛ وهم معذرون
بكل تأكيد في اتخاذ هذا الموقف من أدبهم القديم لأنهم يرون بعض الكتاب
الهلمينيين المعاصرين يجازفون برواية تاريخ الأحداث التي لم يشاركوها فيها بأنفسهم .
ونظراً إلى أنهم لم يبذلوا أى جهد ليتعلموا الحقيقة من أولئك الذين لديهم الوقائع .
وفيما يتعلق بمرحلتنا الحديثة ، فإن الكتب التي تندرج تحت قائمة (التواريخ) قد
نشرها المؤلفون الذين لم يزوروا مسرح الأحداث ، أو لم يقربوه حينها وقعت هذه
الأحداث ، ولكنهم جمعوا بعضاً من الروايات المتناقلة كعذر لهذا الدنس الثمل
الذي شتت اسم التاريخ .

إن سجلي الخاص بالحرب في مجموعها صحيح ، والتفاصيل الصغيرة كذلك
صحيحة ، لأنني شهدت ، أولاً بأول ، كافة الأحداث . لقد كنت في قيادة قواتنا
من سكان الجليل بقدر ما طال أمد المقاومة ، بينما كنت بعد وقوعى في الأسر سجين
الرومان ، واضطرتني « فاسبسيان »^(١) و « تيتس » لأن أظل تحت
المراقبة ، وكنت في بداية الأمر في القيود ، ثم أطلق سراحى بعد ذلك ، وأرسلت
من الإسكندرية ، في خدمة تيتس ، أثناء حصاره أورشليم . ولم يحدث شيء خلال
تلك الفترة إلا وكان تحت بصري . وثابت على تسجيل الأحداث في المعسكر
الرومانى أولاً بأول ، بينما كنت الشخص الوحيد الذى استطاع أن يفهم تقارير
الفارين من الجانب اليهودى . وعندما كانت كافة مواردى في حالة إعداد سليمة ،
أفدت من فرصة فراغى في روما وأفدت من المساعدين لى باللغة اليونانية ،
وهكذا أكتب روايتى . إن ايمانى بصواب ما أعرضه كان شديداً حتى إننى سجلت
ما قام به « فاسبسيان » و « تيتس » اللذان كانا قادة الحرب ، كما شهدت في
بادى الأمر . وبعبارة أخرى ، كانا أول شخصين عرضت عليهما أعمالى ، وبعدئذ

(١) فاسبسيان ، نودى به إمبراطوراً حينما كان يقوم بقمع العصاة اليهود وبعد أن قصد
الى روما وكل الى ابنه تيتس أصغر الحرب ضد اليهود (المترجم العربى)

بعثت منها نسخاً إلى الرومان الذين اشتركوا في الحملة وإلى كثير من مواطني ، ومن بين هؤلاء من نال قسطاً من التعليم الهليني ، بما فيهم « يوليوس أرخيلوس » Julius Archelaus وصاحب الفخامة «هيرودس» Herodes وصاحب الجلالة المعظم الملك «أغريباس»^(١) Agrippa نفسه . وشهد هؤلاء الأشخاص المرموقون بأنني كنت بطلاً مولياً جانب الحق ، ولم يترددوا بالتأكد في أن يقفوا عند نقطة ما إذا كان الجهل أو الملق قد أوقماني في بلبلة أو إغفال واقعة من الوقائع . وأيما كان الأمر ، فهناك أشخاص بعينهم غير جديرين بالاهتمام حاولوا أن يشككوا في تاريخي وسلوكوا مسلك التلاسيد حينما يعرض عليهم في حلقة الدرس اتهام مشين ومتناقض . والحق أنه لا يجوز لأحد أن يسجل حقيقة لصالح آخرين دون أن يكون قد وقف بنفسه أولاً بدقة على الوقائع ، سواء بتتبع الأحداث أو بالتأكد منها عن طريق الذين يعرفونها . وأيما كان الأمر ، فإنني أعبط نفسي لأنني قد وفيت شخصياً هذه المطالب في كل من مؤاناتي . فإن تاريخي القديم ، الذي كان كما ذكرت ترجمة من الأسفار المقدسة ، هو عمل كلهن بطبيعته تربي على فلسفة الكتاب المقدس . إن تاريخي عن الحرب هو تاريخ من أسهم في كثير من الأحداث وشاهدها كلها تقريباً ، ويستطيع أن يقول إنه ما من شيء قيل أو وقع إلا وقد لاحظته . وإنني لا أستطيع القول كيف يمكن لهؤلاء الأشخاص الذين حاولوا أن يجادلوا في صياغتي للأحداث ، أن يكونوا بريئين من الوقاحة . فقد يعترفون بأنه كان لديهم صلة بذكرات القادة ، إلا أنهم لم يكونوا بالطبع على صلة كذلك بأحداثنا التي كانت في الجانب المعادي لهم .

وقد بدالي أن الانحراف السابق لا يمكن تجنبه إذا ما قدر لي أن أدمغ

(١) كان هيرودس الكبير والياً على اليهودية من قبل قيصر عام ٤٧ ق.م وفي عام ٤٠ ق.م عينه مجلس الشيوخ حاكماً على الجليل وملكاً على اليهودية . وأرخيلوس هو ابنه من امرأة سامرية ، وعند موت أبيه عام ٤ ق.م ولي حكم أدومية والسامرة واليهودية وبعد وفاته سنة ٧ م أصبحت اليهودية يحكمها حاكم فرعي حتى جاء هيرودس أغريباس الأول سنة ٣٧ م وفي عام ٣٩ م أعطاه جايوس ولاية الجليل وبعد موت جايوس عينه كلوديوس ملكاً على فلسطين .
(المترجم العربي)

تساهل كتاب التاريخ المعترف بهم ؛ وفي تصوري أننى قد أوضحت الآن بما فيه الكفاية أن ممارسة تسجيل أحداث الماضى بملاحظات أولية قليلة موجهة ضد النقاد الذين يحاولون أن يثبتوا حداثة وجودنا جميعاً على أساس أنه ليس هناك أى ذكر لنا (حسب وجهة نظرهم) عند المؤرخين الهلنبيين . وسأسرد الآن الدليل على قدمنا فى آداب الشعوب الأخرى ، وسوف أبين أن الافتراءات التى نشرت ضد جنسنا لا أساس لها .

آريان النيقوميدي

Arrian of Nicomedia

(٩٠ — ١٧٠ م)

غزو الإسكندر لآسيا

(نص توينر تحقيق ا . ج . روس . A. G. ROSS : الكتاب الأول
الفصول ١ — ٣) .

أينما يقدم « بطليموس بن لاجوس » (Ptolemy of Lagos) و « أسطوبولوس بن أرسطوبولوس » رواية متماثلة فى مؤلفاتهما عن الإسكندر بن فليب ، فإننى أترسم خطأها بثقة مطلقة فى دقتها . وحينما يختلفان فإننى أرجح الرواية التى تبدو لى أكثر ثقة ، وأكثر أهمية فى الوقت نفسه . ! إن لى كل من مؤرخى الإسكندر روايته التى يسوقها ، وليست هناك شخصية تاريخية تعرض لها عدد كبير من المؤرخين أو اختلفوا حولها أكثر من هذه الشخصية . وأنا شخصياً أعتبر بطليموس وأرسطوبولوس جديرين بالثقة أكثر من غيرهما — لأن أرسطوبولوس كان مصاحباً للملك الإسكندر فى الجيش ، و بطليموس نفسه فضلاً عن أنه كان ملكاً فهو يحس بالخزى أكثر من الأناص العاديين إذا ما فشل فى ذكر الحقيقة ، وكان الإثنان بالمثل بعيدين عن الحاجة إلى تحريف الوقائع أو الباعث على تحريفها ، لأنها كتباً مؤلفاتها بعد وفاة الإسكندر . ولقد ضمنت عملى أيضاً معلومات مستمدة من

مؤلفات أخرى ، عندما بدت لي أنها هامة في حد ذاتها وجديرة بالاهتمام ، وذلك تحت عنوان حكايات غير مؤكدة . فإذا ما مال أي قارئ إلى الدهشة فيما رغبتني في الشروع في هذا العمل في أثر حشد مؤلفين هكذا ، فإنني أتوسل إليه أن يؤجل الحكم حتى يفحص سائر أعمالهم ويلم بنفسه بمؤلفي .

آبيان السكندري

Appian of Alexandria

(٩٠ — ١٦٠ م)

دراسات في التاريخ الروماني

(نص توينر تحقيق ل . مندلسهون L. Mandelssohon : المجلد الأول المقدمة)
حينما شرعت في كتابة تاريخ روما ، شعرت أنه من الضروري أن أقدم عرضاً لسائر الأمم تحت الحكم الروماني .

[ويأتي العرض بعد ذلك]

وبرغم أن الرومان يحكمون الآن كل هذه الأمم القوية ، فقد ظلوا خمسمائة عام كاملة في نضال شاق حتى يتموا إخضاع إيطاليا وجزءها إخضاعاً تاماً . وعاشوا خلال النصف الأول من هذه الفترة في ظل الملكية ، بينما ظلوا الفترة الباقية — بعد أن طردوا الملوك وأقسموا جادين ألا يدعوا الحكومات الملكية مرة ثانية في نظام أرستوقراطي تحت رئاسة ضباط ينتخبون سنوياً . وقد شهد القرنان اللذان أعقبا الخمسة قرون الأولى عظمة إمبراطوريتهم . وتقع في هذه الفترة السلطة التي اكتسبها والتي لا حدود لها في الخارج وكذلك هزيمة أغلبية القوميات التي تدخل ضمن رعاياهم . وبعدئذ فرض « جايوس قيصر » Gaius Caesar (الذي كان قد غطى على أكثر معاصريه سطوة ، وعزز سطوته وأقام ترتيبات فعالة للحفاظ عليها) أقام نفسه كملك أعظم ، بينما أبقى على الأشكال الدستورية

القائمة . ومنذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ، استمرت الإمبراطورية الرومانية تحت ظل حكم الأفراد ، الذين لم يتخذوا ألقاب الملوك^(١) وإنما اتخذوا ألقاب الأباطرة^(٢) ، وهو لقب كان يرتبط في الأصل بقادتهم العسكريين المؤقتين . وأيماً كان الأمر ، فإنهم في الحقيقة يتحلون بكافة سجايا الملكية . وقد تقلد هؤلاء الأباطرة السلطة لما يقرب من قرنين إضافيين حتى الوقت الراهن — وهي قرون وصلت فيها الدولة إلى قمة تنظيمها ، ووصل الدخل العام أعلى رقم له ، وقد كان من شأن فترة السلم الطويلة الدائمة أن رفعت العالم إلى مستوى مضمون من الرخاء . وقد أضيف عدد قليل من الأمم التابعة على أبدى الأباطرة إلى تلك الأمم التي كانت في زمام الرومان بالفعل . وقد أخضعت الأمم الأخرى التي شقت عصا الطاعة ، ولكن مادام الرومان كانوا يستحوذون بالفعل على أحسن أجزاء الكرة الأرضية من يابس وماء ، فقد كانوا حكاماً بدرجة تكفل لهم أن يهدفوا إلى الإبقاء على ما في أيديهم دون التوسع في إمبراطوريتهم إلى ما لا نهاية له على الأقاليم المدفوعة في الفقر وعدد من الأمم غير المتحضرة عديمة الفائدة . ولقد شهدت أنا بنفسى ممثلين لهذه الأمم ينتظرون في روما في بعثات دبلوماسية ويطلبون أن يكونوا من رعاياها ، والإمبراطور يرفض قبول تبعية شعوب ليست بذات قيمة لحكومته . وهناك عديد من الأمم التي يمد سلوكها الرومان أنفسهم ، ماداموا لا يشعرون بفائدة من ضمها إلى إمبراطوريتهم . وهناك بعض من الأمم التابعة قدمت لروما هبات من خزائنها ، وهي فخورة بالألّا ترفض روما هذه الهبات رغم أنها عبء مالى ثقيل . لقد حصنوا حدود إمبراطوريتهم بحلقة من الجيوش القوية وقاموا بحراسة هذه المساحة الواسعة من الأرض والبحر بسهولة كما لو كانت مزرعة متواضعة .

(١) لاني أتصور أن هذا إكرام لقسمهم اصيل (المؤلف) :

(٢) « الأوتوقراطيون » في اليونانية ترادف رسمياً (الأباطرة) في اللاتينية

(المحقق) .

(م ٦ — الإغريق)

ولم تقم حتى الآن إمبراطورية بمثل هذه العظمة ، دام بقاؤها لمثل هذه الفترة فبقاء الإمبراطوريات الهلينية لم يمتد إلى أى عدد كبير من السنين ، حتى لو جمعت أرقام فترات السطوة المتعاقبة لأثينا وإسبرطة وطيبة ، فيما بين حملة « دارا » Darius ، وهى مناسبة يحق لهم فيها جداً أن يباهوا بأنفسهم ، وإقامة سيادة فيليب بن « أمينتاس » Amyntas على هيلاس . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن نضالهم لم يكن شاقاً لتكوين الإمبراطورية بمطاردة المتنافسين المتبادلين ، بينما حدثت أكثر أمجادهم فى الدفاع عن حريتهم ضد عدوان الدول الأجنبية ، وقد واجهت الكوارث من أبحر منهم إلى صقلية أملا فى السيطرة الخارجية ، وتراجع كل من عبر منهم إلى آسيا على الفور ، بعد أن أحرز قليلا فى هذا الجانب كما هو الحال فى الجانب الآخر . وعلى العموم ، فإن إمبرالية الهلنيين ، على الرغم من أنهم ناضلوا دون هوادة من أجل سيادتهم ، فإنها لم تجد أبداً موطئ قدم ثابتاً فيما وراء حدود هيلاس ذاتها . لقد كانوا ناجحين بدرجة مدهشة فى تأجيل يوم الهزيمة الأغر ويوم الوقوع فى الأسر ، ولكن يبدو لى أنهم منذ زمن فيليب بن أمينتاس وزمن الإسكندر بن فيليب ، كان لهم تاريخ من الفشل لا يتفق وماضيهم .

أما بالنسبة للإمبرالية الآسيوية ، فإن الأعمال والصفات التى ترتبط بها لا تقوى على المقارنة مع أقل الأعمال شهرة فى أوروبا ، وهذا بالنسبة لضعف الأمم الآسيوية وخشيتها . وسوف يتضح هذا كلما عرضت تاريخى ، لأنه لم يكاف الرومان إلا معارك قليلة لهزيمة سائر دول آسيا التى ستظل تحت حكمهم ، هذا على الرغم من أن المقدونيين كانوا يظهرون أسبابهم بمظهر البطولة . إنها حروبهم فى أفريقيا وأوروبا التى أودت بالرومان . والحال كذلك بالنسبة للأشوريين والميديين والفرس ، أعظم إمبراطوريات ثلاث قبل الإسكندر بن فيليب ، فإن مدة استمرارها فى مجموعها لا تصل إلى فترة القرون التسعة التى تتمتع بها روما حتى الآن ، بينما لا يمتد اتساع رقعتهم ، فى تصورى ، إلى نصف رقعة الإمبراطورية الرومانية . وأنا أقيم هذا الافتراض على حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية تمتد من غروب الشمس والمحيط الغربى حتى منطقة القوقاز ، ومن نهر الفرات وقلب أثيوبيا ، التى تمتد فى المنطقة

عبر مصر والجزيرة العربية إلى محيط الشرق . إن الحدود الرومانية هي المحيط الذي يشرق فيه الكوكب المقدس ويغرب ، والرومان هم أسياد البحر الأبيض المتوسط وسائر الجزر الأوقيانوسية في بريطانيا . ولم يسيطر « الميديون » و « الفرس » سلطانهم البحري إلى ما وراء الخليج البامفيلي أو إلى جيزر أبعد من قبرص Cyprus وجزيرة أو جزيرتين صغيرتين من أيونيا . أما بالنسبة للخليج الفارسي (الذي سيطروا عليه أيضاً) ، فما هو الامتداد الفعلي لمسطح مائه ؟

وإذا ما عدنا إلى دولة المقدونيين - في فترة ما قبل « فيليب » بن « أمينتاس » ألفيناها ضئيلة تماماً وتحت سيطرة أجنبية بين الحين والحين ، بينما كان عمل فيليب على الرغم من أنه كان يدعو للإعجاب باعتباره مثالا للجهد الشاق ، كان محصوراً في هيلاس والمناطق المتاخمة . وفي زمن الإسكندر ، أذهلت الإمبراطورية المقدونية العالم باتساع رقعتها ، وسرعة عملياتها ونجاح تدايرها ، إلا أنها لم تدم أكثر من ومضة الضوء ، هذا ، على الرغم من أن المجد قد عم الأجزاء طويلاً ، حتى بعد أن تحملت إلى عدد من الولايات ^(١) المنفصلة . وقد احتفظ سلاطيننا ^(٢) وخدمهم بجيش يتكون من ٢٠٠.٠٠٠ من المشاة و ٤٠.٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ فيل قتال و ٢٠٠٠٠٠٠ عربية مسلحة و ٣٠٠.٠٠٠ من العتاد الاحتياطي . وكانت هذه هي قواتهم البرية ، بينما كانت قواتهم البحرية تتكون من ٢٠٠ زورق و ١٥٠٠ مقاتل (مرتبين من درجة ونصف إلى خمس رتب) ، مع ضعف هذا الرقم من المعدات اللازمة ، و ٨٠٠ من القوارب الصغيرة التي طابت مقدماتها ومؤخراتها بماء الذهب ، وكان الملوك يتفقون بأنفسهم الأسطول على هذه القوارب . وكان لديهم أخيراً رأس مال يقدر بـ ٧٤٠.٠٠٠ وزنة مصرية في خزائهم . وهذه الأرقام هي التي أظهرتها السجلات الملكية

(١) (المحافظ) Satrap في اليونانية هي المقابل الفارسي القديم لكلمة (باشا) العثمانية الحديثة (المحقق) .

(٢) مثلاً . . . أسرة البطالسة المقدونية التي حكمت مصر وسواحل وجزراً كثيرة والبلدان الشرقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط فيما بين وفاة الإسكندر وغزو مصر على يد أغسطس (المحقق) .

ملك مصر الثانى بعد الإسكندر لما وصلت إليه أسلحته وقواته ، والتي تركها على هذا الأساس الثابت . ولم يزه أى ملك سواء فى المقدره المالىة ، أو فى البذل عن سعة أو فى نطاق أعماله العامة ، إلا أن كثيراً من الولايات الأخرى قد تهاوت بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة . وأيما كان الأمر ، فإنها قد تمزقت فى الجيل الثانى ، بفعل الإبادة المتبادلة — وقد أصبح الاضطراب الداخلى هو المرض الوحيد القتال للإمبراطوريات العظيمة .

وقد ساعد الزمن والحكمة الرومان على أن يبرعوا فى بسط إمبراطوريتهم وإنجاحها . لقد بزوا سائر الأمم الأخرى فى الشجاعة والاحتمال والمثابرة التى وفروها لتأسيس سيطرتهم . ولم يدعوا أنفسهم يفترون بالنجاح فأقاموا سيادتهم بشكل كامل ، ولم يتطرق اليأس إلى نفوسهم بفعل الكوارث ، على الرغم من أنه وقعت فى بعض الأحيان أحداث أهلكت فى يوم واحد ٢٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ بالفعل من رجالهم المقاتلين . ولقد تعرضت العاصمة ذاتها للخطر ، وعانوا هجمات مستمرة من الطاعون ، والاضطرابات الداخلية فى وقت واحد دون أن يحيدوا عن طموحهم ، فشيّدوا إمبراطوريتهم بوضعها الراهن خلال سبعة قرون من المتاعب والأخطار المضيئة ، وجنوا فى النهاية هذا الرخاء وهو جزاء أرباب السياسة .

إن هذه القصة ، التى تملأ رقعة أوسع من تاريخ الإمبراطورية المقدونية (أعظم الإمبراطوريات قبل روما) كتبها بالفعل مؤرخون هيلينيون ورومان كثيرون . وعلى أية حال ، فعندما بدأت دراستها كى أحصل على صورة كاملة لأعمال روما فى حالة كل أمة من الأمم التى اشتملت عليها ، وجدت نفسى دائماً أنتقل بمسئولياتى من قرطاجنة إلى أسبانيا ، ومن أسبانيا إلى صقلية أو مقدونيا ، أو إلى البعثات الدبلوماسية أو المحالفات التى اشتملت على الأمم الأخرى ، ومرة أخرى ، أعود إلى حلقة مفرغة ، إلى قرطاجنة أو صقلية ، وذلك حتى نزول مرة واحدة فقط من على هذه المسارح قبل أن يسدل الستار . وأخيراً ،

فقد جمعت لمنفعتي الخاصة ، الأجزاء المنفرقة — على سبيل المثال ، جميع الحملات ، والبعثات الدبلوماسية والإجراءات الأخرى من جانب الرومان في صقلية حتى التاريخ الذي أقاموا فيه النظام الراهن في الجزيرة ، وكذلك ، سائر حروبهم ومعاهداتهم مع قرطاجنة ، وكافة البعثات الدبلوماسية المتبادلة بين الدولتين ، وكافة الضربات المتبادلة التي وجهوها أو تلقوها ، حتى التاريخ الذي صرع فيه الرومان قرطاجنة ، وضموها أمة البربر ، واستعمروا بالتالي القرطاجنيين أنفسهم وأسسوا النظام القائم في شمالي غرب أفريقيا . [واتبعت الإجراءات ذاته في حالة كل أمة ، بقصد إثبات أن أعمال الرومان المعينة في هذه الناحية — هي تحمل المغلوب أضعفه ، وشجاعة الغالبين وحسن طالعهم ، وكافة الأزمات والأحداث الطارئة] . اعتقاداً بأن الآخرين قد يفضلون مثلي أن يدرسوا تاريخ روما على هذه الصورة ، وأنا أكتبه الآن أمة أمة ، مفضلاً حذف كافة أعمال أية أمة أخرى تشوش الرواية ونقلها إلى قسم خاص بتلك الأمة . ورأيت ألا ضرورة لتاريخ كل حادثة ، إلا أنني سوف أشير إلى تاريخ الأحداث البارزة في جمل اعتراضية . وفيما يختص بوضع الأسماء ، فإن الرومان يتسمون في الأصل باسم منفرد لكل فرد ، شأنهم شأن سائر الأمم . ثم زاد عدد الأسماء بعد ذلك إلى اثنين ، ولم يمض وقت طويل حتى كان لهم اسم ثالث ، مشتق من العيب أو الكفاية الشخصية ، بدأ يضاف كعلامة مميزة في حالات معينة ، تماماً مثلما اعتاد بعض الهلنيين أن يحملوا ألقاباً بالإضافة إلى أسمائهم . وغالباً ما سأورد الاسم كاملاً ، خاصة في حالة مشاهير الرجال ، حتى أحدد شخصيتهم ، إلا أنه في الحالات العادية سوف أشير إلى شخصياتي بالأسماء التي إعتاد الرومان أن يعتبروها أكثر تميزاً ، سواء كانت تلك الشخصيات شهيرة أو غير شهيرة .

وسوف نجد في المجلدات الثلاثة الأولى حكاية الرومان بأسرها في إيطاليا ، ويمكن اعتبار هذه المجلدات الثلاثة كلها خاصة بإيطاليا ، على الرغم من أن ضخامة مادة الموضوع قد اضطررتني إلى أن أضع تقسيماً فيما بينها . فيصف المجلد الأول أعمال الملوك السبعة في ترتيب زمني ، وأعطيت له عنوان [دراسات رومانية — كتاب

المؤك [ويتناول المجلد التالي ، بقية إيطاليا فيما عدا القسم الساحلى للخليج الأيونى (١) وهو يسمى [دراسات رومانية — كتاب إيطاليا] وذلك حتى أميزه عن المجلد الأول . وكانت الأمة الإيطالية آخر ما كان على الرومان أن يتعاملوا معها ، كانت أعظم وأفظع اتحاد للسامنيت Samnites فى الجزء الساحلى للخليج الأيونى ودام الصراع ثمانين عاماً ، حتى نجح الرومان فى إخضاع السامنيين أيضاً ، وكذلك الأمم المجاورة التى كانت متحالفة معهم والمستعمرات الهلينية على طول سواحل إيطاليا الجنوبية . ويتميز هذا المجلد بعنوان [دراسات رومانية — كتاب السكلت وصقلية وأسبانيا وهانيبال وقرطاجنة ومقدونيا] ... وهكذا ... فإن ترتيبها ترتيباً تاريخياً يتعلق ببداية كل حرب ، حتى على الرغم من أن النهاية الخاصة لتلك الأمة قد تقع فى تاريخ متأخر عن أهم كثيرة أخرى بدأت قصتها بعدها . إن الاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية فى روما نفسها ، والتى عانت منها بفضاعة أكثر من أى مضاعفات خارجية ، تقسم إلى مجلدات حسب قادة كل مرحلة — «ماريوس» Marius و «سوللا» Sulla و «بومبي» Pompeius و «قيصر» Caesar و «أنطونيوس» Antonius والقيصر الآخر الملقب «أغسطس» Augustus ، ومن بين هؤلاء اشترك الاثنان الأخيران فى حرب أهلية ضد قتلة قيصر الأول وبمدئد حارب الواحد منها ضد الآخر . وفى هذه الحرب الأخيره من سلسلة الحروب ، خضعت مصر تحت سيادة روما وأصبحت روما نفسها ملكية .

هذه هى المجلدات التى قسمتها على أساس الأمم المختلفة ، والقادة الذين جمعت تحت أسمائهم الحرب الأهلية . وسوف يتعرض المجلد الأخير لكل القوى العسكرية التى يحتفظ بها الرومان ، وسائر الدخل الذى يستخرجونه من كل أمة ، أو زيادة المصروفات الداخلية على التحصينات والمحطات البحرية وإصلاحات أخرى من هذا القبيل . إن المؤلف الذى يتطلع إلى أن يصف عظمة روما عليه أن يبدأ

(١) هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط الذى يحوطه خليج الأدرياتيك فى الشمال وشریط ضيق يلاصق الحدود الصقلية فى أقصى الجنوب وبلوبونيزيا فى الجنوب (المحقق) .

بوصف أصله هو . إن شخصية كاتب هذه السطور معروفة لقراء كثيرين وقد أوضحها هو بنفسه ، ولكن من أجل التحديد ، عليه أن يذكر أنه « آبيان » من الإسكندرية وقد تولى منصباً قيادياً في بلده ، وترافع في محكمة الاستئناف في روما ، وكان يحوز شرف منصب في الخدمة الإمبراطورية . إن أى قارىء يتوق إلى أن يعلم تفاصيل أكثر سوف يجدها في تاريخ حياة المؤلف لنفسه .

ديو كاسيوس كوكيانوس النقاوى

Dio Cassius Cocceianus of Nicaea

(١٥٥ — ٢٣٥ م)

تاريخ روما

(نص تاوخنز Tauchnitz ، نسخة طبق الأصل ، المجلد الخامس ، الكتاب الثانى والسبعون . الفصل ٢٣) .

إن السبب الذى دفعنى إلى كتابة تاريخ الحروب العنيفة والاضطرابات الأهلية التى أعقبت وفاة « كومودوس » Commodus كان كما يلى : كنت قد كتبت من قبل ونشرت كتاباً عن الأحلام والتفائل التى ألهمت « سيفروس » Severus أمل الوصول إلى كرسى الحكم . وقد قرأ هذا الكتاب الإمبراطور بنفسه فى نسخة أهديتها إليه ، وقد كان عطوفاً بما فيه الكفاية فكافأنى بخطاب رقيق طويل . وقد وصلنى هذا الخطاب متأخراً فى المساء قبل أن أذهب إلى النوم مباشرة ، وقد كان موضوع تأليف عمل تاريخى يلحّ علىّ فى نومي بقوة خارقة للطبيعة . وهكذا أخذت فى كتابة تاريخ الفترة التى وصلت إليها الآن . ولما كان هذا المقال قد قوبل بشكل مرض للغاية من جانب « سيفيروس » نفسه كما حدث من جانب الجمهور ، عند هذا دفعتنى رغبتى إلى كتابة تاريخ كامل لروما . وعليه قررت ألا أترك المقال الأول لجزء منفصل ، بل أضمنه فى هذا الكتاب الأوسع ، كي أتمكن من كتابة القصة كلها من البداية حتى النقطة التى يسمح بها (الحظ) ، وهى بمثابة

وضيعة للخائف . ولقد آزرني (سيدنا الحظ) في عملي ، مكافأة على الروح الوقورة الحبيبة التي تناولت بها العمل . ففي تعبي وكدي كان الحظ يواسيني بأحلامه . لقد قدم لي آمالاً مشرقة للمستقبل وأكد لي أنني سوف أعيش حتى أتم عملي وأنه سوف لا يلوثنى بمار . لقد خصص لي ، كما بدا لي ، الملاك الحارس في هذه الحياة ، وأنا بالمثل عايد له . إن مجموعة مواد عملي التي تشمل تاريخ روما بأسره من البداية حتى زوال « سيفيروس » استغرقت مني عشرة أعوام ، واستغرقت كتابة روايتي اثني عشر عاماً زيادة على ذلك . وسوف أكتب ما يجد بالسرعة التي تتطلبها الأحداث .

هيروديان السوري

Herodian The Syrian

(عرف في النصف الأول من القرن الثالث بعد المسيح)

تاريخ الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة ماركوس أوريليوس (*)

. Marcus Aurelius

(نص توينبر ا . بيكر J.I Bekker . الكتاب الأول . الفصل الأول) .

إن معظم الكتاب الذين شغلوا أنفسهم بالكتابة التاريخية وعنوا بإحياء ذكرى الأحداث القديمة ، التمسوا شهرة ثقافية خالدة . وخشوا إذا ما فشلوا في أن يعبروا عن أنفسهم ، أن يطويهم الغموض الكبير المتضاعف ، إلا أنهم في رواياتهم التاريخية انتبهوا قليلاً إلى الحقيقة وكرسوا انتباههم الرئيسي للمحسنات البديعية ، متأكدين تماماً ، أنهم إذا أخطأوا في مجال الأسطورة ، فسوف يكافأون على سحر أساليبهم ، وأن صياغتهم للحقيقة سوف لا تخضع لتحخيص دقيق . وقد اندفع البعض فأسبغ على الأحداث الطفيفة أو التافهة خطورة مبالغاً فيها بفضل تألق فنهم الأدبي وذلك بسبب عدائهم أو كراهيتهم للحكام المستبدين ، أو بسبب نظرهم ،

سواء كانوا بدافع الاهتمام أو الأصالة ، إلى الملوك والبلدان أو الأفراد . أما بالنسبة لدورى فإننى لم أكن مقتنعاً بأن أتناول بعد الآخرين موضوعاً تاريخياً غامضاً لا يمكن أن يتحكم فيه ، إلا أننى جمعت مواد عملى بدقة متناهية فى وقت كانت فيه ذكرى الأحداث التى تسجلها ما تزال حديثة فى عقول أولئك الذين ينبغى عليهم أن يعمروا فيها النظر . وإننى أأمل أيضاً أن أدرس الأحداث الكبيرة التى تجمعت فى فترة لا طرفة فيها لأجيال المستقبل . إن مقارنة هذه الفترة بكل الزمن الذى انقضى منذ أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية ملكية فى عصر «أغسطس» سوف تكشف عن أنه تقريباً خلال القرنين اللذين يفصلان تلك الحقبة عن عصر ماركوس أوريليوس ، لم تكن هناك سلسلة سريعة من التغيرات على العرش مثل هذه السلسلة . كما أنه لم توجد تقلبات عنيفة فى الحرب الخارجية والأهلية ، أو انفجارات فى الأمم أو نهب المدن سواء فى علمنا أو فى بلدان كثيرة غير متحضرة ، وكذلك لم تشهد مثل هذه الهزات الأرضية أو حالات الجو البائية ولا مثل هذا السلوك الشاذ للطفاة والأباطرة (وهو سلوك لا نجد مثيلاً له إلا قليلاً فى سجلات الماضى) وقد أبقى بعض هؤلاء الحكام على سلطانهم لمدة طويلة من الزمن ، وبعضهم إلى مدة أقل ، بينما لا يكاد الآخرون يتمتعون باللقب وشرف البقاء بعض يوم قبل أن يهلكوا . لأن الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت خلال الستين عاماً إلى عدد أعظم من الحكام أكثر من الزمن اللازم ، مع عواقب غريبة وعنيفة . وكان من المفروض على مثل أولئك الحكام ، وقد طعنوا فى السن ، أن تمكنهم خبرتهم من صيانة مصالحهم الخاصة ومصالح رعاياهم ، إلا أن الآخرين الذين كانوا فى مستقبل العمر كانوا غير طبيعيين فى حياتهم الخاصة وثورين فى إدارتهم . وهذه الاختلافات فى العمر والمسئولية تبعثها بالضرورة اختلافات فى السلوك ، وسوف أسارع الآن بربط تاريخ هذه الأحداث فى تفصيل ، وسأتناول الحكام المتباعدين فى الترتيب الزمنى .

يونا بيوس السرديسى

Eunapius of Sardis

(٣٥٠ — ٤٠٥ م)

متابعة تاريخ دكسيبوس Dexippus الطبعة الثانية^(١)

(نص توينر Historici Graeci Minores تحقيق ل. دندورف Dindorf)

(المجلد الأول ص ٢٠٧)

إن تاريخ « دكسيبوس الأثيني » مرتب حسب سنوات الحكام السنويين لأثينا منذ هبتهم الأولى ، مع التنويه بمن يماثلهم من القناصل الرومان ، برغم أن الرواية ذاتها تبدأ قبل أن يسمع عن أى من القناصل أو الضباط . إن السمة المميزة لعمل دكسيبوس هي أنه يغفل الفترة الباكورة التي تدخل في نطاق الشعر ، فهو يتركها لأقلام أكثر كفاية من قلمه في تأثيره على نفس القارىء ، بينما يقوم بجمع أكثر الأدلة جوهرية ، والذي يبرز بمضى الزمن ، ويركزه في شكل من الدقة التاريخية والنقد الأصيل أكثر قابلية للتأثير . إنه يسوق روايته في قالب زمني يتركزها في الأولمبياد وسنوات الحكومة الأثينية التي يقع كل أولمبياد فيها . إن المداخل التي يصدر بها كتابه مفعمة بالجمال ، وهو يظهر خلال عرضه مدخلا رائعاً بابعاده المحسنة الخرافية والقديمة (التي يرددها إلى الصيادلة الذين وصفوها في بداية الأمر ، لأنها من طرار قديم فقد شعبيته) . إنه يسمح لهذه المحسنات الخرافية والقديمة بالظهور ، عندما يكون بصدد عرض الحقبة المصرية ، وبصدد التركيز على سنوات الحكم الباكورة في كل بلد ، وبصدد ملاحظة مؤسسى التاريخ

(١) وهى الطبعة التي استبعد منها المؤلف لحد ما الهجمات التي شنها ضد المسيحية في الطبعة الأولى . دكسيبوس ، والذي كان يونانيوس امتداداً له ، كان مؤرخاً أثينياً شهيراً وكان رجلاً متفدماً في القرن الثالث بعد المسيح (المحقق) .

وآبائه ، فإنه يحاول توضيح - إذا لم يؤكده رسمياً في عبارات كثيرة - أن أسلافه ينتظرونه دائماً في مقدمة عناصر غير تاريخية. وتشبه روايته المحكمة المركرة مخزن عطارة عام ، فيه تنسيق بديع ومناسب لبضائع تاريخية مستوردة فوراً بعد عملها على أيدي تشكيلة كبيرة من صناعها. ونجد كافة الأحداث ذات الأهمية التاريخية من وجهة النظر العامة أو الأحداث ذات الصلة بحياة أفراد مبرزين معينين ، نجدها معروضة بلا ملل ومنتظمة في عمل « دكسيوس » الذي يختمه بالإمبراطور « كلوديوس الثاني »^(١) Claudius II . ويدخل « دكسيوس » في حسابه عدداً من الأولمبياد مع القناصل وموظفي أئينا المختصين ، متخذاً ألف عام كاملة أساساً لمشروعه . ويبدو أنه يخيم عليه الخوف من فشله في أن يمد قراءه بمدد كبير كاف من السنين .

أما وقد اتخذت هذا العمل موضع دراسة لي فقد تمكنت من أن أتعلم من مثال « دكسيوس » نفسه وأن أقدر قيمة الأخطار الحقيقية التي تشتمل عليها كتابة التاريخ في شكل حوليات ، ولا سيما عندما يعترف المؤلف نفسه لقراءه بأن تقويمه ليس دقيقاً إنما هو موضوع مختلف حوله الآراء ، وعندما يكاد المؤرخ يتهم نفسه تقريباً ، كما فعل دكسيوس ، بأنه قد أوجد رواية مضطربة مكتظة بالمتناقضات (بمثابة اجتماع دون رئيس) خلال التزامه بسلوك المنهج التقويمي . ويتردد في أذني دائماً ، المثل البيوتى الذى يقول (إنها ليست موسيقى) ، وقد ذكرت نفسى بأن الهدف المثالى وهدف التاريخ هو تسجيل الأحداث في ضوء الحقيقة مع تقليل عنصر الذاتية ، أما هذه الحسابات التقويمية الصارمة ، التي تندفع كمتفرج لم توجه إليه دعوة ، فلا قيمة لها في هذا الصدد . فإذا يمكن أن يسهم به التاريخ الزمنى في حكمة « سقراط » Socrates أو في عبقرية « ثيمستوكليس » Themistocles ؟ وهل الصيف هو الذى جعل العظاء عطاء ؟ أو هل لوحظ أبداً

(١) ٢٦٨ — ٢٧٠ (المحقق) .

هذا في العام الأول من حكمه والذى بدأ فيه ذلك الحكم وانتهى — كان كلوديوس قد حكم الإمبراطورية لعام واحد فقط ، على الرغم من أن بعض الثقات يعتبرون أن حكمه قد امتد عاما آخر (المؤلف) .

أنهم ينمون أو يظلمون صفاتهم الخلقية طبقاً لفصول السنة كما يفعل الشجر؟] أو هل لنا أن نقرر أن صفاتهم الفطرية والغريزية كانت في كل حالة تمت ممارستها وحفظها في نشاطها بدون توقف أو انقطاع؟ [وإذليما كان الأمر كذلك فأى مغزى في الهدف الحقيقي للتاريخ يمكن أن نجنيه من وراء معرفة أن الهلانيين قد كسبوا معركة عند ظهور كوكب الشعرى؟ أو كيف تتحسن التربية التاريخية عند القارئ عندما يعرف أن فلانا قد ولد في هذا اليوم أو ذاك، هذا الذى أصبح فيما بعد شاعراً أو عازفاً شهيراً؟ وإذا ما كان المعيار النهائى للقيم التاريخية هو القوة في عرض قدر لحدود له من الأحداث في فترة زمنية قصيرة وفي مقرر سريع للقراءة، أو أن نتوقع حكمة العصر في أيام شبابنا بمعرفة الماضى الذى يتلائم مع معرفة الخير والشر؛ عندئذ فأنا مقتنع بأن هدف التاريخ قد أفسد مسعاه الكتاب الذين يدمرون الغذاء الصحى الذى يقدمه التاريخ لهم في ثوب غريب من القصص الاستطراذية التى لا لزوم لها، والذين يلوثون مياه قصتهم الحلوة بالأسلوب الآسف. وأيما كان الأمر، فقد يكون من نافلة القول الإفراط في الحديث عن معرفة لا لزوم لها، كما لاحظ « دكسيوس » نفسه أن التقاويم غالباً ما تكون متناقضة، بينما لا يوجد اختلاف في الرويات المحلية الموغلة في القدم. وأية شخصية تطاول « ليكورجوس الأسبرطى » Lycurgus شهرة في جمهورية الآداب؟ إن كل واحد يألف شهادة السماء التى صار بموجبها « ليكورجوس » كاهناً بشكل واضح بسبب نشاطه التشريعى، إلا أنه ليس هناك كاتب يبحث في هذه الأسطورة يتفق مع أى كاتب آخر فيما يتعلق بالتاريخ الذى سن فيه التشريع. إنهم يشبهون ملاحظى مبنى أو عمود أو نصب تذكارى هندسى، يتفقون جميعاً حول حقيقة وجوده، إلا أنهم يملأون المجلدات بمناقشات منمقة حول تاريخ بنائه. إن « ثوكوديدس » وهو نموذج للدقة يسجل فعلاً أن الحرب العظيمة والشهيرة التى يؤرخ لها لمس فيها نفسه الذكسة، وهى الأصل والمناسبة التى اختلفت حولها الأطراف حول تاريخ الاستيلاء على مدن معينة، فالمؤرخ نفسه غير قادر على أن يحسم الموقف بدقة وبالتالي أن يبرز الحجج المختلفة لكل منها. وما إن يصل إلى مشكلة الأيام حتى يكشف

مضطرباً بطلان الدراسات والأبحاث التقويمية وعدم جدواها .
وبعد جدل داخلي لا بأس به ، وبعد التأمل في الخطوط الميينة آنفاً، وصلت إلى
نتيجة (أوصى بها بالتالي كل المتحمسين للتقويم) أن الملاحظة الدقيقة للأيام
والفصول هي من عمل الذين يعملون في الأرض والمحاسبين وبالطبع الذين يحملةون
في النجوم والذين ينهمكون صراحة في الدراسات الرياضية أيضاً . وعلى هذا ينبغي
أن أحذر قرأى في الوقت المناسب من أننى بينما شرعت في مهمة تسجيل الأحداث
الماضية والمعاصرة وأنا أثق تماماً بقدراتى الخاصة ، فإننى أستبعد اضطرارى إلى
تاريخ السنة أو اليوم على اعتبار أنه يناق روح التاريخ ، طالما ينظر إلى
حكم الأباطرة ، على أنه وحدات زمنية علمية . وسوف يجدى قرأى أسجل
هذه الحادثة أو تلك التى وقعت إبان حكم هذا أو ذاك ، وأننى تركت
للآخرين أن يقفروا في الهواء الكاذب لتحديد عام أو يوم . وعندما أعبّر عن
الثقة في قدراتى ، فإننى أعنى اتباع الثقة الذين كانوا الأمد طويل هم المستنيرين في
عصرنا ، والذين بدأوا مثلاً يمتدنى لإيقاد أحداث عصرنا من النسيان ومن الفترة
التي تفصله عن النقطة التي ينتهى عندها تاريخ « دكسيوس » - وهي فترة لم
يسبق أن أولها مؤرخ مرموق عنايته . وفى التكفل بهذا الأمر ، وهو شائع
لدى ولدى من سبقونى ، أخذت حكم الإمبراطور « جوليان » Julian كموضوعى
الرئيسى فهو يكتنف حياتى أنا .

لقد كان الجنس البشرى بأسره يجعل هذا الإمبراطور باعتبار أنه له .
(وعند هذا الحد يصبح المخطوط غير صالح . . . المحقق)

متابعة تاريخ ديكسيوس - الجزء الثانى

(نص توينر Historici Graeci Minores ، تحقيق ل. دندورف . المجلد
الأول صفحہ ٢١٥) .

في الفصول السابقة ، تم وصف الأحداث التي شغلت الفترة فيما بين
النقطة التي انتهى عندها مؤلف ديكسيوس وأزمة جوليان ، تم وصفها
بشكل مناسب في تناول موجز بقدر الإمكان . وتناول قصتى هنا البطل الذى كان

هدفاً إلى منذ البداية ، ويدفعني إلى أن أنغمس في عمله بكل عواطف الود التي أكنها له . هذا في حين أنني لم أره أو أستمتع بميزة الاتصال الشخصي به . ف عندما كان جوليان على العرش كان كاتب هذه السطور مجرد طفل . إلا أن عواطف الجنس البشري العامة ووحدة الآراء في الضريبة التي تدفع لذكراه لها تأثير غريب لا يقاوم ويلهب الولاء له . وكيف يتسنى لي أن أصمت إزاء موضوع لا يمكن لأى إنسان آخر أن يلتزم الصمت إزائه ؟ كيف يمتنع المرء عن حكاية تستحسنها حتى شفاه غير المتعلم والجاهل ، اكتنزت عصر بطلي الذهبي باعتباره موضوعاً لخلوة لا يفوقها شيء ؟ إن الرجل العادي لا يشعر بأنه ملازم بأن يعبر عن عواطفه الشاملة في شكل أدبي ؛ ولكن في الحالة التي أنا بصدها فإن أكثر الأشخاص شهرة وتميزاً في العالم الأدبي أبوا إعفائي من مهمة أعفى أنا نفسي منها بسرور . لقد أظهروا لي التشجيع وعروض المعونة ، ولقد عبر الصديق الحميم للإمبراطور « جوليان » « أوريباسيوس البرجاموسى » Oribassius of Pergamum الذى جعله تربيته في العلم الطبيعى مستشاراً طبياً عظيماً ، وما يزال يمارس الطب بشكل عظيم ، بين في لغة سهلة أنه من الجرم من جانبي إذا لم أباشر المهمة . وقد شرع « أوريباسيوس » لإرشادى ، في تأليف مذكرات تفصيلية عن أعمال الإمبراطور ، وكل ما يعرفه بمعلومات كاملة من جانب أول من شاهدها ؛ وعلى ذلك وجدت نفسي لا عذر لى للتملص من العمل حتى إذا ما رغبت في ذلك .

ماركوس الشماس

Mercus The Deacon

(٣٧٥ — ٢٤٥ م)

حياة بورفيرىوس : أسقف غزة

(نص توينبر تحقيق أعضاء مجمع الفيولوجيا في بون : الفصول ١ - ٣) .

إن نضال الرجال المقدسين واشتياقهم الإلهى وغيرتهم هى بمثابة المنظر الذى يثبت عيون المتفرج . إن النظر إلى هذا النضال يوحى بالإعجاب . وبذات الوقت فإننا

قد نحصل على معلومات لا بأس بها من القصة إذا ما أعيدت روايتها ، عندما تلقنها لأرواح القراء عقول تلم بالحقائق إماماً دقيقاً . وعلى الرغم من أن النضال في صورته الأولى أكثر قابلية للتصديق من صورته الثانية ، إلا أن الأخير يحمل في طياته الإقناع إذا ما استمد من مصادر موثوق بها . وإذا ما بقيت سجلات الأحداث الزاخرة بالمعرفة دون عبث ولم يتسرب الزيف إلى الحق لبدت كتابة مؤلفات في هذا الموضوع لا لزوم لها . إن إشاعة الحق بين قلوب كل جيل عن طريق التراث الشفاهي من شأنه أن يكون في هذه الحالة كافياً لأغراض التثقيف . وكذلك ، لما كان الزمن قد أفسد السجلات ، سواء بتقادم العهد على المذكرات ، أو العبث عمداً في الرواية ، فقد اضطررتني هذا إلى أن أتكفل بالمؤلف الحالي . وهدفى هو إنقاذ مذكرات رجل قديس مثل القديس « بورفوريوس » من أن يطمسه مرور الزمن . فإن تسجيل ما قام به ليعتبر وقاية حقيقية لأوثك الذين يقرءون له ، ومن الأوضاع المتناقضة أن الكتاب المسرحيين والمؤلفين الآخرين يبذلون طاقتهم الأدبية في الطرف وحكايات السيدات المسنات ، بينما تترك ذكرى القديسين للنسيان ، دون أى جهد لإنقاذها من المصير الأخير الذى ينتظرها . إننى أرتجف عندما أفكر فى الجريمة التى ارتكبها إذا ما أنا فشلت فى إعلاء شأن مصير رجل كهذا — محبوب من الله — فى شكل أدبى دائم مصير غيور على المدينة السماوية التى نستمد منها إدراك الحياة .

وسوف لا أنص على حروبه ومنازعاته ضد قادة عبدة الأوثان وأبطالهم فحسب بل ضد سكان بأكلهم يستحوذ عليهم الجنون فى كافة أشكاله أيضاً . لقد تذكر القديس كلمات الحوارى المبارك ، التى يقول فيها : « اتكل على الله . حتى تكون قادراً على أن تقاوم فى اليوم الخفيف ، وأن تقف إذ أكلت كافية الأشياء » . وهذا هو السلاح الذى تمنطق به التلميذ السالف الذكر عندما دخل فى منازعاته ، وإن « بورفوريوس » الذى ووجه بنضال فى مثل قسوة النضال الذى واجه الحوارى ، ضد خصوم متماثلين فى العدد والفضاعة ، قد توج بنصر مجيد مثلما توج به الحوارى أيضاً . وقد شيد تذكر هذا النصر فى قلب بلاد العدو ، فى شكل كنيسة المسيح

القدسة التي أسسها القديس في غزة . ولم تكن طبيعته الإنسانية هي القوة التي أحرزتها ، ولكنها الحكمة التي جلبت النعمة النماوية على هذا العاطفي المحب للكنيسة ، والذي أعد ليقوم بكل الأمور ويقاسي في قضيته من أجلها . وكم من هجمة مريرة من أيدي الأعداء لم يصمد لها هذا الشخص العجيب وكم خدعة واستهزاء لم يصبر عليها ؟ وستطول رواية القصة الكاملة لهذا الرجل العظيم ، وقسمات كثيرة فيها ينظر إليها على أنها مشكوك في حقيقتها . ولهذا سوف أحصر نفسي في رواية حقائق قليلة أتذكرها أنا شخصياً من الفترة الطويلة لإقامتي معه ، عندما كان لي حظ الاستمتاع بهذه الروح المباركة والموهبة التي كان صحبها الحقيقيون هم الملائكة . هذا القديس الذي وهب كل صفات الكمال جدير بثناء الجنس البشري كله ، وبينما أنا حريص على أن تلك الصفات لمثل هذه الشخصية فوق التعبير عنها بكلمات ، فإن صلواته القدسية تشجعني حتى أشعر أن هذه المحاولة يجب أن تتم . وسوف لا تكون هناك عجرفة في اللغة التي سوف أسرد بها قصته الجميلة . والكتابات لا يمكنها أن تضيف إلى زينة حياة رجال يمثل هذه الشخصية زينة . بل على العكس ، فإن كمال سلوكهم يشرف الكلمات التي تسجله . وعلى هذا فإنني متشجع ، في حالي ، بصلوات القديس آنف الذكر ، لتناول هذه المهمة الأدبية . وخلال شفاعته هذه الصلوات ، فإنني أصلي من أجل نعمة ربنا يسوع المسيح ومساعدته ليكني بكافة الوسائل ، أن أصف كمال ذلك الرجل القدوس والتمس من قراء هذا العمل ألا يرتابوا بمحتوياته . لقد كنت شاهد عيان لـ « كمال » بورفير يوس» باعتباري زميلاً له في المعيشة والترحال والوقوع ضحية الاضطهاد حتى آخر يوم من حياته هنا على الأرض .

بروكوبيوس القيصرى

Procopius of Caesarea

(٥٠٠ - ٥٦٥ م)

تاريخ حروب جستنيان Justinian

(نص توينبر.. مجموعة الأعمال . المجلد الأول تحقيق ج . هارى الكتاب الأول .
الفصل الأول) .

كتب بروكوبيوس القيصرى تاريخ شتى الحروب التى شنها « جستنيان »
إمبراطور الرومان ، ضد غير الرومانيين فى الشرق والغرب . وهدفه من ذلك إنقاذ
أعمال على درجة كبرى من الأهمية من أن تتعرض ، إذا لم تسجل ، لا كتساح
الزمن المنتصر للانهاى ، الذى يهدد بإلقائها فى خضم النسيان . حيث يندثر
ذكرها تماماً . ويمتقد المؤلف ، أن صيانة هذا التسجيل سوف تكون لها آثارها
مفيدة للأجيال الحاضرة والمقبلة ، فى حالة إذا ما وقع [الجنس البشرى] مرة
أخرى خلال التاريخ تحت ضغط موقف مماثل . وإن الأطراف التى تحفزها إرادة
الحرب أو تدفعها لتشروع فى تجربة القوة ، هذه الأطراف لها دروس قيمة تتعلمها
من النتائج التى تقدمها أبحاث من هذا القبيل ، وهذه النتائج قادرة فى حالة عرض
نضال مماثل فى الماضى على أن تلقى ضوءاً على مشكلة الحاضر محتملة الوقوع (على
افتراض أن الموقف يعالج بحكمة) . ويشعر المؤلف نفسه أنه أهل بصفة خاصة
لكتابه هذا العمل لسبب واحد وكاف ، هو أنه لما كان الناصح الأمين للجنرال
« بليزارىوس » Belisarius ، فقد كان من حقه أن يسهم شخصياً فى سائر
الأحداث تقريباً موضع البحث . وهو يعتقد بأن زينة الصحافة الحقيقية ، هى التائق
وزينة الشعر هى العواطف وأما زينة التاريخ فهى الحقيقة ولهذا السبب ، فإن المؤلف
لم يدار الجانب المظلم عند مناقشة حتى أقرب الأصدقاء إليه ، إلا أنه وصف
(م ٧ — الإغريق)

بإسهاب سلوك كافة هذه الشخصيات (سواء كان موثقاً به لديهم أو العكس) بدقة واعية .

وسوف يكون من الواضح ، بالنسبة إلى عقل غير متحيز ، أن أحداث هذه الحروب كانت على الأقل بارزة ومهيبية مثل أى حادثة أخرى . لقد كانت هذه الأحداث مسؤولة عن وجود شخصية أكثر شذوذاً ، أكثر من غيرها ، من الأحداث الباقية المسجلة ، فيما عدا (على وجه الاحتمال) من وجهة نظر القارئ الذى يصر على إعطاء الأولوية للتقديم ويرفض أن يتأثر بأى شىء فى العالم المعاصر . والمثال الأول الذى يتطرق إلى ذهنى هو تكلف الإشارة إلى الفضائل العصرية مثل « رماة النبال » والاحتفاظ ببعض الألقاب (مقاتل يد فى يد) أو (رجال تحت السلاح) للمقاتلين القدامى ، متوهمين بشكل وثيق أن هذه الصفات العسكرية منقرضة فى عصرنا . ومثل هذه الافتراضات إنما تكشف عن سطحية غادرة ونقص مطلق فى خبرة الذين يفترضونها . ولم يخطر ببالهم أن رماة النبال فى شعر « هومر » هم من شهر فى وجوههم السلاح دلالة على اللقب المشين ، لم يكن لديهم لحم خيول فى ركبهم ولا رماح فى أيديهم ولا سترة حديدية تغطيهم . لقد ذهبوا للقتال على الأقدام ، وأجبروا على أن يتستروا خلف درع واق لأحد رفاقهم أو الاحتماء فى ضريح — أجبروا على أن يأخذوا وضعاً حال بينهم وبين انتشار أنفسهم من الهزيمة ومن مطاردة عدو يتقهقر ، وفوق هذا كله ، من القتال فى العراء . ومن ثم فإن شهرتهم جاءت من قيامهم بدور مستور فى لعبة الحرب ، بينما تحملوا قليلاً مع فمهم بمعزل عن ذلك كله ، الذى يقضى بأن يشدوا فى قذيفتهم خيوط القوس إلى الصدر ، وينتج عن ذلك بطبيعة الحال أن تنتهى القذيفة ، ويبطل تأثيرها بفعل الفترة التى تصل فيها إلى الهدف . وقد كان هذا بلاشك هو المستوى الذى وقفت عنده النبال فى أزمنة باكرة . وعلى النقيض فإن النبال العصرية تستخدم مجهزة بدرع وركب جلدية وجعبة سهام على الجانب الأيمن والسيوف على الجانب الآخر ، بينما بعض الفصائل لديها رماح معلقة فوق أكتافهم وترس صغير

بلا مقابض (١) على شكل قطر دائرة يغطي الوجه والرقبة . أما وقد أصبحوا فرساناً مرموقين ، فقد تدرّبوا على أن يثنوا قوسهم دون جهد على الجناح عند اتخاذ وثبة كاملة ، وأن يضربوا عدواً يطاردهم في مؤخرته كما يضرب العدو الذي يتقهقر في مقدمته . إنهم يشدون حبل القوس إلى الوجه ، في مستوى الأذن اليمنى تقريباً ، الذي يجعل للقذيفة قوة كهذه بحيث يكون اصطدامها قاتلاً حقيقياً ولا يستطيع الترس أو الدرع أن يقاوم زخمته (قوته المتحركة) . وأياً كان الأمر ، فبعض الناس يؤثر تجاهل وجود هذه الفضائل ويثابر على تملق مكشوف للقديم ويرفض أن يسلم بتفوق المخترعات العصرية . إن سوء فهم على هذه الشاكلة ، لا قيمة له بالطبع ، في سلب الحروب الصغيرة أهميتها الفائقة .

تاريخ لم ينشر

(نص تويينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، تحقيق ج . هارى : تاريخ لم ينشر ، الكتاب الأول ، مقدمة .)

في كتابي (التاريخ الحربى للشعب الرومانى) حتى التاريخ الراهن ، قد رتبت وصفى للأحداث تحت عناوين زمنية وجغرافية بأقصى ما فى وسعى . وفى بقية عملى سوف أتبنى مبدأ مغايراً فى التأليف ، فسوف أسجل كل شىء حدث فعلاً فى كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية . وسبب تغير هذا المنهج هو أنه كان من المستحيل أن نسجل هذه الأحداث بطريقة صحيحة ، طالما بقى أصحابها على قيد الحياة . كان من المستحيل بالدرجة الأولى ، أن نفلت من جيش الجواسيس أو أن نهرب من دمار الموت المرعب ، إذا ما اكتشف أمرنا ، بينما لا يمكن أن تكون هناك ثقة فى ولاء حتى فى أقرب

(١) (على وجه التخمين) يعلق على الكوع ولا يمسك به بقبضة اليد . انظر لوجه الفارس البارز للملك خسرو الثانى ملك فارس (حكم ٥٩١ — ٦٢٨ م) فى تاك - سى - يوستان ، الذى أعاد عرضه فى Am Tor von Asien E. Herzfeld (برلين ١٩٢٠ رير) . المحقق .

المقربين . وعلى هذا كنت مجبراً أن أخجب أسباب كثير من الحقائق المذكورة في مجلداتي السابقة ، ومهمتي في العمل الراهن من شأنها أن تفسر حقائق مرت حتى الآن في صمت ، وبالمثل أسباب حقائق غير واضحة حدثت بالفعل .

وعند الشروع في هذه المحاولة الثانية العسيرة التي لا تقاوم ، وهي محاولة كتابة تاريخ حياة « جستنيان » و « ثيودورا » Theodora فإنني أجد ملكاتي وقد شلت عندما أفكر أن محتويات العمل الراهن تبدو أنها ليست جديرة بالثقة أو التصديق من جانب أجيال المستقبل ، ولا سيما عندما أضع في اعتباري كيف أن مجرى الزمن الدائم يستنزف العمر الضعيف في كل رواية . إنني أخشى أصلاً اكتساب شهرة الروائي وأخشى أن أوضع في مصاف المؤلفين المسرحيين أكثر من مصاف المؤرخين . وأيما كان الأمر ، فلدَى سبب واحد للثقة يمنعني من الإحجام عن تحمل عبء عملي ، وهذا السبب هو وجود شهود عيان على صواب روايتي . فإن الجيل الراهن هو شاهد يلم جيداً بالأحداث محل البحث ، وإنني قد أتركها لأيدي أمينة كي تنقل لقرائي في المستقبل اعتقادهم الخاص بصدق .

وأيما كان الأمر ، فهناك اعتبار آخر ، طالما عاقني حينما استحوذ على حماس هذه المهمة الأدبية . وتشككت في أن يكون إتمامها ضاراً بالأجيال المقبلة . إن أكثر الجرائم فظاعة هي على وجه التحديد تلك التي يرغب في إخفائها عن الخلف ، حينما يتطلع الحكام المستبدون إلى عدم تكرارها كما يفعلون ذلك ولا شك إذا ما وصلت معارفهم . إن حكام اليوم هم في العادة غير واهمين . إذ أنهم يجدون من الأوفى أن يروا الجانب السيء من أسلافهم وقد ظهر في محادثتهم ، وأن خطأهم في المقاومة الأقل يعيد بشكل غير مغاير أخطاء الماضي . وأيما كان الأمر ، فقد دفعت هنا بالتالي إلى تسجيل تاريخ الأحداث مرتبباً بالتأمل الذي يقضى بأن طغاة المستقبل سوف يتلقون منها دروساً معينة مفيدة — أولها أن الجراء على رذائلهم ليس من المحتمل أن يصيبهم ، كما أصاب أشخاص روايتي ، بينما في المحل الثاني سوف يسجل سلوكهم وشخصيتهم إلى الأبد ، وهو اعتبار قد أوقف الباعث عندهم على الخطأ . إن عمل

« سميراميس » Semiramis الداعر وجنون « سردانا بالوس » Serdanapalus و « نيرون » بعد هذا كله نم تكن ليعرفها فرد واحد في الأجيال المقبلة إذا لم تكن السجلات قد تركت لهم من المؤرخين المعاصرين ، والجدير بالذكر في هذا الصدد أن الرواية قد تبدو كلها مفيدة لضحايا طغاة المستقبل في ظروف مماثلة . إن الكادحين يستمدون السلوى عادة من إدراكهم أنهم ليسوا وحدهم في المصائب . ولهذا سوف أبدأ بروايتي ، وسوف أصف فيها من البداية سلوك « بلنزار يوس » لسبيء . والسلوك المشين لجستنيان وثيودورا بعد ذلك .

أجاثياس الميرهيبي

Agathias of Myrrhina

(٥٣٦/٥٣٧ - ٥٨٢) م

(تاريخ عصره)

(نص توينبر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف — المجلد

٢ صفحة ١٣٢ . الكتاب الأول ، مقدمة)

ثم بريق نجاح يحيط بانتصارات الحرب وأكاليها ، ودمار الدول وعظمتها ، وكافة زينات الأحداث الكبرى . وجوائز كهذه تجلب المجد والمثمة للمحظوظين الفائزين بها ، إلا أنه ، عندما يترك هؤلاء الفائزون هذه الحياة الدنيا ويعضون إلى العالم الآخر ، لا يجدون من يسير أن يحملوا أعمالهم معهم . فيتسلل النسيان إليها ويلفها ، حتى تفسد المسار الحقيقي للأحداث ، وحتى حينما يرحل شهود العيان عن هذه الدنيا بدورهم ، فإن معرفة الوقائع تنطفيء معهم وتنشبت إلى لا شيء . إن مجرد الذكرى بمثابة وهم لا طائل تحته فليس له صفة الدوام أو قوة البقاء جنبا إلى جنب مع الزمن في امتداده الدائم . وفي اعتقادي ، أن الأبطال الذين جازفوا عامدين بحياتهم في سبيل بلادهم أو تحملوا عبء الآخرين فوق أكتافهم ، هؤلاء ما كانوا يفعلون ما فعلوا لو كانوا متأكدين أنهم حينما يصلون إلى قمة العمل الإنساني ،

سوف تفنى شهرتهم معهم وتتحلل إلى لا شيء خلال فترة حياتهم القصيرة ، فيما عدا ما يمكن أن يعتبر بمثابة العناية الإلهية التي قوت ضعف الطبيعة البشرية بتقديم نعم وآمال دافقة من فن التاريخ . وإننى أتصور أن الزيتون وأطراف البقدونس لم توح إلى الظافرين بالأوليب أن يظهروا عراة في الحلبة ، وكذلك فإن الرغبة في المنفعة المباشرة من الجائزة المالية ليست هي التي دفعت بخيرة الجنود إلى أن يتحملوا مشاق الحرب المفروضة والتي لا يمكن الخطأ فيها . إن الجائزة التي كدح في سبيلها الفريقان هي المجد البراق غير القابل للتلف ، وهذا ما يمكن الحصول عليه فقط بالخلود المقصور على التاريخ ، الذى لا يحمل منهججه أى مشابهة لطقوس « زامولكسيز » Zamolxis وحماقات العقيدة الجيتية ^(١) Getic ، ولكنها وسائل إلهية حقيقية وخالدة وهي الوسائل الوحيدة التي يمكن بمقتضاها للكائنات الحية أن تعيش إلى الأبد . وإنه لمن الأمور غير اليسيرة أن تقدم قائمة مضمينة للنعم التي يملأ بها التاريخ حياة (الإنسان) ، إلا أننى لا أستطيع أن أنعمها في عبارة بأى أعبر عن الرأى الذى لا يعطى الأولوية تماماً إلى الفلسفة السياسية وقد تكون صاحبة الفضل الأكبر من الاثنين . إن الفلسفة السياسية مربية عنيدة لا يمكن المساس بها ، توزع أوامرها وتضع أنظمتها إزاء الأهداف السليمة التي يبحثون عنها أو يتحاشونها . إن إقناعها لا يخلو أبداً من عناصر الإكراه ، بينما يعتمد التاريخ إلى أقصى حد ممكن على الجاذبية ، فيحيط دروسه بتنوع خصب من الإيضاحات ، ويقدم في شكل أدبى ، الأمثلة التي حصل بها الرجال على الثقة من وراء ممارسة الحكمة والاستقامة وتلك الأمثلة الأخرى التي انتقاد فيها الرجال إلى خطوة زائفة بسبب قرار أو فرصة مشؤومة وذلك حتى يغرسوا في النفوس برقة وبشكل غير محسوس الصفات التي يزدانون بها لحد كبير ، والتي توضح أكثر الجذور عمقاً ودواماً حتى تصبح متجانسة في الطبع ويتقبلونها طواعية .

ونتيجة لتبصر طويل وتأمل في امتيازات التاريخ ، شعرت بأنه من المحتم أن

(١) كان زامولكسيز النبي المبهم للجيتيين أو الداقيين وهي قبيلة هاجرت (في القرن السابع ق . م على وجه الاحتمال) من أقاليم استبس أوراسيا إلى وادى الدانوب بين البلقان والكارين وقد جلبت معها عقيدة متقلبة عن الخلود فتن بها الهلينيون (المحقق) .

أدفع له فريضة الإعجاب وأن أثنى على فضائل الإنسانية التي أنجزت بالفعل نتاج المؤلفات التاريخية، إلا أنني لم أشعر بأى إلزام في أن أضع يدي في هذه المهمة بنفسى حتى ولا مجرد أن أحاول ذلك . لقد كان حبي الأول ، منذ صباى ، للشعر البطولى ، وإننى لمسرور فى خيلاء هى بمثابة التوابل للفن الشعرى . وأنا فى الواقع مؤلف قصائد قصيرة ذات تفصيلات ستة وبعنوان (Daphniaca) موشاة برومانسية عاشقة ومفعمة بجاذبيات أخرى من النوع ذاته . وبدالى أيضا ، ذات مرة أنه عمل جدير بالثناء والشكر ، أن أنقل مجموعة كاملة على قدر ما يمكن بقصيدة موسمية حديثة لم تكن حتى ذلك الحين ذات صفة عامة ، ولكنها كانت تتردد على شفاه قليلة دون اهتمام كبير بصحتها ، وأن أعد نسخة منقحة ومرتبطة ترتيباً سليماً . ولقد كنت موفقاً فى تنفيذ هذا المشروع إلى جانب عدد آخر من المشروعات الأدبية ، التى يمكن أن تستحوذ على جاذبية معينة وسحر خاص بها ، على الرغم من أنه يكاد يمكن القول بأن لها هدفاً عملياً . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الشعر شىء قدسى وخارق للطبيعة . فهو يلهب النفوس غيرة (كما يعبر الفيلسوف ابن أرسطون ^(١) Ariston) ويتولد عنه نتاج من الجمال الفائق ، إذا ما كان ملهماً فى الأصل واستحوذ عليه الهوس الإلهى . وعلى هذا كان قصدى أن أكرس وقتى للشعر وألا أترك باختيارى هذه الحرفة الرقيقة والمبهجة ، سوى أن أتبع تعاليم دلتى وأن « أعرف شئونى الخاصة بى ^(٢) »

وأيما كان الأمر ، فقد قدر لى أن أولد فى جيل . نشبت فيه حروب كبيرة غير متوقعة فى أجزاء كثيرة من العالم ، وهاجرت بعض الشعوب غير المتحضرة إلى أوطان جديدة . وزخرت حياة الجنس البشرى كله بسلسلة من الأحداث الغامضة ولا يمكن تصديقها لأنها اتسمت بنهايات شاذة ، وبذبذبات الحظ العنيفة ، وإبادة الأجناس واسترقاق الشعوب وإحلال شعوب أخرى محلها ^(٣) . وقد أوحى إلى رؤية هذه الأحداث المشؤمة وغيرها ببعض الشكوك المعينة كمثل تلك التى ينبغى على

(١) هو أفلاطون (المحقق) .

(٢) كان النقش المشهور فى دلتى هو (اعرف نفسك) المحقق .

(٣) تنويه منهق بفقرة فى مقدمة ثوكوديدس (المحقق) .

ألا أكون مخطئاً في حق (النور) إذ أتركها دون تسجيل أو دون ذكر ، وقد كنت معنياً لأقصى حد بأحداث كهذه ذات أهمية فائقة يجب أن تكون لها قيمة موضوعية للرخاء . ولقد وصلت إلى الخاتمة التي ينبغي ألا تكون بعيدة عن عنايتي لعمل بعض تجارب في كتابة التاريخ، حتى يمكن أن تنقضي حياتي كلها حول رومانسية الأدب وغرائبه ، ولكن يجب أن تحمل بعض الثمار العملية على خير وجه . وقد زاد الباعث عندي قوة وإثارة إلحاح كثير من أصدقائي وتشجيعهم ، وعلى الأخص من جانب الصديق الصغير «يوثيخيانوس» Euthychianus بينما المبادرة قد تمت من جانب رسمي في الخدمة المدنية ، جعلت منه شخصيته السامية وذهنه المتوقد وكال تعليمه زينة متألفة لبيت (فلوري) Florii . فهذا السيد الذي وضع مصالحي في قلبه وأولى تقديراً كبيراً سواء في الشهرة الأدبية أو الشهرة العلمانية ، ثابر على أن يحفزني ويتمني لي النجاح . ولم يدع لي أن أعتبر المشروع صعباً أو في غير طاقتي ، ولا أن تثبط همتي بجدة التجربة كما يفعل رجل البر في رحلته البحرية لأول مرة . لقد أوصاني بأسلم وجهة نظر وهي أن التاريخ ليس بعيد المنال من الشعر ، وأن الفنين شقيقان في أسرة واحدة وليس بينهما ما لا يمكن إدراكه ، فيما عدا نظم الشعر الذي يفرق الواحد عن الآخر . وكان لي أن أعتبر نفسي في بيتي في كل من المعسكرات وأن أتحرك وأبدأ العمل بثقة وطاقمة متماثلتين . لقد وصلت تعاويد أصدقائي إلى أذان صاغية فتنومني تنويماً مغناطيسياً ، وهكذا تكفلت بالمولف الراهن . وإنني أثق بأن النتيجة قد تكون جديرة بغيرتي ، وقد تتطابق تقريباً في أهمية الأحداث المسجلة .

وعلى بادئ ذي بدء أن أقتفي أثر التجربة المعتادة لكتاب التاريخ وأن أوضح هويتي . إن اسمي الخاص هو أجاثياس ، ومسقط رأسي هو «ميرهيينا» وأبي هو «ميمنونئوس» Memnonius ومهنتي هي القانون والحمامة . و(ميرهيينا) التي أشرت إليها ليست عاصمة البلاد في تراقيا ، كذلك فليس هناك مكان آخر في أوروبا أو أفريقيا يحمل هذا الاسم ، فيما عدا مستعمرة (أيولييان) Aeolian في آسيا ، التي تقع عند مصب نهر (بيثيكوس) Pythicus،

الذى ينبع من بلاد ليديا ، India ، ويصب في الخلاء الداخلى لخليج الإلياتيک Eleatic . وآمل أن أرد إلى مسقط رأسى جزاء تربيتى الكاملة لى ، وأن أنشر تاريخاً مفصلاً جديداً . لكافة أعمالها التاريخية الشهيرة من جيل إلى جيل . وأما فيما يتعلق بالوقت الراهن ، فأتمس منها أن تقبل ثنائى راضياً وفي نعم حماسى أقدم وأمضى به إلى الأحداث الكبيرة ذات الأهمية العظمى .

وسوف لا يتمثل كتابى فى طبيعته بعض ما سلكه المؤرخون المعاصرون . فهناك بالطبع ، آخرون فى الوقت الراهن شرعوا بالفعل فى المهمة ذاتها ، إلا أنهم أولوا اهتماماً ضئيلاً فى معظم الأجزاء للحقيقة أو رواية الأحداث كما تشكلت فعلاً من جانب الحظ ، وآثروا بدلاً من ذلك أن يتملقوا ويحاملوا عدداً من ذوى المناصب العالية بطريقة لا يمكن لأحد أن يصدقها ، حتى إذا ما تصادف أن قالوا الحقيقة . وأيما كان الأمر ، فقد أعلن الخبراء أن المبالغة فى جدارة الفرد هى من وظيفة الصحافة ، والصحافة وحدها ، بينما التاريخ ، على الرغم من أنه لا يرفض من ناحية المبدأ ، الإشادة بالأعمال الناجحة ، ونعى الانهيارات ، وأظن ، أنى أقبل هذا كهدف للتاريخ وخاصة له ، إذ أن سياء الأحداث تفترض المدح أو الذم ، فالتاريخ ليس مطلق اليد فى أن يصفى الأحداث أو يوشىها . إلا أن هؤلاء المؤلفين الذين يدللون على أنهم يكتبون التاريخ ويسمحون بأن يكون هذا الأمر واضحاً فى اعترافات الصفحات الأولى ، قد اقتنعوا نتيجة لفحص ممارسة سريعة ومنسابة ، اقتنعوا بالاسم الذى ينتحلونه لمؤلفاتهم . وهم ، فى تناول الأحياء (سواء حدث هذا بالنسبة للحكام أو لرجال آخريين مرموقين) لا يثنون عليهم فى رواية أعمالهم فحسب (التي قد تكون خطأ يغتفر إلى حد ما) ، ولكنهم يعمنون أيضاً على إيضاحها لكل قارىء بحيث أن اهتمامهم الوحيد قد زاد عن الحد الضرورى لمدح أبطالهم وتمجيدهم . ومن ناحية أخرى ، فعند تناول الأموات ، أياً كانت شخصيتهم الحقيقية ، فإنهم إما أن يقدموهم باعتبارهم مجرمين ومن مصائب المجتمع ، وإما يسلكون مسلكاً معتدلاً فيتجاهلونهم وينكرون كل ذكر لوجودهم . وهذا هو تصورهم لمعالجة المصالح المؤقتة وتأمين المنافع الشخصية بانحنوع للسلطات القائمة . وهم لا يدركون أنه حتى أولئك الذين يكيلون لهم الثناء

لا يرضون أنفسهم بهذا الاهتمام ، واضعين في الاعتبار كيف أن هذا الخيط الدقيق من الملق يمكن أن يعزى إلى شهرتهم . ويجب على هؤلاء المؤلفين أن يكتبوا كإشير عليهم الاتجاه والتعود ، إلا أنني في حالي ، أصمم على أن أضع الحق في اعتباري الأول ، أياً كانت الظروف .

وسوف أسجل عمليات ذات أهمية عامة عند الرومان والجزء الأكبر من العالم غير الروماني حتى تاريخنا الراهن (دون إهمال أى شيء هام) ، وسوف لا أقصر روايتي على أعمال الأشخاص الذين ما زالوا أحياء ، ولكن سوف أفسح حيزاً كبيراً لأي شيء أو شخص رحل الآن ، وعلى هذا فعلى الرغم من أنني أتعرض لتاريخ الفترة التي تلت وفاة جستنيان ، حينما مانجح « جستين » Justin الأصغر في التربع على المنصب الإمبراطوري ، إلا أنني سوف أرجع إلى الفترة السابقة وجل همي أن أبحث عن أية أحداث لم يسبقني إليها مؤرخ آخر . إن الجزء الأكبر من أحداث عصر « جستنيان » قد سجل بالفعل وبتفصيل على يد « بروكوبيوس القيصري » (١) وبالتالي سوف أتركها ، مطمئناً إلى أنها لقيت تناولاً دقيقاً على يديه . ومهمتي الوحيدة أن أتناول القصة حيث تركها بروكوبيوس ، إلى أقصى حد من قدرتي ...

[يلي بعد ذلك جدول بمحتويات تاريخ بروكوبيوس]

إن الأحداث المشار إليها في الجدول السابق تصل بالرواية حتى العام السادس والعشرين من حكم « جستنيان » (٢) ، وهذه (إن لم أكن مخطئاً) هي المسألة التي ختم عندها « بروكوبيوس » مؤلفه وأنها عندها . وعلى هذا سوف أنتقل الآن إلى الجزء التالي وهو ما كان هدفاً لي منذ البداية .

(١) الحامي (المؤلف) .

(٢) ٥٥٢ م (المحقق) .

تاريخ عصره : مقدمة للمجلد الثالث

(نص توينبر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف . المجلد الثاني صفحة ٢٣٦ الكتاب الثالث . الفصل الأول)

ناقشت في المجلد السابق أنظمة فارس ، وثوراتها السياسية المعقدة ، والمسائل الأساسية (كما أراها) والتي تتعلق بـ « خسرو » Chosroes وأسرته . وعلى الرغم من الحيز الذي لا بأس به والذي خصصته لتناول هذا الانحراف ، والارتباطات الطفيفة المقارنة مع ما سبقها ، فإنني على ثقة بأن أحداسوف لا يشعر بأنها من نافلة القول أو لا طائل تحتها ، إلا أن قرأى سوف يتفقون معي في أن فيها ارتباطاً سعيداً من البهجة والمعرفة . ومقصدي ، كما هو مفطور عندي ، ومسعاى الجاد هو أن (أمزج بين ربات النعيم Graces وإلهات الفنون الجميلة Muses) ، إلا أن هموم هذا العالم كانت تشدني الى اتجاه آخر دائماً ، وتضطرنى الحاجة إلى أن أسير ضد كافة ميولى . إن مؤلفى التاريخى يعتبر أ كثر الأعمال أهمية ورفعة يمكن أن يحوزه إنسان ، إنه أرفع من أى عمل دنيوى آخر ؛ إلا أنه (مصداقاً لمنشدى بيوتيا العذاب) قد وضع قسراً فى المرتبة الثانية من حجة الحياة ، وقدمت أن أحيا الحياة كاملة فى عالم رغبى . وينبغى أن أعد دراسة تكملية لأدب الماضى حتى ألتخذها نموذجاً لى ، كما ينبغى أن أتأمل وألخص فى تفضيل التجمعات المختلفة للمادة التاريخية ، وأن أطلق ذهنى يتفرغ ويركز مجهوده لهذا النشاطات . وبدلاً من هذا وقعت فى العرفة من الصباح حتى المساء الذى أكتب موجزات لأحصر لها وأوراق لأعد لها . وإننى حانق على الموكلين الذين يزعجونى ، كما أننى أحس بالدهشة عندما لا يزعجونى بدرجة كافية ، لأننى لست قادراً على أن أكسب قوت يومى دون متاعٍ وعناء . وأيما كان الأمر ، فهما كانت المعركة شاقة فسوف لا أكف عن العناء الذهنى طالما كان اتعالى يعضدنى ، أيا كان من المستغرب أن تهدف للارتفاع جداً (أو أن تسعى لتجد مكاناً فى وعاء الفخار) . وقد يكتب النقاد عن عملى أنه جنين عقل كاذب وغير ممكن إدراكه وحائر بفعل شتات مصالح كبيرة ، إلا أننى آمل على الأقل

في أن أكون واحداً من المشددين غير الموسيقيين الذين يقدمون متعة مركزة لأنفسهم .
أيما كان الأمر ، فقد حان الوقت أن أرجع إلى روايتي ، لأنه إذا ما انغمست في
انحراف أبعد فقد أتهم في ارتكاب ذنب لا يطاق .

ميناندر الديدبان *

Menander the Guardsman

(عرف في النصف الأخير من القرن السادس بعد المسيح)

تاريخ عصره

(نص تويينتر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف المجلد ٢
صفحة ١)

لم يتمتع أبي ، « يوفراتيس » Euphrates ، كان مواطناً بيزنطياً ،
بميزة التعليم العالي ، أما أخى « هيرودوت » فقد اضطر ، عندما تذوق التعليم
القانونى في البداية ، إلى الثورة ضد المستقبل القانونى . ولم يسمح لى وعيى الذاتى أن
أهجر القانون حتى أتمت دراستى ، وعلى هذا فقد أتمتها على أفضل ما أستطيع ،
إلا أننى لم أمارس العمل القانونى أبداً . ولم أجد العمل فى المحاكم من نوع واحد ،
وما زال فى الاتجاه المنتظم فى القاعات والمجهد الذى من شأنه أن يوجد تأثيراً
صالحاً على المتقاضين بالتألق الذهنى أقل مرتبة . وعلى هذا أهملت مستقبلى بسبب
مواصلة الاستهتار والتبذير بشكل كبير غير مرغوب فيه . لقد كان قلبى ينتظم فى
الفرق الملونة (١) ، واضطرابات السباق ومنظر الباليه . وقد دخلت الحلبة أيضاً ،
وقمت بجماقتى بصعوبة على الصخور حتى إننى نزعنت عنى معطى ، ومع ذوقى العام
وآداب الحياة .

* يعرف فى التاريخ المسيحى بميناندر العراف ، إذ قال إنه (المخلص) وإن الملائكة
خالقة العالم (المترجم) .

(١) هما الفريقان (الأزرق والأخضر) اللذان يؤيدان الحيل المختلفة فى السباق ، وكانا
منظمين يأتقان حتى لهما أصبحا ، فى القرن السادس بعد المسيح قوة سياسية فى القسطنطينية
(المحقق) .

وقد استمر هذا حتى تقلد « موريس » Maurice التاج الإمبراطورى ، الذى لم يظهر قلقاً وراثياً فحسب إزاء رعاياه ، واكثره كان أيضاً محباً للأدب ، وقارئاً غيوراً للشعر والتاريخ لدرجة أنه اعتاد أن يقضى الجزء الأكبر من المساء فى متابعة هذه المتعة ، وبالتالي يشجع الأذهان المترخية ويثيرها بمشغلات مالية . وفى ذلك الوقت اضطررتنى ضيق المؤلم للوسائل غير الكافية ، والتي كانت عقوبة لانجرافى فى الخيال ، اضطررتنى إلى أن أضع فى اعتبارى أيضاً تذبذبات الذى لا طائل تحته . وعلى هذا قررت أن أضع هدفاً للحياة بتحويل طاقتى الى العمل الراهن الذى اتخذت فيه وفاة سلفى « أجاثياس » استهلالاً لتاريخى . .

وقد أقت آمالى فى النجاح على أهمية موضوعى أكثر من امتياز أسلوبى ، لأنه لا يمكننى أن أبلغ ، بشكل معقول ، ذلك المستوى من الثقافة الذى يبرر تعرضى للتأليف الأدبى ، واضعاً فى اعتبارى الحياة التى لا أهمية لها والمضطربة التى عشتها حتى الآن .

ثيو فيلاكتوس سيموكاتا^(١) المصرى

Theophylactus Simocatta The Egyptian

(٥٦٠ - ٦٣٠ م)

التاريخ الكونى : حوار بين الفلسفة والتاريخ

(نص توينر تحقيق ك . دى بور C. de Boor)

الفلسفة : ما هذا يا بنى ؟ هلا حللت لى هذه المشكلة التى أتطلع لمعرفة سرها ، بخيط ذهبي من ضوء الحقيقة يرشدنى خلال البعد عن المتاهة الخرافية . إننى لأجد تناول التأملات بالغ الصعوبة فى تداوله .

(١) معناه (القبط أفطس الأنف) — المحقق .

التاريخ : أيتها الفلسفة ، يا مليكة الكون ، إذا ما كان يصح حقيقة أن أكون معلماً لك ، وتكونين تلميذة لي ، لأجبت بقدر ما يسمح به ذكائي . إنني أتفق مع فيلسوف برقة^(١) Cyrene في رغبتى ألا أجهل شيئاً تجدر معرفته .

الفلسفة : أود أن أسألك يا بنى ، ما هى الوسائل بالتحديد التى جلبت بها الحياة للأمس وأول من أمس ، إلا أن عباراتى تتعثر مرة أخرى ، وكما لو كان العنان يلزمنى الصمت ، معتقدة بأن الرغبات يغمرها الحياء . هل ضللتنى خدعة مشعوذة ؟ يا طفلى ، لقد مت لأمد طويل - منذ أن تم غزو البلاط الإمبراطورى على يدي الطاغية الكاليدونى^(٢) Calydonian المكتسى بالفولاذ ، وشبيه الغول المتوحش الكوكلوبس Cyclops والكنثور Centaur الذى لوث جلال رداء الإمبراطور وخط من شأن التاج الإمبراطورى لقاء جائزة من الدعارة . وأنا لا أستطيع أن أذكر جرائمه الأخرى إذا ما أنا راعيت وقار القارىء وكرامته . وبهذا الصدد نفسه ، فقد كنت أيضاً قد أقصيت عن النطاق الإمبراطورى ولم أجد مأوى فى أتيكا ، حيث كان سيدي سقراط قد أعدمه « أنيتوس التراقى » The Thracian Anytus . وفى الوقت المناسب جاء « بنو هرقل »^(٣) بالخلاص ، وأعادوا الدستور وطهروا القصر من الدنس ، وأعادونى مرة أخرى فى النهاية إلى الأراضى الإمبراطورية . وتردد صدى صوتى فى الأماكن الإمبراطورية كما لو كنت ألحن اللحن الأتيكى القديم . كما هو الحال الآن ، ولكن ، يا بنى ، كيف تم إنقاذك ، وعلى أيدي من ؟ .

التاريخ : أيتها الملكة ، ألا تعرفين الكاهن الأعلى العظيم وسيد المعمورة بأسرها^(٤) ؟

(١) ربما كان أرسطوبس أو كاليماخوس — المحقق .

(٢) هو الإمبراطور فوكاس الذى حكم من ٦٠٢ — ٦١٠ م (المحقق)

* (أصحاب العين المستديرة) عمالقة متوحشون يأكلون لحوم البشر (المترجم)

(٣) المقصود هرقل وأسرته التى أطاحت بفوكاس وذريته (المحقق) .

(٤) بطريك القسطنطينية (سرجيوس) المحقق .

الفلسفة : لماذا يا بني ، إنه من أقدم أصدقائي وذخري الخاص .

التاريخ : إذن أيتها الملكة، قد وجدت بنفسك الرد على تساؤلك. إنه هو الذى رفعتني من مقبرة الجهالة ودفنتني في أنفاس الحياة. لقد كنت كالمملكة الكستيس Alcestis وأعادتني هو بكل حماية هرقل . وبكرم الأمراء أخذني إلى منزله وألبسني ملابس زاهية وزيني بعقد من ذهب . وهذه النسريحة التي تزينها قد رشق عليها جندياً ذهبياً^(١) ، قد ألبسني إياه المحسن العجيب ، والذي جعلني أشع بوهج عقلي الراهن ، وقدم لي منبر خطابة شيد عن طيب خاطر لاستمهالي الخاص ، وأطلق لي حرية قول الحق دون خوف من الأخطار .

الفلسفة : يا بني .. إنني أجل الرئيس النبيل لشهامته التي أبدتها . ما أصعب مرتقى الأعمال الذي تسلقه ، حتى احتل مكانه على قمة اللاهوت الشاهقة وأقام مأواه على سمت الفضائل . إلا أنه لم يحتمق النجاحات الضئيلة . وقد كرس حياته إلى أسمى النشاطات الذهنية ، لأنه لا يمكن أن يتحمل أن يبقى هذا العالم الأرضي في فوضى . فهل يوليني كل أحبائي ثقتهم كما يفعل هو . بكل تأكيد ، فإن الفكر إذا لم يكن قد تفلسف على الأرض في شكل غير هيولي ، لأصبح متجسداً وعاش شديداً بالإنسان بين الناس .

التاريخ : يا مليكتي ، ما أجمل نسج إكليل ثنائك ، ولكن إذا ما تفضلت ، هلا جلست قليلاً تحت جذع هذه الشجرة الفارعة ؟ إذ أن فروعها تنتشر بشكل جذاب ، وارتفاع شجرة الصفصاف وظلالها هذه لجديرة بالإعجاب أيضاً^(٢) .

الفلسفة : فلتبدأ الطريق يا بني ، وقدم للقارىء الحالى مقدمة كنقطة بدء للرواية . وسوف أمتحك فكري كأى ملك من (إثاكا) Ithaka وسوف لا أصم أذني، وإنما سوف أصغى لصوتك الفاتن وأنت تحكي قصتك .

(١) إشارة لا معنى لها إلى عبارة في مقدمة توكوتيدس (المحقق) .

(٢) تنويه ساذج بمجاورات أفلاطون (المحقق) .

التاريخ : أيتها الملكة ، سوف أطعمك وسوف أهرز قيثارة التاريخ . ولتتنازلي فتصبحين قوساً لي - أكثر الأقواس الموسيقية في أى قيثارة . إنك محيط معرفة ومنهل فصاحة . فيك تكمن كل نعمة (كجزيرة محاطة ببحر لا نهائى) .

التاريخ الكونى مقدمة

(نص توينر تحقيق ك. دى بور . الكتاب الأول)

كان من اللائق أن يتحلى الإنسان باكتشافاته تماماً كما يتحلى بهيات الطبيعة لأن بقاءها معه هو المبدأ الإلهى العجيب للعقل . إذ أنه تعلم من العقل أن يبجل الله ويعبده ويتأمل التأملات المرئية من الطبيعة التى حوله ، وقد نزع جهالته عن تركيبه البدنى . وبالعقل يتعايش الإنسان مع الآخر ، وينفذ من السطح الخارجى إلى العقل الداخلى ، ويكشف أسرار وجودهم . وقد أمطر العقل نعماً لا حصر لها على الناس وهو مساعد عظيم إلى جانب الطبيعة . فإن ما لم تفعله الطبيعة ، أكمله العقل حتى تمامه -- فيجعل الأشياء بهجة للناظرين ، ويجعل الشئ حلو المذاق ، ويرقق ملمسه أو يخشنه ، ويجعل أموراً أخرى متجانسة للأذن ، ويخلب النفس ويجذب اثباها بسحر النغم . أليس هو العقل أيضاً الذى له حق الإدعاء بأنه خالق الفنون ؟ فمن الصوف نسج أقمشة الملابس ، ومن الخشب صنع النجار مقبض الفأس ، ومجداف البحار وترس الجندى والدرقة وهى خير معين له فى الحرب . وأكثر أهمية من هذا ، فقد نظم العقل التباين الذى لا حدود له فى التاريخ حتى يبهج القارىء ويثقف النفس . وكى تسبرغور النفوس ، ليس هناك أكثر جاذبية من التاريخ ، كما هو واضح بما فيه الكفاية بالرواية الواردة فى أوراق هومر .

لقد استمتع ابن « لاثر تيس » Laertes بالضيافة فى بلاط الملك « انكينوس » Alcinous بعد أن ألقته به أمواج البحر أخيراً على الشاطئ ، وقد غمر « أوديسيوس »

Odysseus بالشفقة . لقد قدم لضحية السفينة المحطمة الصارى ملابس مشرفة ليضعها على خصره ، وكان ضيف الشرف على المائدة الملكية ، وقد وهب الغريب حرية الحديث وحرية إنهاء روايته . وابتهج الفياكيون * من دراسة التاريخ حتى إنهم طردوا الذين كانوا يهتفون ، وغيروا شكل المأدبة في المسرح ، وتفتحت آذانهم وحملقوا فاغرين أفواههم للراوى دون أن يملوا طول الرواية — هذا على الرغم من أن غالبية الحوادث كانت تجعلهم يفضون بأبصارهم ، إذ أن المجموعة قد اهتزت للمغامرات الخطرة حتى عاشوها مرة أخرى .

والعقل البشرى بهم لا يشبع عندما يولم إلى حكايات شاذة ، وهذا يوضح لماذا كان الشعراء أول من أحرز هيبة كقوة تربوية . فقد وجد الشعراء نفوس الرجال فضولية وتواقة إلى أن تتعلم متمطشة دائماً إلى القصص الغريبة ، واخترعوا الرواية لصالحهم ، وكسوا مادتهم بالأسلوب ، وغطوا كاذبيهم بالقافية ، وانطلقوا في شعوذتهم بالبحر السحري . وكانت هذه هي قوتهم في سحرهم حتى إن الناس اعتبروهم لاهوتيين .

وكان من المعتقد أن الآلهة تزورهم ، وأنها تفضح أسرار قلوبهم عن طريق شفاه الشعراء التي تروى الكوارث التي وقعت في حياتهم . ولهذا سوف نجد التاريخ هو المعلم العالمى للجنس البشرى ، يطرح أمامنا ما ينبغى أن نفعل وما ينبغى أن نتجنب طالما كان من غير المحتمل أن ينجح . ومن الواضح أن استشارات التاريخ تعطى الجنود التمرس في فهمهم ، طالما يعرفون كيف يظهرون قواهم وكيف يراوغون العدو (بحيل الحرب) وتجعلهم يتوقعون مقدماً كوارث الآخرين وذلك بمعرفة أخطاء أسلافهم ، بينما تريد من فلاحهم في حالة النجاح وإقامة قم شاهقة لأعمال عظيمة من بدايات صغيرة .

* الفياكيون شعب بحارة ، كان ملكهم يسمى الكينوس . وله ابنة تسمى (ناوسيك) وجدت أوديسيوس عريانا ، وطلبت منه أن يتبعها حتى أبواب المدينة ، وأخذ أوديسيوس يقص على مسامع الملك مغامراته إبان رحلته ثم يعود إلى جزيرة إيثاكا (المترجم)

وهو بالنسبة للمسنين ممرض ومزمار سليم ، وللشباب معلم فائق الذكاء يدير رءوسهم بخبرة المشيب . وهكذا يسهم بالمعرفة التدريجية التي تأتي مع الزمن . ولقد قررت أن ألقى بنفسى فى أحضانه ، حتى ولو كان المشروع فوق طاقتى بسبب خشونة أسلوبى ، وسخافة أفكارى ، وارتباك تعبيرى وعدم مهارة تأليفى . وإذا ما وجد أى قارئ هنا وهناك لسة من غبطة فى روايتى ، فينبغى أن يرجع هذا للصدفة ، لأنها بكل تأكيد لا تعزى إلى كفاية الكاتب .

الجزء الثاني
فلسفة التاريخ

القسم الأول - التقاب

أوراق ورجال

(هوميروس : نص أ كسفورد : الإلياذة، الكتاب السادس الأبيات ١٤٦-١٤٩)

انظروا إلى ورق الشجر ، فالناس هكذا ،
والأوراق عندما تذروها الرياح في دوامة التراب
سرعان ما تفرخ الغابة الخضراء ملايين جديدة ،
ثم انظروا ، جمال الربيع على العالم
يجيء ويمضي : وهكذا سائر بني الإنسان

جلبرت موري

الفناء

(هيرودوت : الكتاب السابع : الفصول ٤٤ - ٤٦)

حينما وصلوا إلى (أبيدوس)^(١) Abydos ، رغب « كسر كسيس » Xerxes
في أن يستعرض جيشه . وقد شيدت منصة للمراقبة من المرمر مقدماً على ربوة
في المكان المجاور^(٢) ، ومن هذه النقطة التي أشرفت على منظر الشاطئ ،
استعرض « كسر كسيس » القوات البرية والأسطول . وبينما هو يستعرضها ،
راودته الرغبة في مشاهدة مناورات بحرية ، وحين أجريت هذه المناورات وانتصر
الفينيقيون من (صيدا) Sidon ، ابتهج بالمناورات وبالحملة بأسرها . وحين رأى
أن سطح الدردنيل Dardanelles يغطيه الأسطول ، وأن سائر رءوس الأراضي

(١) هي المدينة التي تسيطر على مضائق الدردنيل على الجانب الآسيوي (المحقق)

(٢) شيدها شعب أبيدوس بناء على أمر سابق من الملك (المؤلف) .

الناتئة في البحر والأغوار في منطقة أبيدوس تموج بالقوات، أسرع « كسر كسيس »
بتهمئة نفسه ، ولكنه بكى بعدها . ولاحظ خاله « أرتابانوس » Artabanus
دموعه ، وكان خاله قد عبر عن رأيه أصلاً بشكل صريح في غير صالح الحملة
ضد هيلاس .

أما وقد رأى أن « كسر كسيس » ينخرط في البكاء فقد حسب « ارتابانوس »
أن فرصته قد وافته فقال ؛ « مولاي ، ثمة تناقض شاذ في سلوكك الآن ومنذ
لحظة خلت ، لقد هنأت نفسك في بداية الأمر وبعدئذ تبكى . » فأجاب كسر كسيس ،
« لقد أذهلتني الشفقة إزاء فكرة قصر الحياة الإنسانية بأسرها ، وعند ما تحققت
من ذلك ، فمن بين هذه الجموع كلها ، ليس هناك فرد واحد سيمظل على قيد الحياة
من بعد مائة سنة منذ الآن . »

وأجاب أرتابانوس « لدينا في الحياة خبرات أخرى تدعو للثناء أكثر من
ذلك . إذ أن مدة حياتنا قصيرة حقاً كما تقول ، ومع هذا فليس هناك فرد واحد ،
سواء في هذا الجيش أو في العالم ، يكون سعيداً بصورة طبيعية حتى إنه في فترة قصيرة
كهذه ، لا يجد نفسه راعباً ، لامرّة واحدة بل عدة مرات أكثر ، في أن يموت ولا
يحيا . إن ضربات المصائب ، وتخریب المرض جعلت الحياة القصيرة تبدو طويلة ،
وعلى هذا يأتي الموت إكراماً مباركاً للإنسان من الوجود الشرير ، بينما يعتبر الرب
أنه إله غيور في معاملته للإنسان عن طريق تذوق حلاوة الحياة التي يضمن
بها عليه . »

الكارثة الأثينية في صقلية

(٤١٦ - ٤١٣ ق . م)

(ثوكوديدس : الكتاب السادس : الفصول ٢٤ - ٢٦ و ٣٠ - ٣٢ .

الكتاب السابع ، الفصول ٤٣ - ٤٤ و ٨٤ - ٨٧)

القرار

قدر « نيكياس » Nicias في خطابه متطلبات الحملة برقم كبير ، معتقداً أنه
بذلك إما أن يعوق الأثينيين نهائياً عن الحملة أو أن ينجح على أية حال في تقليل

الخطر إلى أدنى حد إذا ما اضطر للقيام بالحملة . وأيما كان الأمر ، فلم يكن التسليح المطلوب ليثنى الأثينيين عن رغبتهم في الحملة ، إذ أنهم شعروا بياث أقوى من أي وقت آخر . وكانت نتيجة حديث « نيكياس » عكس ما يريد تماماً . إذ أن نصيحته قد أخذت على أنها نوفر هامشاً فسيحاً بضمن سلامة الحملة .

واستحوذت على الجميع دون استثناء عاطفة صادقة إزاء المغامرة . فاعتقد الرجال المسمون أنهم إما أن يهزموا معارضيتهم وإما على أسوأ الفروض ، يظل جزء من هذه القوى بمنأى من الكارثة ، أما الرجال في سن الجندية فيدفعهم الشوق إلى رؤية أراضى غريبة وإلى دراستها ، وهم على يقين من أنهم سوف يعودون في أمان . بينما تطلعت الجماهير^(١) والجنود المخنثون إلى اكتساب المال في المستقبل القريب وإلى اكتساب أراضى جديدة ومنها تتدفق الضرائب بشكل دائم . إن رغبة الأغلبية المفرطة قلت من الانشاقات الفردية التي تدعو إلى السلبية ، خوفاً من أن ينظر إليهم على أنهم غير وطنيين إذا ما أدلوا بصوت معارض . وترتب على هذا ، أن ثار عضو معين بعترض على « نيكياس » بسبب مراوغاته والتأجيلات غير الجائزة ، ودعاه إلى أن يعلن مرة وأمام الجميع في هذه الجمعية من بنى وطنه ، أى تسليح ينبغى على البلاد أن تصوت لنيكياس من أجله . وأجاب « نيكياس » ، على مضض ، بأن ذلك الموضوع في حاجة إلى مشاورات أكثر مع زملائه وإلى متسع من الوقت ، وكان تقديره الأولى للقوات المطلوبة لا يقل عن مائة سفينة حربية (حتى يتقرر فيما بعد رقم السفن الأثينية الصالحة فعلاً للاستخدام في النقل ، على أن تجاب البقية من الحلفاء) ، ويبلغ أقل مجموع للرجال خمسة آلاف أثيني ، وقوة من المشاة المتحالفة التي ينبغى زيادتها ، إذا كان ذلك في الإمكان . أما بقية القوة الحربية التي تزود الحملة ، وتشتمل على رماة المقلاع والنبال وهم من الوطنيين والكريتيين وأي سلاح آخر يلزم للحملة ، ينبغى أن يكون بقدر مناسب ولم يكذب ينهى من الحديث حتى صوتت الجمعية على إعطاء الجنرالات سلطة مطلقة ،

(١) الذين عملوا كجند في الأسطول (المحقق) .

وتفويضهم: حق إقرار قوة القوات وكافة تفاصيل الحملة مع حرية التصرف. وبدأت الاستعدادات منذ هذا الوقت ، وطلبت الاستعدادات من الحلفاء ، وقد سجلت الفصائل في أثينا . وكانت البلاد قد شفيت لتوها من الطاعون والحرب الدائمة ، واستمدت الهدنة قوتها البشرية من جيل جديد ؛ وتوافر احتياطي في الخزانة ، وعلى هذا كانت هناك صعوبة قليلة في الطرق والوسائل .

الانطلاق

كان الوقت صيفاً عندما أبحرت الحملة إلى صقلية . وقد حددت مواعيد غالبية القوات المتحالفة، وسفن الحنطة ، والتجار وبقية الأسطول الصغير، منذ تاريخ مبكر في (كورفو) Corfu ، بهدف أن يعبر الأسطول كله البحر الأدرياتيكي من تلك النقطة عند عقب إيطاليا في قافلة واحدة . وقد توجه الأثينيون أنفسهم وسائر الأمم المتحالفة التي تصادف وجودها في أثينا ، إلى (بيرايوس) في اليوم المحدد ، وشرعوا في إعداد سفنهم للرحلة . وقد صحبهم إلى الميناء سائر سكان المدينة فعلا ، سواء المواطنين أو الأجانب . فقد كان المواطنون يودعون أصدقاءهم وأقاربهم وأبناءهم حسبما يقضى الحال ، بمزيج من إحساسات الأمل والأسف — الأمل في الانتصار الذي ينبغي أن يحرزوه، والأسف بفعل أفكار تراودهم بأنهم قد لا يرون أصدقاءهم مرة أخرى ، واضعين في اعتبارهم بعد الشقة بين موطنهم والأهداف التي يقصدون إليها . وعند هذا الحد ، حين أشرفوا على الرحيل من هدف إلى هدف آخر في ظروف خطيرة ، تحققوا من الأخطار التي برزت بشكل أكثر مما كانت عليه في الوقت الذي صوتوا فيه للحملة . وأيما كان الأمر ، فإن ما شاهدوه بأعينهم قد شجعهم ، حينما رأوا قوة الحملة في مجموعها وتفصيلها . أما بالنسبة للأجانب وبقية الحشود فقد جاءوا يتفرجون على ما يمكن اعتباره تماماً مشروعاً مفروضاً وشاذاً ؛ لأن هذا الأسطول كان أكثر الأساطيل الهلينية إسرافاً ونخامة من القوات التي سبقته حتى ذلك الحين ، والتي تبخر من سواحل بلد واحد . والحملة والتي أبحرت مع « بركايس » إلى (أبيداروس) Epidaurus وبمدها مع

«هاجنون» Hagnon إلى (بوتيدايا)^(١) Potidaea ، لم تكن أقل من الحملة الحالية بما فيها من مراكب وفصائل. لقد اشتملت على أربعة آلاف من مشاة الوطنيين الأثينيين ومعهم ثلاثمائة فارس ، ومائة سفينة حربية ، وخمسون سفينة حربية لسببانية وحيثينية وقوات متحالفة إضافية كبيرة . وأما كان الأمر ، فقد كانت أهدافهم قريبة المنال وأجهزتهم ضعيفة ، بينما كان من المتوقع أن يعمل الأسطول الحربى الحالى طويلاً ، وعلى هذا زودت الحملة بكل المتطلبات من الأسلحة اللازمة لسكافة عمليات الفرق . لقد أصبح الأسطول كاملاً بتكاليف باهظة بالنسبة إلى الربابنة^(٢) والدولة على السواء . وقدمت الخزينة إلى كل بحار (دراخما) إضافية يومياً ، وأمدت السفن — وهى ستون سفينة كبيرة وأربعون ناقلة ببجارة مختارين وأعطى الربابنة أجوراً إضافية من الدرجة الأولى للبحارة العاديين علاوة على الأجر الرسمى^(٣) ، وزودت السفن بشعارات ومعدات باهظة ، ولم يدخروا وسماً فى أية لحظة فى أن يعملوا سفنهم تفوق سائر السفن الأخرى سرعة وخفة . وقد اختبرت القوات البرية بعملية دقيقة ، وكانت هناك منافسة بين الأفراد فى شؤون الأسلحة والمعدات . وقد سادت روح المنافسة بين الفصائل نفسها فى أعمال كل منها ، واعتبرت الحملة بمثابة عملية استعراض لقوة أثينا وسلطانها ولصالح بقية هيلاس أكثر منها عملية حربية . ومجموع المبالغ التى صدرت عن أثينا فى هذه المناسبة تصل إلى رقم هلفت للنظر إذا ما أخذت إحصائية لنفقات الدولة العامة ونفقات خدمات الأفراد الخاصة ، وتشتمل النفقات العامة على الصندوق الحربى للقيادة العليا ، كما تشتمل على المصروفات التمهيدية ، بينما من المفروض أن تشتمل النفقات الخاصة على ثمن اللوازم الشخصية (وفى حالة القباطنة ، تشتمل على ثمن ماصرفوه بالفعل ،

(١) فى ربيع وصيف عام ٤٣٠ ق : م على التوالي (المحقق) .

(٢) لا يشرف ربابنة السفن الحربية الأثينية عليها عادة عندماتكون فى مهمة ، وكانوا طرازاً خاصاً من المواطنين يجهزون السفن ويدفعون للبحارة من جيوبهم الخاصة كنوع من الضريبة الإضافية (المحقق) .

(٣) كانت الدرجة الأولى من البحارة تتكون من الأثينيين عادة ، أما الدرجات الأدنى فهى من الأجانب المقيمين (المحقق) .

والمقرر صرفه بعد ذلك على سفنهم) ، وثمان المخازن أيضاً . انتظاراً لاستمرار الحملة فترة طويلة . ومن الطبيعي ، أن كل فرد سوف يزود نفسه بما يفوق مصروفه . إن الإحساس الذى خلقه الأسطول الحربى بفعل جسارته الهائلة ومظهره البراق ليس أقل من سيادة قواته الساحقة على العدو المرتقب ، وإنما يعزى أساساً إلى أن تلك الحملة كانت أعظم حملة وراء البحار عن أى حملة قاموا بها من قبل .

وبعد أن جهزت السفن وكافة المعدات التى عزموا على أخذها معهم فى نهاية الأمر على ظهر السفن ، ترددت صيحة السكينة فى البوق والصلوات المألوفة قبل إلقاء المرساة — لا فى كل سفينة على حدة ، وإنما فيها جميعاً كوحدة واحدة ، بقيادة المنادى . وامتلات^(١) الكئوس من أقصى الأسطول الحربى إلى أقصاه ، وانسكب الفبيذ من الأقداح الذهبية والفضية بواسطة الجنود^(٢) والضباط . وصلى الحشد على الشاطئ ، وانضم إليه المواطنون مع متفرجين أجانب . وبعدها أديت التحية العسكرية ، وتبعها الشعائر الدينية ، ورفعت المراسى ، وسارت السفن فى خط عمودى تجاه جزيرة (أيجينا) Aegina حيث انطلقت بأقصى سرعة إلى (كورفو) التى كانت بمثابة (الميعاد) لبقية الأسطول الصغير .

الهجوم الأخير .

قرر « ديموستينيس^(٣) » Demosthenes أنه من المستحيل الإقتراب من

(١) المعنى الحرفى « امتزجت » لأن الهيلينيين اعتادوا أن يمزجوا النبيذ بالماء كما فعل فى المشروبات الروحية (المحقق) ،

(٢) كان المشاة الراقين قد نقلوا على السفن الحربية التى تتبع طبقة أكثر ثراء من البحارة (المحقق) ،

(٣) القائد الأثينى الثانى ، الذى كان قد وصل بالإمدادات إلى نيكياس عندما شارف حصار سيراقوزه على الفشل من جانب قوات الحملة الأصلية . أما المرتفعات التى كان ديموستينيس يصدد الاستيلاء عليها فتشرف على سيراقوزه بنفس الطريقة التى تسيطر بها مرتفعات أبراهام على كوبيك (المحقق) .

(المرتفعات) وتسلقها في ضوء النهار دون أن يراهم أحد . وعلى هذا أصدر أوامره بأن تقدم الجراية إلى الفصائل طيلة خمسة أيام ، وأغرق كافة المهندسين بإمدادات الذخيرة والمواد المطلوبة لتحصين وضع جديد في حالة النجاح ، واستعرض الجيش كله في الساعات الأولى من الليل تحت قيادته . مع «يورميدون» Eurymedon و«ميناندر» باعتبارهما زميليه ، وتقدم نحو المرتفعات ، وبقي «نيكياس» في الاحتياطى داخل الخطوط الأثينية . وضربوا المرتفعات عند «يوريلوس» Euryelus ، حيث كانت الطلائع الأولى للحملة قد تسلقها أصلا ، وأخذوا حراس (سيرا كوزه) على غرة ، وهاجموا المركز السيرا كوزى المقام عند هذه الحدود واستولوا عليه وتسببوا في مقتل عدد من رجال الحامية وأيما كان الأمر فإن غالبية الحامية تشتت على الفور في اتجاه محطات الجند الثلاث التي أقيمت على المرتفعات في معقل الخط الرئيسى . والتي أقيمت على التوالى على أيدي السيرا كوزيين والهلينيين الصقليين الآخرين وحلفائهم غير الصقليين . وجلب الهاربون معلومات عن الهجوم معهم وأبلغوها إلى الفصائل السيرا كوزية الستمائة التي كانت في الخطوط الأولى على هذا القطاع من المرتفعات . وتحركت هذه الفصائل إلى الأمام على الفور وهي مدعمة ، ولكن رجال «ديموستينيس» والأثينيون تصدوا لها واضطروها إلى التراجع بعد أن أبدت مقاومة شديدة . وواصل الأثينيون تقدمهم على الفور ، كي ينطلقوا إلى أهدافهم قبل أن تنبدد الرغبة في الاندفاع ، بينما وزعت بعض الفرق الأخرى لهذا الغرض عندما بدأ الهجوم الأول وبدأوا في الاستيلاء على القوة المعترضة التي أقامها السيرا كوزيون من قبل وأوقعوا فيها الاضطراب ، وهي الحامية التي فشلت في أن تحافظ على قاعدتها، وعندئذ بدأ السيرا كوزيون وحلفائهم والقوة التي يقودها «جليبوس»^(١) Gylippus في الحركة قدماً معززين من مخافهم ،

(١) المقيم العسكرى الإسبرطى في سيرا كوزة والذي أيقظ الموقف (المحقق) .

إلا أن جسارة هجوم الليل قد أخذتهم على غرة ، لقد كانوا في حالة من الهلع عندما اصطدموا بالأثينيين ، وكانوا في بداية الأمر قد فاقوهم قوة واضطروهم إلى التراجع . وأيما كان الأمر ، ففي خلال تقدمهم ، كان الأثينيون يهجرون مؤسساتهم ، فمن ناحية ، على افتراض أنهم قد كسبوا المعركة فعلا ، ومن ناحية أخرى يبذلون جهداً في التخلص بأسرع ما يمكن من سائر قوات العدو التي لم تكن قد اشتركت في المعركة بعد والتي قد تجد فرصة لتعيد تشكيلها إذا ما كان هناك أى تراخ في الهجوم الأثيني . وعند هذه اللحظة الحرجة قام البيوتيون في بادئ الأمر بصد تقدم الأثينيين ؛ وواجهوا هجوماً مضاداً ، وأجبروهم على التراجع ، وعادوا أدراجهم مهزومين .

وعندما حدث هذا ، اختل نظام الأثينيين كلى الاختلال وفقدوا صوابهم إلى درجة أنه لم يكن من السهل أن تحصل على رواية متكاملة لما حدث بعد ذلك من الجانبين . حتى في العمليات التي تمت نهائياً ، وهي أقل بلبلة ، فإن الأفراد المقاتلين وجدوا أنه من الصعوبة أن يواصلوا تقدماً عاماً للعمل فيما وراء قطاعهم الخاص ، وعلى هذا فمن الصعب أن نتوقع معلومات محددة من جانب المشتركين في عمليات المساء فقط في الحرب الأخيرة والتي استخدمت فيها قوات لا بأس بها . وعلى الرغم من ضوء القمر الساطع ، فلم تكن هناك سوى إمكانية الرؤية على مستوى منخفض وهي من خصائص ضوء القمر ، وتمكن العين من أن تميز هيئة الإنسان عندما يدخل في نطاق الرؤية ولا تمكن من تمييز العدو من الصديق . إن جماهير جنود المشاة التي تنتمي إلى كلا الجيشين كانت تقوم بمناوراتها في مكان محصور ، واستسلمت بعض الفصائل الأثينية بالفعل ، بينما كانت القوات الأخرى تتقدم ظافرة في الإندفاع الأول من هجومها . وكان قسم لا بأس به من الاحتياطى الأثيني يتسلق أو في سبيل أن يتسلق المرتفعات ، ولهذا لم يعرفوا أية نقاط يتخذونها كأهداف لهم . ومن لحظة بدء الانهزام ، فقدت القوات في الجبهة أنظمتها تماماً ، وجعلت الضجة من الصعب أن تميز الصديق من العدو . وكان

السيراكوزيون وحلفاؤهم يهتف^(١) الواحد منهم للآخر حتى يتابعوا انتصارهم ، بينما يقاتلون كل من يصطدم بخطوطهم . وكان الأثينيون يحاولون أن يتصل الواحد منهم بالآخر ، وكانوا يعاملون كافة القوات التي تأتي من الاتجاه المعادي على أنها قوات معادية ، في حين أن قوات حليفة فعلا قد تكون متراجعة من المؤخرة . وكانوا دائماً يتحدثون أيضاً بعضهم البعض حول كلمة السر ، والتي كانت وسيلتهم الوحيدة التي يتحقق بها الواحد من شخصية الآخر ، وكان من شأنها أيضاً أن توقع صفوفهم في بلبلة عندما كانوا يواجهون بعضهم للمرة الأولى . وتصادف أن أدى هذا إلى أن انتقلت كلمة سر أثينا إلى العدو بينما لم يكن من السهل على الأثينيين أن يكتشفوا كلمة سر أعدائهم ، لأنهم أبقوا على تشكيلهم كمنحصرين ، وعلى هذا كانوا قادرين على أن يتحقق الواحد من الآخر بسهولة أكثر . وبالتالي ، عندما حاصروا جزءاً أضعف من العدو ، تمكن هذا الجزء من الهرب لأنه يعرف كلمة سر الأثينيين بينما حين فشل الأثينيون في أن يردوا على تحدى العدو ، أفنوا جميعاً . وأيما كان الأمر ، فقد قاسوا من الصباح أكثر من أى شيء آخر ، الأمر الذي أوجد اضطراباً في كلاجانبيين . وعندما تعالى صياح قوات الأرجيفين والكوريكوريين Corcyraeans وبعض الفرق الدورية^(٢) الأخرى التي عملت مع الأثينيين ، وقع الأثينيون في هلع ، وحدث الشيء نفسه بين صفوف العدو . وعندما حدث وفقد تنظيمهم ، اصطدم الأصدقاء وزملاؤهم بنى وطنهم الواحد مع الآخر في عدد من النقاط على الخط ، حتى إنهم في النهاية لم يفقدوا أعصابهم فحسب ، بل تضاربوا فعلا واستطاعوا أن ينفصلوا بصعوبة . ومات الكثيرون أثناء فرارهم من القوات المطاردة لهم ، وذلك بإلقاء أنفسهم من أعلى الصخور ، بسبب ضيق الطريق المنحدر من المرتفعات ،

(١) لم تكن ثمة وسيلة اتصالات عملية في الظلام (المؤلف) .

(٢) « الدورية » كان اسم مجموعة من الاجهات اليونانية في العالم الهليني ، التي قد تقابل بعض مجموعات (الرومانسية) و (التوتونية) في أوروبا الحديثة (الحق) .

وعلى الرغم من أن أغلبية انذين بقوا على قيد الحياة والذين وصلوا إلى السهل نجحوا في الهرب إلى المعسكر^(١) ، فقد ضل الطريق عدد معين من القادمين الجدد^(٢) ، وهاموا في البلد حتى طلع عليهم النهار ، وهاجمهم فرسان السيرا كوزيين وأفنؤهم .

الموقف الأخير

ومع عودة ضوء الشمس ، بدأ نيكياس يحرك قواته ، وهاجمه السيرا كوزيون وحلفاءؤهم ، وكما حدث من قبل ، هاجموا بوابل من سهم القذائف . واندفع الأثينيون إلى الأمام نحو نهر (أسيناروس) Assinarus ، من ناحية تحت تأثير وابل هجمات فرسان أقوياء تساندتم أسلحة أخرى ، وتوقعوا من وراء هذا الاندفاع بعض الراحة إذا ما نجحوا في عبور المجرى ، ومن ناحية ثانية تحت ضغط الإنهاك وتأثير العطش . وعندما وصلوا إلى الشاطئ ألقوا بأنفسهم فيه وانتهى كل نظام . وقرر كل جندي على حدة أن يكون أول من يعبر النهر ، في حين أن هجمات العدو جعلت العبور عسيراً تماماً . وقد أجبروا على أن يندفعوا على شكل كتلة متراكمة ، وتمثروا فداس الواحد على الآخر ، وقتل بعضهم للثو بأطراف أسلحتهم ، بينما توغل الآخرون وجرفهم التيار . واصطف السيرا كوزيون على الشاطئ المقابل للنهر وكان شديد الانحدار ، وأمطروا الأثينيين شواظا من نار ، وكان معظمهم يشرب بشراهة واصطدم الواحد بالآخر في قاع النهر المجوف . وجاء البلوبونيزيون واتخذوا مرا كز قريبة وبدأوا المذبحة ، ولا سيما أولئك الذين كانوا

(١) ولا سيما الفصائل التي تتبع في الأصل قوات الحملة ، والتي كانت تلم بالبطوغرافيا جيداً (المؤلف) .

(٢) أعضاء قوات حملة ديموسثينيس الثانية ، التي وصلت أخيراً فقط (المحقق) .

في النهر . وتلوثت المياه في لحظة ، ومع ذلك استمرت الأغلبية في شرب الماء ،
مؤخلة ودامية كما هي ، بل تقاتلوا أيضاً للوصول إليها . وبالتالي ، عندما تكومت
الجثث في النهر وقطعت القوات إلى أجزاء — الجزء الرئيسي في مجرى النهر ،
والفارين على أيدي الفرسان — واستسلم « نيكياس » شخصياً إلى « جيليبوس »
الذي وثق فيه أكثر مما فعل السيراكوزيون ، وتوسل إليه وإلى الأسبرطيين أن
يفعلوا ما يشاءون به شخصياً على أن يوقفوا المذبحة في رجاله . وبعد هذا ، أمر
« جيليبوس » بوجوب استسلام ذلك المركز ، والآن يخفى من كان قد بقى على قيد
الحياة وأخذوا أسرى وسجناء (وكانوا عدداً كبيراً) ، وكذلك الثلاثمائة رجل
الذين اقتحموا حصار الحرس أثناء الليل أسرتهم القوات التي أرسلت لتطاردهم .
ولم تكن نسبة القوة الأثينية التي جمعت كسجناء رسمياً كبيرة ، بينما كان عدد
أولئك الذين فروا كبيراً لدرجة أن صقلية امتلأت بهم ، فلم يصبحوا مسجونين
نتيجة الأسر الرسمي . وقد قتلت نسبة كبيرة فعلاً بشكل غير رسمي ، ولم تزد
الأشلاء المرعبة زيادة كبيرة كهذه في أية مناسبة أخرى في الحروب الأخيرة . وقد
قتلت أعداد لا بأس بها من قبل في الحملات الدائمة التي صاحبت مسير الحملة .
وعلى أية حال ، فقد نجح الكثيرون في النجاة بأنفسهم — وقد نجح بعضهم فور
أن وقع في الرق ، وبعضهم بالفرار بعد ذلك . وكان من جراء هذه الأعمال
وجود مستشفى للمجازيب في (كاتانا) Catana .

وقد ركز الآن السيراكوزيون وحلفاؤهم قواتهم ، وأعدوها لقتل المواد
المستولى عليها وأكبر ما يمكن من الأسرى ، وكروا راجعين إلى المدينة . وقد أودع
جميع الأثينيين وحلفاؤهم المواطنين الذين وقعوا أسرى في المحاجر على اعتبار أنها
أسلم طريقة لدفعهم ، فيما عدا « نيكياس » و « ديموستينيس » اللذين أعدما — على
غير إرادة « جيليبوس » . وكان « جيليبوس » يرغب في إحضار قادة الأعداء إلى
إسبرطة على اعتبار أن هذا نصر شخصي له . على الرغم من أن أحدها وهو
« ديموستينيس » ، قد وضع ضمن مراتب أعظم أعداء إسبرطة بسبب أحداث

(بيلوس) Pylos وجزيرة (سفاكتيريا^(١)) Sphacteréa بينما اعتبر الآخر كواحد من أعظم أصدقائها . وكان هذا بفضل جهاد نيكياس في حض الأثينيين على السلام ، حتى إن الإسبرطيين الذين أسروا في الجزيرة ضمنوا إطلاق سراحهم . وفي مقابل هذه الخدمة تصرف الإسبرطيون بلطف مفر ، ويعود استسلامه ل « جيليبوس » لحد بعيد إلى ثقته في هذا الاعتبار . وأما كان الأمر ، فقد قيل إن بعض السيراكوزيين الذين كانوا على اتفاق معه ، خشوا أن يعترف تحت تأثير التعذيب . وهذه الاعترافات من شأنها أن تمكر صفوفهم ، بينما الآخرون ، وعلى الأخص ، الكورينثيون ، كانوا يخشون أن يستخدم ثروته في أن يشتري هروبه لقاء رشوة . وبعدئذ يكدر سلامهم مرة أخرى ، فحمت هذه الأطراف الحلفاء على أن يلتقوا حول الاتفاق على اعدامه ، وأصبح الدافع على الجريمة هو الأساس كما أوضحت . إنه آخر واحد من الجيل الهليني يستحق مثل هذا المصير ، واضعاً في اعتبارى الدقة التي انتظمت فيها حياته على أعلى المبادئ .

وقد عامل السيراكوزيون في البداية المسجونين معاملة بربرية . وعندما كانوا محشورين في بئر منجم ضيق ، ظلت الشمس والحرارة الخانقة تعذبهم في البداية ، وتعرضوا لها دون سقف يقيهم ، بينما هجمات ليالى الخريف الباردة ، مع تغير درجات حرارتها العنيفة ، اضررت أجهزتهم وتولد عنها المرض . واضطرتهم شدة الازدحام إلى أن يقضوا حاجاتهم في المسكان نفسه ، أما جثث الضحايا الذين ماتوا متأثرين بجراحهم وبتغير درجة الحرارة والأسباب الأخرى ، فقد تكومت جثة على جثة ، ونشأت رائحة كريهة لا تطاق . وبالإضافة إلى ذلك ، تضايقوا من عضة الجوع والعطش^(٢) ، ولم يفلتوا من أحد الآلام التي تنتج لا محالة من السجن في مثل هذا الفخ المميت . وكان عليهم أن يتحملوا هذه المعيشة إلى سبعين يوماً ، مكومين معاً

(١) حيث كان قد أسر قوة بليونيزيه عام ٢٥٤ ق. م . (المحقق) .

(٢) كان غذاؤهم اليومى لفترة تزيد على ثمانية شهور أقل من نصف (بنتو*) من الماء

والحبوب (المؤلف) .

* (البنتو ١٢٥ درهم) المترجم .

بشكل مختلط ، وسيقوا جميعاً في نهاية تلك الفترة إلى سوق النخاسة ، فيما عدا الأثينيين وهلينى صقلية وإيطاليا الذين انضموا إلى الحملة . ومن الصعب تقديم رقم دقيق عن مجموع عدد الأسرى إلا أنه لا يقل بالتأكيـد عن سبعة آلاف .

وهذه المأساة التي كانت أعظم مأساة حدثت في الحرب الأخيرة (وفي رأيي ، في سائر التاريخ الهليني المسجل) ، أضفت مجداً لا نظير له على الغزاة ، وجلبت كارثة لا مثيل لها أيضاً على المغلوب . لقد هزموا تماماً في كل طريق ، لم يكن هناك شيء في آلامهم على أصغر نطاق ، فالأسطول ، والجيش ، وكل شيء آخر اندثر تماماً بكل معاني هذه الكلمة ، وعادت قلة إلى مواطنها من ذلك العدد الكبير الذي غادرها .

عب مقدونيا

(بوليبيوس : الكتاب التاسع والعشرون ، الفصل ٢١)

لقد أعاد مصير مقدونيا بشكل قوى إلى ذهني كلمات « ديمتريوس الفاليري ^(٢) » Demétrius of Phalerum . ففي مؤلفه عن الحظ ، الذي كان يهدف فيه إلى أن يبين إلى زملائه بشكل لا لبس فيه تـقلب هذا المبدأ ، يقطع « ديمتريوس » روايته عن حقبة الإمبراطورية الفارسية التي أطاح بها الإسكندر ، ليسجل الملاحظات التالية :

ولست في حاجة ، حتى تتأكد من الطابع المحير للحظ ، إلى أن تأخذ في اعتبارك فترات كبيرة من الزمن تمتد إلى أجيال كثيرة . فإن نصف القرن الماضي يقدم مثلاً كافياً . فلنفترض أن قوة إلهية منذ خمسين عاماً مضت ، أنبأت الفرس وملاك فارس بالمستقبل ، وفعلت ذلك أيضاً للمقدونيين ومملك مقدونيا ، فهل نتصور أنهم في ذلك الحين كانوا يصدقون أن اسم فارس — وكانت وقتئذ

(١) فيلسوف وسياسي أثيني ، حكم أثينا لصالح مقدونيا من عام ٣١٧ — ٣٠٧

(المحقق) .

سيدة العمورة كلها — سوف يُلطخ تماماً ، وأن المقدونيين — ولم يكن اسمهم معروفاً من قبل ، — سوف يركع العالم تحت أقدامهم ؟ وأيما كان الأمر ، فإنني أعتقد ، أن هذه واحدة فقط من العلامات والعجائب التي يبين بها الحظ دائماً قوته للجنس البشرى ، إذ أنه عندما وضع مقدونيا مكان فارس القوية ، فهو يدلل بذلك على أنه عندما يقلد مقدونيا وسامات الإمبراطورية فإن هذا من أحكامه التي لا راد لها وتتفق مع حرية تصرفه .

وفي حالة « برسيسوس^(١) » Perseus فقد حدث هذا الطارىء فعلاً . وأثبتت عبارات « ديمتريوس » أنها موحى بها وكلمات أنبياء ، والآن ، وقد وصلت بي روايتي إلى تلك الحقبة التي أطيح فيها بملكة مقدونيا ، فإنني أشعر بصفتي أول شاهد للحادث ، بأنه سوف لا يكون لي عذر في أن أمر عليها دون أن أحدد المغزى ونسبته إلى ديمتريوس ، والأمر عندي أن في قوله تنبؤاً خارقاً للعادة . لقد توقع بدقة مسار الأحداث قبل قرن ونصف تقريباً .

عبء روما

(بوليبيوس : الكتاب السادس . الفصل ٥٧)

إن التفكك والتحول الذي يتعرض له كل شيء في العالم يمكن اعتباره في الحقيقة قضية منسلاً بها من حيث إنه وضع يتفق في ذاته مع وحدة الطبيعة . وأيما كان الأمر ، فهناك عمليتان ممكنتان قديمتان عن طريقهما تفكك أى شكل من أشكال الكومونولث — إحداها خارجية والآخرى داخلية ؛ وبينما تكون العملية الخارجية غير مطلوب دراستها عالمياً ، فإن العملية الداخلية تخضع لقوانين ثابتة . ولقد فرغت من وصف الأطوار المتتابعة للتطور السياسي ، والانتقال من طور إلى طور ،

(١) آخر ملوك مقدونيا الذي هزمته وغزاهه روما عام ١٦٨ ق. م. (المحقق) .

بما يكفي لتمكين القارىء ليستخلص الاستدلالات المنطقية من البحث الحالى بحيث يتوقع مستقبل نفسه . وفى رأى لا أن المستقبل واضح . ففى حالة أى كومونولث يصد ساسلة من الأخطار الحادة ، ومن ثم يبلغ إلى مركز من السيادة والتفوق لا منازع له ، فمن الجلى أن الفيض الغزير من الرخاء من شأنه أن يوجد مستوى معيشة أكثر بذخاً ، ويوجد منافسة حادة للغاية بين الأفراد من أجل المنصب ومظاهر طموح أخرى . وإذ تقوى مثل هذه الميول ، تبدأ عملية انحلال عن طريق التعطش إلى المنصب والسلوك فى حياة لا ميزة لها ، كما هو الأمر فى مظهر الغرور والبذخ فى مستوى المعيشة . ويقع عبء هذا التحول على الجماهير ، عندما تمتلىء شعوراً بالظلم من جراء الجشع المادى لدى بعض ساداتهم ، وعندما تغشاهم خيلاء زائفة من جراء عدم إخلاص الآخرين طمعاً فى مستقبل سياسى . عند هذا الحد ، تشعر الجماهير بالحنق البالغ من هذا كله ، وتستحيل إلى أداة طيعة فى أيدي العاطفة ، فإذا هم يطرحون عنهم كل تبعية للطبقات العليا ، بل وحتى المساواة معها ، ولا يلبثون أن يعرفوا المصلحة العامة على أنها مصالحهم . وإذا بلغ الأمر هذا الحد ، فإن الكومونولث يكتب ألقاباً زائفة من الحرية والديموقراطية ، بينما هو فى حقيقة الأمر يزرع تحت عبء (استبداد الجمهور) .

مصدق الكتاب المقدس

(بوليبيوس الكتاب الثامن والستون : الفصل الثانى والعشرون ^(١) ، بروكوبيوس : الكتاب الخامس . الفصل الثانى والعشرون ١٢ — ٢٢) .

قرطاجنة : ١٤٦ ق . م

لقد ازدهرت قرطاجنة طيلة سبعة قرون منذ تأسيسها الأول ، وكانت سيادة أراض واسعة وجزر وبحار ، ونافست أعظم إمبراطوريات العالم فى قوتها الحربية

(١) بعد صياغته مرة أخرى ، من الشرح الذى قدمه آبيان (دراسات رومانية — كتاب أفريقيا الفصل ١٣٢) المحقق ،

ودخلها وعدد أفيالها وسفنها؛ وفاقت تلك الإمبراطوريات في الطاقة والشجاعة لأنها، حتى بعد أن جردت من السلاح تماما، صمدت لمدة ثلاثة أعوام في حرب مروعة وحصار قاس. وعندما شاهد «سكيبو» Scipio هذه المدينة القديمة العظيمة تواجه الفناء الكامل إلى الأبد يقال إنه ذرف الدمع ولم يخف أنه يبكي على العدو. لأنه ظل لمدة طويلة متمسكا بأفكاره الخاصة، وتحقق من إن المدن والأمم والإمبراطوريات كتبت لها الإرادة الإلهية أن تزول، وتذكر أن هذا مصير (إليون) ILion التي كانت مدينة مزدهرة في عصرها، وأن هذا كان مصير الإمبراطوريات الآشورية والميدية والفارسية، وكانت كل إمبراطورية منها أعظم إمبراطورية في العالم في دورها، وهو مصير الإمبراطورية المقدونية، آخر الإمبراطوريات وأكثرها تألقا. وبعدئذ كرر بصوت عال سواء عن قصد أو بلا وعى هذه السطور:

سوف يبزغ يوم الدينونة، وفي ذلك اليوم

سوف تزول مدينة إليون المقدسة،

ويزول بريام الرماح العظيم، ورب

شعب بريام في نظامه الأبى.

وقد سأله «بوليبوس» وكان تلميذاً له، في عبارات كثيرة عما يقصده بالسطور السابقة. ويقال إن «سكيبو» طرح كل تحفظ. ونطق باسم بلده، الذي كان ينظر إليه بتشاؤم كبير بسبب رأيه في مصير الإنسان^(١).

روما: ٥٣٧ م

وفي هذه الأثناء شن القوط حملة ثانية، سوف أشرع كي وصفها، وهي الحملة ضد بوابة (أورليان) Aurelian ويقوم هناك، خارج هذه البوابة، وعلى بعد

(١) كان بوليبوس أول من سجل هذا (آيان).

رمية حجر ، ضريح الإمبراطور « هادريان » Hadrian ، وهو أحد عجائب الدنيا . وشيد من رخام من نوع جيسد وصبت المعابد دون ثغرات بين كتل الأخشاب أو عن طريق سد المادة السفلى بين الأوجه الخارجية والداخلية . وله أربعة جوانب متماثلة يبلغ طول كل جانب مسافة رمية حجر ويرتفع إلى أعلى من سور المدينة . وعلى القمة هناك تماثيل لرجال وخيول ، منحوتة من الرخام نفسه وبصناعة نفيسة . وكان هذا الضريح يعتبر بمثابة معقل للمدينة وعلى هذا أحاط به القديس واعتبره ضمن التحصينات ، وذلك ببناء جدارين حاجزين يمتدان إلى الضريح من السور . والحق أن الضريح يشبه برجاً شاهقاً إلى جانب البوابة في هذا القطاع

وبادر القوط بشن هجومهم على بوابة أورليان وبرج هادريان . دون أن يستخدموا المدفعية ، ولكنهم أحضروا عدداً من السلام المتنقلة ، على أمل أن يشلوا حركة العدو بشكل أكثر فعالية بتركيز إطلاق نيران الأسلحة الصغيرة وذلك كي يقهروا الحامية الضعيفة دون صعوبة . وتقدموا متسترين وراء تروسهم ، التي كانت كبيرة كئناك التي تستخدم بين صفوف الفرس ونجحوا في الوصول إلى مدى قريب لمقاومة القوة قبل أن يكتشف أمرهم ، وذلك بالاحتماء بالدير الذي يمتد إلى معبد « بطرس الرسول » Peter the Apostle . لقد كشفوا الغطاء وأطلقوا هجومهم فجأة حتى إن المدافعين لم يكونوا غير قادرين على أن يجعلوا (مقاليهم)^(١) تقوم بدورها (وهي أسلحة تصيب فقط أهدافها على مستوى مرتفع) أو حتى أن يردوا على المهاجمين بأسلحتهم الصغيرة إذ أن تروسهم أبطلت مفعول هذه الأسلحة وشدد القوط من هجومهم ، واکتسحوا المداغل بقذائفهم ، وكانوا عند الحدود التي يضعونها السلام على الجدران . إن المدافعين عن الضريح وجدوا أنفسهم محاصرين تقريباً ، ولا يعرفون أى طريق يسلكون ، وواجهتهم القذائف من الجناح والمؤخرة ؛ وظلوا لحظات حائرين

(١) مثل ... المدفعية الثقيلة التي ترمى كتلا كبيرة من الأحجار . (المحقق) .

لا يدرون كيف ينقذون أنفسهم من وضعهم المحفوف بالخطر دون كوارث ، وأيما كان الأمر ، فلم يلبثوا طويلا ، قبل أن يفيقوا بدرجة تكفي لتحطيم غالبية التماثيل التي كانت ذات حجم كبير ، ورفعوا قطع الرخام الكبيرة في كلتا اليدين ، وأسقطوها بشكل عمودي على رؤوس العدو التي تهشمت فور الاصطدام بالأحجار .

الموت ينهى المشكلة

(بلوتارك الخيروني Plutarch of Chaeronea ٤٦-١٢٥م- حيوات متوازية نص توينر تحقيق ك. سنتينس C. Sintenis المجلد الثالث ص ٢٧٠ — ٤ حياة بومبيوس ماجنوس الفصول ٧٧ — ٨٠) .

عندما استنفدت خذاة البحث عن مأوى في مصر طوال اليوم ، أبحر « بومبيوس » وزوجته من قبرص في سفينة حربية سليوقية Seleucian ، وكان جزء من الحاشية يصحبه على سفن حربية أخرى وجزء آخر على سفن تجارية . وبعد رحلة هادئة عبر البحر المكشوف ، تلقى تعليمات تقول بأن الملك « بطليموس » يمسكر في (الفرما) Pelusium مع القوات المسلحة ويباشر عمليات حربية ضد أخته . فأقام هو أيضاً (بالفرما) ، بعد أن كان قد أرسل مبعوثاً إلى الملك سلفاً ليشرح مركزه ويسأله المعونة . وكان « بطليموس » نفسه لم يزل طفلاً ، إلا أن وزيره « بوثينوس » Pothinus الذي كانت في يده كل السلطات ، استدعى مجلس الدولة ، وكان به مستشار خاص يمثل صورة أخرى من « بوثينوس » ، وأعلن فتح باب المناقشة لكافة الأعضاء الحاضرين . وإنها لإهانة بالغة أن يصبح مصير بومبيوس ماجنوس موضع جدل بين خصي مثل « بوثينوس » وأستاذ بلاغة أجير مثل « ثيودوتس الخيوسي » Theodotus of Chios ومصرى مثل « أخيلاس » Achilles الذين كانوا المستشارين الأساسيين في هذه المجموعة النبوية من رؤساء الحجاب والخدم الخصوصيين ؛ وبينما هو ينتظر هذه المحكمة حتى يتناقى حكمها اضطر « بومبيوس » الذي أبت عليه كرامته أن يهب حياته لقيصر ، إلى أن يرسو على مرأى من الشاطئ . وقد

انقسم المجلس في مجموعه إلى رأيين ، أحدهما إلى جانب رفض التجاء بومبيوس والآخر إلى جانب دعوته واستضافته . وأيما كان الأمر ، فإن « ثيودوتس » Theodotus ، آثر أن يعلن قدرته الجدلية والقانونية فأدان الاقتراحين على اعتبار أنهما ينطويان على مخاطر بالغة . فإذا ما استضافوا بومبيوس ، فإنهم يجلبون على أنفسهم عدااء قيصر ويصير بومبيوس بمثابة السيد لهم؛ وإذا ما رفضوا إيواؤه ، فسوف يصبحون مسئولين أمام بومبيوس نفسه لأنهم طردوه ، ومسئولين أيضاً أمام قيصر لأنهم فشلوا في القبض عليه . فأفضل مسلك هو الاستدعاء للحاكمة وبعدئذ يتخلصون منه — وهو حل من شأنه أن يستميل إليهم أحد الجانبين ويريحهم من كافة مخاوف الجانب الآخر . ويقال إن الخطيب أضاف قائلاً وهو يتنسم « إن الوتى لا يعضون » .

وتبنى المجلس اقتراح « ثيودوتوس » وأوكل تنفيذه إلى « أخيلاس » . فأخذ « أخيلاس » معه أحد ضباط بومبيوس القدامى ويدعى « سبتييموس » Septimus وضابطاً على الاستيداع يدعى « سلفيوس » Salvius وثلاثة أو أربعة جنود اتصال ، وأبحروا نحو سفينة بومبيوس . والذي حدث ، أن جميع الأعضاء المرموقين تقريباً من حاشية بومبيوس صعدوا إلى ظهر السفينة ليعرفوا ماذا يجب أن يعملوا ، وعندما لم يروا شيئاً ينم عن الاستقبال اللائق بالتقاليد الملكية والتي علق عليها « ثيوفان »^(١) Theophanes . آماله ، ولم يجدوا سوى نفر قليل يجدفون في قارب صيد ، أحسوا بأن عدم المجاملة لها دلالتها ، فنصحوا « بومبيوس » بأن يجدف عائداً وأن يقف ليراهم وهم بعيداً عن متناول أيديهم : وأيما كان الأمر ، فقد اقترب القارب وقتئذ بدرجة مكنت « سبتييموس » أن ينفرد من دونهم ويرتفع على قدميه ويحيي بومبيوس باللغة اللاتينية ويناديه بلقب (الجنرال) . وحياء « أخيلاس » أيضاً باليونانية ودعاه إلى أن ينتقل من السفينة إلى قارب الصيد . وأوضح أن هناك مسافة طويلة من الماء الضحل مليئة برمال مترسبة بحيث إن سفينة لها مثل قوة

(١) سكرتير بومبيوس الميتليني (المحقق) .

السفينة الحربية لا يتيسر لها أن تعبرها . وعند هذا الحد ، لاحظ أن بحارة بعض سفن الأسطول المصري يتحركون إلى مرا كزهم ، والمشاة يحتلون الشاطئ ، وعلى هذا لم يكن هناك وقت للهرب ، حتى لا يغيروا رأيهم ، وكان هناك اعتبار آخر وهو أن أى محاولة لعدم التزام الهدوء قد يكون من شأنها أن تعطى أى راغب فى القتل عذراً لتنفيذ خطته المريعة . وعلى هذا طلب بومبيوس أن يودع « كورنيليا » Cornelia ، التى شاركت زوجها نهايته متأسية ، وأمر اثنين من ضباطه على الاستيلاء وأحد رجاله وكان قد أعتقه ويدعى « فيليب » Philip وأحد أتباعه « نكيثس » Scythes ، أمرهم أن يسبقوه إلى القارب . وكان أخيلاس وصحبه يحمونه من القارب ، وعندما استدار إلى زوجته وابنه كرر أبيات « سوفوكليس Sophocles :

من يتعامل مع الطاغية ، فهو

عبده دائماً ، أيا كانت درجة حرته

وكانت هذه آخر عبارات نطق بها إلى أسرته قبل أن يرحل .

وعلى الرغم من أن المسافة من السفينة إلى الشاطئ كانت لا بأس بها ، إلا أنه لم توجه إليه بادرة واحدة تم على صداقة من معه ، فنظر بومبيوس إلى سبتيموس قائلاً : « لعلى بالتأكيد غير مخطيء فى أنك رفيق قديم فى السلاح ؟ » . واكتفى سبتيموس بأن أوماً بالإيجاب دون أن يضيف كلمة أو يبدر منه ما ينبى عن الصداقة . وأعقب ذلك فترة صمت أخرى ، كان يدرس فيها « بومبيوس » حديثاً باللغة اليونانية كان قد أعدده فى مفكرة صغيرة واعتزم أن يلقيه أمام بطليموس . وعندما اقتربوا من الشاطئ ، بدأت « كورنيليا » التى كانت مع أصدقائها على ظهر السفينة الحربية ، تترنح وهى ترتقب باضطراب بالغ تطور الأحداث ، بدأت تتشجع عندما رأت عدداً ضخماً من الحرس الملكى يتجمع فى مكان المرسى وكانهم يشكلون حرس شرف . وفى تلك اللحظة ، تلقى بومبيوس ، الذى كان يستند إلى يد فيليب لتساعده على الخطو ، أول طعنة فى ظهره من سيف سبتيموس ، التى كانت بمثابة

إشارة إلى سالفيوس وأخيلاس بأن يمتشقا أسلحتهما . فدفع بومبيوس عبائته بكتا يديه إلى وجهه ، وزفر أنه واحدة وتاقي الضربات المستمرة ، دون أن يقول كلمة أو يأتي عملاً لا يتفق مع شخصيته وكان في عامه الستين ، ومات في اليوم التالي لعيد ميلاده .

وعندما رأى الفريق الذى كان على ظهر السفينة جريمة القتل ، أطلق ولولة سمعت من الشاطئ ورفعوا المرساة بسرعة ليضمنوا نجاتهم . وأنعشتهم نسمة باردة عندما أصبحوا فى عرض البحر وأعاقوا المصريين من الباعث الأول لمطاردتهم . وقطع القتلة رأس بومبيوس وألقوا بالجثمان عارياً خارج قارب الصيد على الشاطئ حيث تركوه ليشاهده الحشد الفضولى للرؤية . وظل فيليب يحرسه حتى شبعت عيونهم من رؤيته . وغسله فى البحر ولفه فى بعض ثيابه الداخلية . وما أن وجد نفسه دون أى مطالب أخرى ، فقد بحث حول الشاطئ فوجد بقايا قارب صيد صغير ، وعلى رغام تأكاه ، كان يكفى ليكون الوقود اللازم لنهاية جثة عارية معطبة . وبينما هو يصنع هذا كله فى كومة ، اقترب منه رجل عجوز له جنسية رومانية ، كان قد خدم فى صدر شبابه فى حملة بومبيوس الأولى ، وقال له « سيدى ، أرى أنك تتأهب لدفن بومبيوس ماجنوس ، فهل لى أن أسألك من أنت ؟ وعندما أخبره فيليب بأنه كان عبداً وأعتقه بومبيوس ، استطرده الرجل العجوز قائلاً : « ولكن عليك ألا تنفرد بهذا الشرف ، وأتوسل إليك أن تقبل معونتى فهذا ليس واجباً مقدساً فحسب ولكنه ثواب لم أكن أتوقمه ، ومن شأنه أن يعزىنى بعض الشيء فى منفاى عن وطنى . وإن التجارب التى مررت بها قد ردت لى الجزاء الوحيد الذى أشترك مع هذه الأيدي فى المراسم الاخيرة لأعظم جنرال خدم الرومانيون تحت إمرته . . . » . وهكذا لقي بومبيوس شعائر الدفن ووصل فى اليوم التالى « لوكيوس لنترولوس » Lucius Lentulus من قبرص وهو يجهل ما حدث ، وكان يحوم حول الشاطئ عندما رأى جثماً نائماً يحترق على محرقة ويقف فيليب إلى جواره . وقبل أن يتمكن من التعرف عليه ، صاح « من ذلك الذى أوفى مصيره ووجد راحته فى هذا المكان البائس ؟ » واستطرده بعد هنيهة

قصيرة بأنة مؤلة: « لعلك أنت يا بومبيوس ماجنوس ». وذهب بعد دقائق قليلة إلى الشاطيء ، وألقى القبض عليه ، وواجه مصير قائده .

وهكذا كانت نهاية بومبيوس . وعندما وصل قيصر بعد ذلك بفترة ليست طويلة إلى مصر يفوح منه دنس هذه الجريمة النكراء استدار في اشتزاز من الشخص الذى جاء يقدم له رأس بومبيوس وبكى عندما وضع فى يديه خاتم بومبيوس . وكان الشعار على الخاتم هو أسير يحمل سيفاً . فأعدم قيصر أخيلاس وبوثينوس ، بينما هزم الملك فى البلاد المجاورة للنيل ولم يعد يشاهد مرة أخرى . أما « ثيودوتس » (مصلح العقول) فقد أفلت من عدالة قيصر بالهرب من مصر وأصبح منبوذاً مشرداً . وبعد ذلك ، فإن « ماركوس بروتس » Marcus Brutus الذى قتل قيصر وتولى زمام السلطة اكتشف ثيودوتس فى آسيا الصغرى وأعدمه بالتعذيب المتواصل . ووضعت بقايا بومبيوس تحت تصرف « كورنيليا » وقامت بدفنها فى ألبانو Albano .

ختال الزمن

(بوليبيوس : الكتاب السادس : الفصول ٥٢ - ٥٤)

يملك الإيطاليون تفوقاً فطرياً على الفينيقيين والبرابرة سواء فى القوة البدنية والشجاعة النفسية ؛ إلا أنهم أيضاً يستثيرون بشكل كبير نمو شبابهم فى هذا الاتجاه بالتدريبات التى يقدمونها إليهم . ووصف نظام واحد يكفى كمثال على الجهود التى تبذلها مجموعة الكومونواث الرومانى لتربى الرجال الذين تعدهم لتحمل كافة الأمور من أجل اكتساب الشرف والمجد فى نظر مواطنيهم .

فعمدما يرحل أحد رجالهم البارزين عن هذه الحياة ، يشتمل احتفال الجنائزاة على موكب يكون فيه الجثمان — وغالباً ما يكون منتصباً ومكشوفاً ، ونادراً

ما يكون مضجماً - محمولاً على ما يسمى عندهم (بالرمس)^(١) Rams في (الساحة) . ويتجمع حوله كل الناس ، ويعتلى الخطيب^(٢) المنصة ويلقى خطاباً عن شخصية الفقيه وحياته . وهو بهذا السرد يثير ذكري حية عن الماضي في أذهان الجمهور ، بما فيهم أولئك الذين لا تربطهم صلة بالمتوفى ومن شاركه أعماله ، ويخلق مثل هذا التعاطف قوة لدرجة أنهم يشعرون بأن المصاب خسارة عامة ليست مقصورة على النأحين . وعندما تنفض الجنازة بعد ذلك ، تقام الشعائر المعتادة ، ويضعون (نظيراً) للمتوفى ، داخل تابوت صغير من الخشب ، ويضعونه في مكان الشرف بين الأسلاف . وهذا النظير عبارة عن النصف الأعلى وقد تم تصميمه بطريقة واقعية دقيقة وصادقة في الخطوط الخارجية والنمط . وكانت هذه السلسلة من (النظائر) يرفع عنها الستار في مناسبة الأعياد العامة التي تزدان بعبارة رقيقة ؛ وعندما يتوفى عضو بارز من المجلس النيابي ، يستعرضون هذه (النظائر) في الموكب الجنائزي ، ويختارون أشخاصاً من أكثر الناس شبيهاً بالمتوفى الأصلي ، في الطول والهيئة ، ويحظى هؤلاء بشرف ارتداء هذه (النظائر) . ويتقلد هؤلاء المشخصون الأزياء المناسبة - فإذا ما كان الشخص الأصلي قنصلاً أو قاضياً كانت الملابس بيضاء ذات أطراف قرمزية ، وإذا ما كان رقيباً فهي قرمزية كاملة وإذا ما كان المتوفى قد اشتهر بنصر رسمي أو حصل على أوسمة الشرف فيرتدى الشخص نيشاناً أبيض مذهباً . ويركب المشخصون أنفسهم في عربات ، تسبقها الصولجانات والفئوس والشعارات الأخرى التي هي من لوازم مناصب الدولة العليا ، بما يتفق مع المرتبة الرسمية التي حصل عليها في حياته الشخصية التي يقومون بتمثيلها . وعندما يصلون إلى المنصة يأخذ الجميع أماكنهم حسب الأولوية على عروش عاجية ، وليس من اليسير أن نتصور مشهداً يدخل السرور على الشاب ذي الأخلاق الطيبة والطموح السليم أكثر من هذا المشهد . ومن ذا الذي لا يتأثر

(١) هي منصة مزينة بمناجيق سفن القرطاجينيين الحربية المستولى عليها . (المحقق) . -

(٢) عادة ما يكون ابن الفقيه إذا ما كان على قيد الحياة وتصادف وجوده في روما ،

أو ينوب عن الابن ، أي قريب آخر . (المؤلف) .

برؤية نظائر الرجال موضع التبجيل والحفاوة في الماضي ، تتجمع أمام عينيه بكل أنفاس الحياة الفعلية ؟ وأي مشهد يمكن أن يكون أكثر تأثيراً من هذا المشهد؟ وبعد ذلك ، فإن الخطيب الموكول إليه أن يلقي الخطاب الجنائزي لا يقصر حديثه على الفقيد ، وإنما يتعداه ، بعد أن يوفي الفقيد حقه ، إلى سرد الفجاعات وأعمال الأسلاف الأول ، بادئاً بالأولين ، الذين يخدمهم هذا التذكير الدائم لمجد المتوفى ، وشهرة جميع الذين امتازوا بأى عمل نبيل ، وأما قصة أولئك الذين استأهلوا خير بلدهم فإنهم يصبحون كلمة وطنية تتلقاها الأجيال المقبلة . وأهم هذا كله ، أنهم يستشيرون الشباب إلى تحمل كل الأشياء من أجل الصالح العام ، على أمل اكتساب الشهرة التي لا تفشل في أن تلحق بأولئك الذين يستحقونها .

القسم الثاني

الكبرياء والقصاص والحسد عند الآلهة

(Hybris, Ate, Phthonos)

(هوبريس وآت وفتونوس)

(الرواية المعتمدة)

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصل العاشر)

من « أرتابانوس » Artabanus إلى « كسر كسيس » Xerxes :

« إن الحكم الحق ، حسب خبرتي ، أكثر قيمة من أى عمل آخر . فإذا ما طرأ ثمة خطأ ، فإن صواب الحكم الأصيل يظل دون أن يتأثر ، ويعزى فساد مسعاه إلى الخط . وعلى الفقيض ، فإن الحكم السيء قديحى ثمرة غير متوقعة إذا ما أثر الخط أن يكون فى صالح النتيجة ، إلا أنه لا يعدوا أن يكون حكماً سيئاً . فأنت ترى كيف أن الرب يقصف بصاعقته الحيوانات التى تفوق زميلاتهما وكيف أنه لا يتحمل أن يراها تبرز على السطح ، بينما الحيوانات الصغيرة ، لا تثير اهتمامه أبداً ، وأنت ترى أيضاً كيف أنه يوجه سهامه بشكل ثابت إلى أعلى المنازل وأطول الأشجار . فإن الرب يجب أن يقصف

كل شيء يستعمل على نوعه . وبهذه الطريقة ، فإن جيشاً كبيراً يدمره جيش صغير في ظروف معينة — على سبيل المثال عندما يرسل الرب ، في حالة نقمته ، الهمع أو البرق إليهم . عندئذ يهلكون ، ولا تكون نهايتهم متفقة مع بدايتهم . إن الله لا يقبل أن يرى أحداً متكبراً سواه .

حكمة سولون Solon

(هيرودوت : الكتاب الأول . الفصول ٣٢ — ٣٤)

كان « كرويسوس » Croesus حاتقاً للغاية من ملاحظات « سولون » التي تتعلق بالسعادة الإنسانية حتى إنه قال : « سيدي العزيز ، هل سعادتي تافهة بهذا الشكل الحثير بالنسبة إلى عقلك الآثيني إلى حد أنك تضعني بالفعل في درجة أقل من أفراد بدايتهم ؟ فأجاب سولون « مولاي ، إنني أعلم حقيقة أن الطبيعة الإلهية تنتقم بشكل ثابت وهي مدمرة أيضاً ، وبعدئذ فأنت تسألني عن الحياة الإنسانية ، إن مرور الزمن يجلب مناظر كثيرة غير سارة وخيرات كثيرة غير سارة إنني أقدر فترة الحياة الإنسانية العادية بسبعين عاماً : وتبلغ هذه السنوات السبعون (بعد احتساب الشهور جميعاً بثلاثين يوماً) إلى ٢٥٢٠٠ يوماً ، أو بدلا من ذلك ، إذا ما احسبت كل سنة ثانية على أن بها شهراً أطول ، من أجل أن تبقى السنة التقويمية متطابقة مع السنة الفلكية ، وأن عدد الشهور الكبيسة ، خلال فترة سبعين عاماً تبلغ ٣٥ شهراً ، تحتوي على ١٠٥٠ يوماً . ومن بين هذه الأيام كلها التي تكون السبعين عاماً والتي تبلغ في مجموعها ٢٦٢٥٠ يوماً ليس هناك يوم واحد ينتج عنه أي شيء يشبه تماماً نتاج يوم آخر ، وعلى هذا ، يامولاي ، فإن الإنسان ليس شيئاً سوى البلاء . وإنني أتصور أنك شخصياً غني جداً وأن لديك عدداً كبيراً من الرعايا ، إلا أنني لا أستطيع أن أمنحك بعد اللقب الذي تهدف إليه من تساؤلك ، قبل أن أسمع أنك محظوظ في نهايتك . . إن المليونير ليس أكثر سعادة بأية حال من جاره الذي يعيش من يده إلى فمه ما لم يحالفه الحظ ويقوده إلى نهاية سعيدة دون ظل على أفقه . وكثير ممن قترأكم لديهم

الملايين غير سعداء ، وكثير من متوسطى الحال محظوظين . إن المليونير غير السعيد له ميزتان ، وميزتان فقط أكثر من الرجل المحظوظ حقيقة . حيث إن الأخير ميزات لا تخصى على المليونير غير السعيد . وأمام المليونير فرصة لإرضاء رغباته وتحمل ضربات الكارثة الكبرى ، إلا أن الميزات التالية يتمتع بها الآخر . فالسكوارث والرغبات التي لا يكون الأخير مهيمًا لها مثل المليونير تتحول عنه بفعل فأله الحسن . يضاف إلى ذلك تقم البدن الكامل ، والمناعة من المرض ، والبعد عن المتاعب، وأسرة ذات أطفال لطاف ؛ وحسن المعشر . وإذا ما نجح في تنويع هذه النعم بأن يصادف نهاية طيبة ، عندئذ يمولاي ، فإنه هدف لبحتك أو بمباراة أخرى ، يحق أن يقال عن هذا الرجل إنه سعيد . وأيما كان الأمر، فعلى أن احتفظ بحكمى حتى أرى نهايته ، وأن أطلق عليه لقب (محظوظ) لا (سعيد) . إن قائمة النعم كلها المذكورة آنفا لا يمكن أن تتجمع بانطبع لدى كائن بمفرده كما أن أى قطعة من الأرض لا يمكن أن تحقوى على كل أنواع الإنتاج . إن قطعة الأرض قد يكون بها أحد الضروريات وتفتقر إلى الأخرى . وأفضل قطعة أرض ببساطة هى تلك التي يكون بها أكبر عدد من الميزات . وكذلك فإن الفرد الإنسانى ليس وحدة ذات اكتفاء ذاتى ، بل قد يمتلك إحدى اللوازم ويفتقر إلى الأخرى ، والإنسان الذى يحوز أكبر عدد من الضروريات لأطول فترة ، وبالتالي يصادف نهاية طيبة ، سوف يكون له ، يمولاي ، حسب تقديرى الحق فى لقب السعادة . ولكى نقيم أى ظاهرة ، يجب أن نوجه الانتباه إلى الظروف التي نصادفها فى نهايتها . ولقد أعطى الله ، أناساً كثيرين قبس السعادة كى يحطمهم أصلاً ونوعاً .

ولم تلق ملاحظات سولون ميولا على الإطلاق من جانب كرويسوس الذى طرد الفليسوف بازدرء ، باعتباره رجلا ليس لديه أية فطنة ، بسبب مبدأ ، فى عدم اعتبار القيم الحالية ومدح كل ظاهرة حسب نهايتها . وأيما كان الأمر ، فبعد رحيل سولون ، أخذ الله كرويسوس بعقاب شديد — ويحتمل أن يكون ذلك لأنه جازف فاعتبر نفسه أسعد أبناء الجنس البشرى .

درس بوليقراط Potyocrates

(هيرودوت : الكتاب الثالث : الفصول ٣٩ - ٤٣ و ١٢٢ - ١٢٥)
فرض « بوليقراط » بن « أيكس » Aeaces نفسه سيداً على (ساموس) Samos نتيجة انقلاب . وفي البداية قسم البلاد إلى ثلاثة أقسام وأعطى منها قسمين إلى أخويه « بانتاجنوتوس Pantagnotus و « سيلوسون Syloson » ، ولكنه بعد ذلك قتل الأول ، ونعى « سيلوسون » ، أخاه الأصغر ، وفرض نفسه سيداً على (ساموس) بأسرها ، وشرع عن طريق تبادل الهدايا في عقد (اتفاق) مع « أمازيس » Amasis ملك مصر . وفي فترة صغيرة لا تذكر أقام بوليقراط دولة امتدت رهبتها على كل (أيونيا) Ionia وبقية هيلاس . وأياً كانت الأهداف التي اختارها لحملاته فقد كانت ناجحة بشكل ثابت . ونظم مائة سفينة من ذات (الخمسين مجدافاً) وألفاً من رماة السهام ، ونهب جميع القادمين دون تمييز ، ولعل من العلامات الصالحة لهذا ، أنه كان يقدم متعة أكثر إلى الصديق بأن يرجع له ما أخذ منه بدلاً من أخذه إلى النهاية . لقد استولى على جزر عديدة ومدن برية كثيرة . وكان أحد مغامره أنه هزم وأسر كل أسطول (لسبيا) ، الذي جاء لمساعدة (ميلتوس) Miletus . وقام هؤلاء المسجونون ، وهم في القيود ، بحفر الخندق كله الذي يحيط بجدار مدينة (ساموس) . وأياً كان الأمر ، فإن نجاح بوليقراط الكبير لم يخف تماماً عن أعين « أمازيس » ، ولكن الحماس الهب انتباهه ، وعندما استطرد النجاح يزداد بوثباته وقفزاته كتب « أمازيس » في النهاية إليه الخطاب التالي ، الذي أرسله إلى (ساموس) :

« يقدم أمازيس الملاحظات التالية إلى بوليقراط . إن نجاح صديق وحليف يعتبر خبراً ساراً ، إلا أن نجاحاتك الكبيرة لا تسرنى ، إذ أنني أعلم حقيقة ، أن الرب له طبع حسود ، إن الوضع كما أتصوره ، بالنسبة لنفسى كما هو بالنسبة لأولئك الذين أهتم بهم ، هو أن تنجح في بعض الأمور وتفشل في الأخرى ، وأن تمر في تقلبات الحظ خلال الحياة أكثر من أن تستمتع بسلسلة لا تنقطع من النجاح .

ولم أسمع بعد عن أى واحد تمتع بنجاح غير منقطع دون أن يأتى بعد ذلك إلى نهاية سيئة وأنه اقتلع من جذوره وفروعه. نخذ نصيحتي وأمن نجاحاتك بالطريقة التالية. « البحث فى أفكارك حتى تعثر على الشئ الذى ادخرت له أعظم الأمور والذى إذا خسرتة يسبب لك كربة حادة ، وبعدئذ تخلص من ذلك الموضوع بطريقة فعالة حتى لا تراه بعد ذلك عيون البشر . وإذا لم تجد أن نجاحاتك قد تبدلت بعد ذلك إلى فشل ، فاستمر فى البحث عن علاج فى الحدود التى اقترحتها عليك » .

وعند قراءة هذا ، أيقن « بوليقرات » أن « امازيس » يقدم له نصيحة حقة ، وبدأ يبحث فى أفكاره حتى يكتشف فيما يكتنز ، عما يحزنه إذا ما فقدته . وقاده بحثه إلى أن يتوقف . عند خاتم ذهبى مطعم بالزمرد ، يرتديه عادة ، وصنعه « تيودور » بن « تليكيس » الساموسى . وقرر أن يتخلص من هذا الخاتم ، وفى النهاية اتخذ الخطوات التالية . أعد سفينة ذات خمسين مجدافاً بالجند ، وركب السفينة ، وأمر بأن تقف به فى أعماق مكان من البحر . وعندما وجد نفسه بعيداً عن الجزيرة ، خلع الخاتم وألقى به فى البحر العميق على مرأى من حاشية السفينة كلها . وبعد هذه العملية عاد إلى الميناء ، وإلى البيت ، وكان أسفاً جداً على نفسه . على أية حال فبعد خمسة أيام أو ستة، حدث أن جاء صياد كان قد التقط سمكة لطيفة كبيرة ، واعتقد أنها هدية تليق لبوليقرات . وعلى هذا حضر بها إلى الباب ، والتمس أن يقابل بوليقرات شخصياً ، وعندما تم له هذا ، قدم السمكة لبوليقرات قائلاً : «مولاي ، على الرغم من أننى أعيش على الصيد، حرفتى ، فإننى لا أشعر بأن لى الحق فى أن آخذ هذه السمكة التى اصطدتها إلى السوق . وهى جديرة بجلالتك يامولاي ، ولهذا فقد أحضرتها هدية إليك . » وابتهج بوليقرات بالحديث وقال « لقد أتيت أمراً طيباً فعلاً ، وأنا مدين لك مرتين ، مرة على هديتك وأخرى على بلاغتك . فأدعوك للغداء معى » وعاد الصياد إلى بيته ممنوناً جداً ، إلا أن الخدم عندما فتحو بطن السمكة ، وجدوا انتفاخاً فى معدتها— وهو خاتم بوليقرات! فقدموه له وشرحوا كيف وجدوه . وأذهل الحديث بوليقرات على اعتبار أنه عمل

للطبيعة ، ولذا فقد كتب كل ما فعله وما حدث بعد ذلك في خطاب ، أرسله إلى مصر . وعندما قرأ « أمازيس » خطاب « بوليقرات » ، تأكد أنه من المستحيل على كائن بشرى أن ينقذ كائناً آخر من مصير يرتقبه ، وأن بوليقرات تنتظره نهاية غير سارة ، فنجاحه متصل ووجد ما ألقى به بعيداً . وعلى ضوء هذا ، أرسل مذكرة إلى ساموس ينقض الاتفاقية ، وكان يهدف من هذا التصرف أن يبرأ مشاعره من الأشجان ، إزاء صديق وحليف ، عندما تصيب بوليقرات كارثة ماحقة .

وأرسل « أورويتيس »^(١) Oroetes ، وكان قد اتخذ مراكزه في مدينة (ماجنيزيا) Magnesia على (مايندر) Maeander ، أرسل « مرسيس الليدى » Lydian Myrsus بن « جيغيس » Gyges في بعثة إلى ساموس . وكان « أورويتيس » قد قرأ أفكار « بوليقرات » ، إذ إن « بوليقرات » كان أول هليني في الأزمنة التاريخية يتطلع إلى السيطرة على البحر^(٢) . وبارك « أورويس » هذا التطلع وجعل مبعوثه يحمل المذكرة التالية :

« يقدم أورويتيس الملاحظات التالية إلى بوليقرات . لقد نما إلى علمي أن لديك مشروعات هامة في متناول اليد ، إلا أن مواردك المالية لا تتناسب مع مطامحك وعندى اقتراح ، في قبوله كافة وسائل النجاح لك والخلاص لي . ولدي معلومات تفيد بأن الملك « قبيز » Cambyses يتأمر على إعدادي . ويمكنك أن تنفذ شخصي وكنزى من هذا المصير ، وسوف يكون لك جزءاً من هذا الكنز إذا ما تزكت جزءاً لي ، وعندما يتوفر المال سوف تكون سيد هيلاس بأسرها . وإذا كنت غير واثق بحديثي عن الكنز ، فأرسل أكثر مستشاريك ثقة ، وسوف أقدم له برهاناً عيانياً . وأهجت محتويات هذا الخطاب بوليقرات ، والهبت عزيمته . . . وقد كان

(١) الوالى الفارسى ، أو باشا لنديا ، حاكم (ايدين) Aidin الحالى . (المحقق)
(٢) وإذا ما تركنا جانباً « مينوس من كينوسوس » وكافة الآخرين الذين قد يكونون قد سيطروا على البحر من قبله . وفي الفترة غير الأسطورية فإن بوليقرات كان هو الأول ، وكانت لديه آمال جادة لإقامة سيطرته على أيونيا والجزر . (المؤلف) .
(م ١٠ - الاغريق)

يستهو به المال جداً ، فأرسل سكرتيره ، الساميانى « ما يندروس » Maeandrus ابن « ما يندربوس » فى بعثة تمهيدية للتفتيش^(١) . وما إن سمع « أوروبتيس » بأن المستطلع فى الطريق ، حتى أعد هدته ليخدعه فلا ثمانية صناديق بالحجارة ، فيما عدا مسافة قليلة أسفل جوانبها ، غطاها بطبقة من الذهب . وأغلقت الصناديق بعد ذلك ، ووضعت مهياة لاستخدام « ما يندروس » ، الذى حفر على التو وفحص الصناديق وأعد تقريره إلى بوليقرات .

وتهاياً « بوليقرات » ليقوم فوراً بالرحلة بنفسه ، متجاهلاً تحذيرات كهنته^(٢) وأصدقائه ، وكذلك الرؤيا التى رآها ابنته ، ومؤداها أنها حلت أنهارأت والدها معلقاً فى الفضاء ، وزيوس يفسله والشمس تدهنه . وجعلتها هذه الرؤيا تفعل كل شىء مستطاع حتى تمنع أبها من الذهاب لزيارة أوروبتيس ، وذهبت إلى أبعد من ذلك فتوهت بعبارات سيئة الطالع^(٣) عندما كان والدها فى طريقه إلى سفينته (ذات الخمسين مجدافاً) فزجرها بوليقرات مهدداً ، بأنه إذا ما عاد آمناً وسليماً ، فلن تنوقع زواجاً مبكراً — فأثرت الفتاة أن تصدق هذه العبارات ، لأنها كانت تود بسرور أن تؤجل زواجها مقابل عدم فقدان والدها . وأيا كان الأمر ، فإن بوليقرات أصر على الإبحار إلى بلاد أوروبتيس على الرغم من كل نصيحة ، وأخذ معه طاقماً كبيراً ، ضم الطبيب « ديموكاديس » Democades « بن كاليون الكروتونى Galliphon of Croton ، أحسن طبيب فى عصره . وعند وصوله إلى (مغنيزيا) ، لقي بوليقرات مصيراً رهيباً لا يتفق مع شخصيته وآماله^(٤)

(١) انه ما يندروس ، الذى قام بعد فترة ليست بعيدة بعد ذلك ، بإهداء الجهاز النفيس لمجالس دولة بوليقرات لى معبد (هيرا) (المؤلف) .

(٢) اعتادوا أن يتنبأوا بالمستقبل بفحص هيئة العظام وأمعاء الذبائح . (المحقق)

(٣) (تعس) بالمعنى الفنى (سىء - الطالع) وكان اعتقاداً هيلينياً شائعاً ، أنه فى الأوقات المرجحة ، تكون الكلمة المنطوقة لها تأثير خارق للطبيعة أو تدخل فى تقرير مجزى الأحداث بشكل آلى . (المحقق) .

(٤) مع استثناء وحيد لطغاة سيرا كوز ، فلا يمكن مقارنة أحد من الطغاة الهلنيين ببوليقرات فى فجاجته . (المؤلف) .

وبعد أن تم إعدامه^(١) (وهذه تفاصيل تخطيطتها) صلب «أورويتيس» جثمانه ،
وإذ هو معلق على الصليب ، تمت رؤيا ابنته بمخافيرها . لقد غسله «زيوس» عندما
أمطرت الدنيا ، ودهنته الشمس عندما أفرز الندى من جسده . وكانت هذه
نهاية نجاح بوليقرات الذي لا يمكن حصره .

الرواية المنقحة

(ايسخولوس الأثيني Aeschylus of Athens)

٥٢٤/٥٢٥ - ٤٥٦/٤٥٥ ق.م . الأعمال . نص

أ. كسفورد ، تحقيق سرجوك A. Sidgwick أ. ج. ممنون

أبيات ٧٥٠ - ٧٨١

كلمة شيباء تعيش على السنة البشر

منذ صباح زمن غابر

سوف تذوب ثروة الإنسان لأنها من الشمع الجالص

وهي لا تأخذ معها الأطفال لحسب وإنما الأبناء أيضاً

والدموع القلقة والقلب الكسير

تولد بسعادة بالغة

وفكرت بمفردى وبأفكار أخرى غير خادعة ؛

وهاهوذا العقل غير المقدس ، متولد طفل على طفل ،

وخطيئة على خطيئة ، كمن ولدها . وستكون كما كانوا .

(١) أعتق أورويتيس الأعضاء السامين في حاشية بوليقرات وأصرهم بأن يشكروه على
تحريرهم ، إلا أنه أبقى على حيازته للغرباء والأرقاء ، الذين عاملهم على اعتبار أنهم من الأمتعة .
(المؤلف) .

ولكن مجدوا الإنسان المستقيم ، وبيته وحياته
مجدوه أيضا ... فأطفاله عادلون
وعندما تأتي الساعة مرة أخرى ، فإن الخطيئة القديمة تود أن تأتي مجديداً .

حيث يضجك القوى بين دموع الناس
وحيث لاحنان يا صديقي ، ولا أحد
ينذف ولا يهلك ، ويتجرأ أكثر فأكثر
مدركاً أنه لا يخشى أى شىء مقدس
ونيران الظلمة فى البيت تلد الحقيقة
مثل ربيمها القديم

غير أن العدل يشع فى بيت متواضع
والدخان يلطخ الجدر
والشرف يأخذ مكانه
إلا أن اليد القذرة على النجم الذهبى
والعيون تهرب نافرة تبحث
عن أمور غير بريئة ولا تمبأ تماماً
بثروة الرجال غير الأجداد . وتسوق
الجميع إلى ساعتها المحتومة

(ترجمة جلبرت مري)

يوم الدينونة

(كسينوفون الأثيني Xenophon ٤٣٠ - ٣٥٤ ق.م - تاريخ الشؤون
الهلينية نص أكسفورد تحقيق ك. مارشانت E.C. Marahant . الكتاب
الثاني - الفصل الثاني ٣ - ٤) .

كان وصول (بارالوس) ^(١) Paralus إيداناً بإعلان الكارثة ^(٢) في أثينا
واتشتر عويل من (البيرايوس) Peirreus خلال الجدران الطويلة في المدينة ،
بانتقال الخبر من شخص إلى آخر . ولم ينم أحد في تلك الليلة . فكانوا ينوحون
على أنفسهم بمرارة أشد ، إلى جانب تحييبهم على الموتى ، لأنهم توقعوا أن يحل بهم
المصير الذي أنزلوه بالميلين Melians (الذين كانوا يستعمرون الإمبراطيين) عندما
حاصروا مدينتهم واستولوا عليها ، وأنزلوه بالهيستايين Histiaeans والسيكونيين
Sicionians والطورنيين Toronians والأيجينييتيين Aeginetans وشعوب
هلينية أخرى كثيرة . وفي الصباح التالي عقدوا اجتماعاً ، قرروا فيه إغلاق كافة
الموانئ ، ما عدا ميناء واحدة ، وليتركوا للتحصينات فرصة العمل ، وتوزيع الفرق
وتزويدها بالرجال ، وجعل المدينة في حالة دفاع تام للحصار المنتظر .

الجبار في السرج

(بوليبوس : الكتاب السادس الفصل ٥٦)

أعتقد أن المسألة التي يظهر فيها الدستور الروماني تفوقه العظيم هي الموقف
الذي يتخذه إزاء الدين . وفي اعتقادي أن الطبع المستهجن في البلدان الأخرى هو
بالفعل مفتاح النظام الروماني ، وأعني به الخرافة . ففي روما بولغ في هذه السمة

(١) (بارالوس) و (سالاجنيا) كانتا أمرع باخرتين في الأسطول الأثيني ، وكانتا
تستخدمان في نقل الإمدادات . (المحقق) .

(٢) معركة (ايجوسبوتامى) ، في الدردنيل وفيها سحق البليونيزيون آخر أسطول
أثيني في عام ٤٠٥ ق.م .

اصطناعياً وأدخات إلى الحياة الخاصة كما هو الحال في الشؤون العامة إلى أقصى حد ممكن إدراكه . ومما لاشك فيه أن قرأى سوف يجدون أن هذا غريب ، إلا أن الرومانيين ، في رأيي ، قد فعلوا هذا عن قصد بسبب النظرة إلى الجماهير . فإذا ما كان مجتمع يتكون إلى أقصى حد ممكن من المثقفين ، فإن سياسة كهذه تبدو ألا ضرورة لها ؛ إلا أن الجماهير في الواقع متقلبة في كل مكان وتتاثر بشكل هوائى يمثل هذه العواطف غير الاجتماعية على اعتبار أنها مزاج لا عقلى وغضب قاتل ، وعلى هذا ، ليست هناك وسائل يمكن أن تقيمها سوى الرعب الخفى ومجون الخرافة . ومن هذه الزاوية ، أشعر أنه ليس هناك شيء اعتبارى أو عدم مسئولية في سياسة آباءنا السالفين عندما قدموا للجماهير مفاهيم الدين ومفاهيم (الجحيم) ، ومن غير المعقول وغير مطلوب من الجيل الراهن أن يراجع هذه الأفكار . ويمكن إدراك إحدى النتائج السيئة لهذه الخطوة الزائفة في حقيقة مؤداها أنه في البلدان الهلينية ، يوكل إلى ذمة أشخاص في مناصب رئيسية ، مبلغ طفيف من النقود ، وهؤلاء يلتزمون بمشورة توقيعات وأختام كثيرة وضمن هذا العدد من الشهود ، ومع كل ذلك فهم جديرين بالثقة ؛ بينما في روما ، فإن الناس العاديين لديهم مقادير كبيرة من المال في الإدارات أو البعثات الدبلوماسية لجرد ضمان قسمهم الخاص ، وما زالوا موضع ثقة . وفي بلدان أخرى ، من النادر أن نجد فرد ينفذ يديه من الخزينة العمومية وأن يظهر سجلاً نظيفاً بهذا الخصوص ، وكذلك ، من النادر في روما ، أن ترى أمراً رهين مثل هذه الإجراءات السيئة .

الاتجاه العقلي

(بروكوبيوس : الكتاب الخامس الفصل الثالث ٠ - ٨)

وعند هذا الحد زارت بعثة من (بيزنطة) Byzantium كاهن^(١) روما

(١) ... رئيس الأساقفة . (المحقق) .

المسيحي الأكبر، وتتكون البعثة من « هيباتيوس » Hypatius كاهن^(١) (إفسوس) Ephesus و « ديمتريوس » Demetrius كاهن (فيلبي) Philippi في مقدونيا . وقد أشارت البعثة إلى نقطة عقيدية يختلف حولها المسيحيون ويتنازع الواحد مع الآخر ، إلا أنه ، على الرغم من أنني أحطت عالماً بالمجادلة ، فليس في نيتي المناقشة . إن محاولة البحث في طبيعة الله تبدولي على أنها نوع من الضلال والخلل العقلي . والذهن الإنساني ليس كذلك ، فإنني أصل عن طريقه إلى المفهوم الدقيق حتى في الشؤون الإنسانية ، وعلى هذا ، فبالأحرى ، تلك المشاكل المتعلقة بطبيعة الله . وفي مثل هذه المسائل أقترح أن اتحفظ احتياطياً ، وسوف أشير فقط إلى أنني لست كافراً بالمبادئ المسلم بها . وأياً ما كان الأمر ، فإنني أتردد شخصياً في أن أقول أى عبارة عن الله فيما عدا أنه كامل الخلق وكلية القدرة مادياً .

واترك هذا الأمر للآخرين ، الكهنة والعلمانيين ليصوغوا في عبارات ، المعرفة اللاهوتية التي يعتقدون بأنهم يملكون ناصيتها ..

القسم الثالث التطور

الاضمحلال

(هسيود الإسكاري Hesiod of Ascara. نص توينر تحقيق ا. رزاخ A.Rzach.)

(الأعمال والأيام، الأبيات ١٠٩ — ٢٠١)^(٢)

في البدء ، صنع الآلهة الخالدون الذين يسكنون على جبل أوليمبوس ، جنساً ذهبياً من أناس فانيين . وعاش هؤلاء الرجال في أيام « كرونوس » Cronus ، عندما كان ملكاً في السماء . عاشوا على نحو ما يعيش الأرباب . وقد خلت قلوبهم

(١) . . . أسقف .

(٢) إن ترجمة المسترف . م كورنفورد أعقبها بعض التعديلات ، معظمها في ترتيب العبارات ، وهي تميل بشكل عام إلى مستوى أسوأ . (المحقق) .

من الهموم والأشجان ، دون قليل أو كثير من العمل والأسى . ولم يتطرق إليهم ظل من شيخوخة ، فسواعدهم وأرجلهم في قوة دائمة ، يجدون متعتهم في الولايم ، بعيداً عن كل الشرور . فإذا ماتوا ، فكأنما قد غلب عليهم النوم . وسائر الأشياء الطيبة موفورة لهم ، والثمار الطيبة تغلها الأرض السخية من تلقاء نفسها ، فتكون ثماراً طيبة في غير ما حقد أو ضغينة — بينما عاشوا هم في بطاحهم هانئين سالمين وقد توافرت لهم الطيبات . فالآن ، وقد طوى الثرى هذا الجنس ، تحولوا إلى أرواح طيبة بفعل إرادته « زيوس » Zeus العظيم — أرواح على الأرض تحرس البشر ، وتهب الثروة (إذا كانوا قد منحوا ذلك الشرف الملكي) .

ثم ، صنع بعد ذلك ، ساكنو جبل أوليمبوس ، جنساً من الفضة ، أقل نبلاً — جنساً لا يماثل الجنس الذهبي جسماً وروحاً . كان الطفل يشب في كنف أمه الحنون لمائة سنة ، طفل ، لا حول له ، يلمو في بيته ، بيد أنهم ما كادوا يصلون إلى ريعان الشباب ، واقتربوا من الشيخوخة ، كان الزمن الذي يعيشونه مقيداً ، يحبونه في آلام بسبب حماقتهم . إذا لم يكن في مقدورهم كبح جماح أنفسهم عن أذى بعضهم بعضاً ، بل امتنعوا عن خدمة الآلهة الخالدين ، وأهملوا تقديم المحرقات فوق مذبح الآلهة المباركين كما كان يقضى الواجب في كل مكان يقيم فيه البشر . ولكن ذلك الحال لم يطل ، إذ إن « زيوس » بن « كرونوس » محا أثرهم أخيراً ، في سورة غضبه ، لأنهم ما كانوا يؤدون فرائض الولاء للارباب المباركين الساكنين في جبل أوليمبوس . والآن ، بعد أن طوى الثرى هذا الجنس كسابقه ، وأطلق عليهم البشر لقب أرواح العالم السفلي المباركين — كان الشرف يلازمه رغم كونه في المرتبة الثانية من الهد .

حتى خلق الأب زيوس جنساً بشرياً ثالثاً — جنساً برونزياً ، لا يمت إلى الجنس الفضي بأية صلة ، صنعه من (الدردار)^(١) قوياً ومرعباً . وكانت ملذاتهم في أعمال « آريس » Ares الهزنة وفي أخطاء الكبرياء . لم يدخل إلى شفاهم

(١) شجر الدرदार ، الحشب الذي كانت تصنع منه نبال الحراب . (المحقق) .

شرة غير أن أفئدتهم في صدورهم كانت قوية وكأنها قدت من الصخر ، وهابهم الجميع . كانت قوتهم هائلة كما كانت أذرعهم التي تنمو من أكتافهم فوق قوامهم المشوق لاتهزم . وكان النحاس معدنهم يصنعون منه منازلهم ، وبالبرونز كانوا يفلحون الأرض (إذ لم يكن قد عرف الحديد القاتم حتى ذلك الوقت) وقد دمروا هذه المعدات بأيديهم حتى انتقلوا إلى زمهرير هاديس Hades الوطيس غير تاركين ما يخلد اسمهم . وعلى الرغم من جرأة خارقة أمسك الردى بهم بقبضته السوداء ، وتركوا نور الشمس الساطع .

والآن ، وقد غطى الثرى هذا الجنس أيضاً ، ما لبث أن خلق جنساً رابعاً مرة أخرى ، على الأرض الخصبية ، صنعه زيوس بن كرونوس — جنساً أفضل وأكثر استقامة ، يشبهه جنس أبطال الآلهة ، الملقبين بأنصاف الآلهة ، الجنس السابق لجنسنا على الأرض المترامية الأطراف . وهؤلاء قضت عليهم الحرب الضروس والمعركة الخفيفة — بضم قرب طيبة Thobes ذات الأبواب السبعة في أرض كادموس Cadmus وهم إذا كانوا يقاتلون من أجل قطع أوديبوس Oedipus ، بينما نقلت السفن الآخرين عبر خليج البحر الكبير — ليقاتلوا في طرواده ، من أجل « هيلينا » Helen ذات الشعر الأشقر . وهناك لقوا نهايتهم وطواهم الموت ، وبعدئذ بعيداً عن الجنس البشرى منحوا حياة وإقامة إلى جانب زيوس بن كرونوس ، الذي جعلهم يمكثون عند نهاية الأرض . ومن ثم فهم يمكثون هناك ، بقلوب تخبو من الهموم ، في جزر المباركين بجوار دوامات مجرى المحيط العميقة — أبطالاً سعداء ، تغل لهم الأرض السخية فأكبتها حصاداً من شهر العسل ، ثلاث مرات في العام .

والآن ، ليتنى ما تلكأت لأعيش مع الجنس الخامس ، بل وباليقنى مت قبل ذلك ، أو باليقنى ما ولدت إلا بعد ذلك العجيل ، لأننا الآن في الأيام المتأخرة زمن الجنس الحديدى . ولن يكف البشر عن العمل قط ولن تفارقهم الهموم بالنهار ، ولا من قبضة المهلك بالليل ؛ وما أفسى الهجوم الذى سوف تبلوهم به الآلهة . ويوم ينفر الأب من ابنه والابن من أبيه ، والمضيف من ضيفه ، والصاحب من صاحبه ،

ولا يشد الأخ إزر أخيه كسابق عهده . وسرعان ما يشيخ الوالدان وتقل قدرتها ،
إذ ينهرهم بنوهم ويقرعونهم بغليظ الكلام . بؤساء من لا يعرفون انتقادات الآلهة !
مثل هؤلاء ما كانوا يردون جميل أبائهم لسابق أطعمامهم . إذ الرجل المستقيم أو
الصالح والذي يحفظ عهده لن يجد لقاء حسناً ، إذ إنهم يكرمون المخطئ والمتعجرف
الوقح . سوف يكون الحق في القوة وتذهب الرحمة من الوجود . وسوف يفعل
الشرير أقصى ما يمكنه من أذى وبكلمات ملتوية يتوجها بأغلفظ القسم . وسائر
بني الإنسان المهوم سوف يجدون من يعينهم على خصامهم - وبصوت لارفق
فيه ووجه كرية يلذ له الشر .

ثم ، في خاتمة المطاف ، سوف تذهب تلك الأرواح في طريقها إلى أوليمبوس ،
الأرض ذات المناكب الفسيحة ، وقد ستر وجوههم الجميلة لباس أبيض ، لتنضم
إلى مصاف الآلهة الخالدة ، مخلقة وراءها البشر - حتى أرواح الرحمة والقصاص .
إن الألم والحزن من نصيب البشر ، حيث لادفاع أمام يوم السوء .

عمل

(سوفوكليس الأثيني ٤٩٤/٤٩٥ - ٤٠٥/٤٠٦ ق . م . نص كبروج
تحقيق ر . ك . جيب R. C. Gebh أنتيجونا Antigonal أبيات ٣٣٢ - ٣٧٥)

كثيرة تلك العجائب ، ولكن ليس أغرب
وأشد وطأة ، من ابن الإنسان
فهو يطوف على بحر متقلب
ويرسم خطته من رياح الشتاء
وحول مسيره تنبسط الأعماق
ويتكاثف الغمام ، إلا أنه يسير بوضوح
آه ، إن الأرض عليلة ، والأرض عجوز
وهي أم الآلهة ، ولكنه يروضها
ذهاباً وجيئة مع مواكب الحرث

عزق الأرض عاماً بمد عام .
خفيفة تلك الطيور ، وتسرع بأجنحتها
إلا أن يده تحوطها وتجذبها إلى أسفل
إنه يأسر فصائل حيوانات الغابات البرية
والذين يعومون في البحار الملحة يندفعون ويتأججون
ويلق بشباك نسجه بعيداً
ويدور فكره في وسطها
حتى تسود أدواته سائر الوحوش
حيث تشرب الخيول من البركة المهجورة
ويهتز عرفه بحثاً عن الخلاص
والسكتف الذي لا يتعب لعجل الجبل
لقد علمه الحديث والفكر السريع
والطبع الذي بنى جدار المدينة
حتى أقواس الشتاء أطلقتها إلى لاشيء
والثلج الذي لا ينفو والمطر يهطل دائماً
إنه مسلح وغير مسلح
يواجه الخطر في تجواله
نعم ، إن مهنته تهديء طباع كل وحش ثائر
ويتغلب على كل شيء ماعدا الموت
لقد خطرت مهنة آلاته له في الحلم
في سرعة إلى هدف الخير أو الشر
وأمسك واحد بقانون المدينة السامى

وقسم الله في أعماق روحه
لنا المدن العالية ، والآخر لامدن له
الذى يكد ، ويمسك بالعدم
على الطريق الممنوع . أخف منه
الفار المريحة وضوء الفكر .

(دجلبرت رى)

عجلة الوجود

أفلاطون الأثيني ٤٢٧ - ٣٤٧/٣٤٨ ق . م - مجموعة الأعمال نص
أ كسفورد تحقيق . ج . بيرنت Burnet . المجلد الأول . . السياسة ص ٢٦٩
٤ - ٢٧٠ - ١ - ٢٧١ - ٤ - ٢٧٢ - ١ - ٢٧٢ - ٦ - ٢٧٣ - ٤ ، ٢٧٤
ب - د) .

شخصيات التمثيلية : الغريب وسقراط الصغير

الغريب : ها هي الحكاية . إن هذا الكون يسيره الرب في طريقه أحيانا
ويوجهه في مداره ، بينما في أحيان أخرى ، عندما تصل دورات زمانه المعين إلى
تحاملها ، فإنه يفلت من قبضة الله ويبدأ في الدوران في اتجاه مضاد من تلقاء نفسه
(وهذا ممكن حدوثه لأنه مخلوق حي وهبه الكائن الذى أنشأه في الأصل الذكاء)
إن الميل تجاه هذه الحركة المضادة ميل فطرى لا محالة في الكون . . بموجب المبدأ
الذى يقضى بأن له قوامه الذاتى وهويته الخاصة وهي خواص مقصورة على نظام
الوجود الإلهى ، والمادة التى لاتتمل به بحكم طبيعتها . وإن ما نسميه بالسموات
والأرض قد اختصها موجدتها بنعم كثيرة ، إلا أن هذه البركات لاتشتمل على
حرية ذات جوهر مادي .

ولهذا السبب فمن المستحيل على الكون أن يستثنى دائما من التغير ، على رغم
أنه يفعل أقصى ما يمكنه في حدود قدراته على أن يتحرك بإيقاع دائم وغير متغير

في المكان نفسه ؟ وعلى هذا سمح له (عندما يتغير) أن يدور في الاتجاه المضاد ، على اعتبار أنه أقل انحراف ممكن عن حركته الصحيحة . وأيا ما كان الأمر ، فإن الدوران الذاتي الدائم ، فوق طاقة كل كائن فيما عدا الكائن الذي يحرك به كل الأشياء ويسيرها . وأحياناً يكون هذا الكائن محروماً من تحريكها في اتجاه واحد وأحياناً في اتجاه مضاد . وينتج عن هذه المقدمات المختلفة أن الأرض لا تدور هي ذاتها دائماً ولا تتحرك تماماً ودواماً من جانب الله في دورتين متضادتين ، وكذلك فليس هناك إلهان يديران الأرض لأغراض متضاربة ، ولكنها تسير (كما بينا وهو البديل الوحيد الباقي) في بعض الأحيان بفعل سبب إلهي خارج عنها ، وتتلقى في أطواره لمسة من الحيوية وتجديد للخلود من خالقها ، بينما في أوقات أخرى تفلت من التحكم وتتحرك من تلقاء ذاتها . وهي تتحرر عند نقطة تمكنها من أن تمر خلال مئات الألوف من الدورات المتضادة - وعمل باهر أمكن تحقيقه من الحجم الدقيق للقاعدة التي يتحرك عليها جرمها الهائل على توازن دقيق .

سقراط الصغير : أخبرني عن الحياة التي تعزوها إلى حكم « كرونوس » . في أي من الحقبين تقع ؟ إذ إنه من الواضح طبعاً أن التغيرات في مسار النجوم والشمس تحدث في كلتا الحقبين .

الغريب : لقد تابعت محاجتي بشكل يدعو للإعجاب ؛ إلا أن التوالد التلقائي لكل الأشياء لفائدة الإنسان ، تعني ما تسألني عنه ، هي غريبة تماماً على الحركة السائدة الآن ، وهي إحدى ظواهر الفترة السابقة . ففي الفترة السابقة كانت الحركة الدائرية نفسها ، بالدرجة الأولى ، كانت تخضع لإشراف الله ، وهذا الخضوع للإشراف نفسه قد نتج محلياً عن تفويض كافة أجزاء الكون للإلهة المتحركة الأخرى وكذلك فإن المخلوقات الحية ، حسب أنواعها ، قد أخذتها الأرواح الإلهية بعين الاعتبار ، وكان كل من هؤلاء الرعاة الطيبين ، جديراً بأن يعنى بالمخلوقات التي تحت رعايته الخاصة ، وعلى هذا ليس هناك استرقاق أو ميزة لأحد على آخر ، وليست هناك حروب فيما بينها على الإطلاق . والقسمات الأخرى لهذا التقسيم أكثر من أن تحصى ، إلا أن مسار القصة بين الجنس البشري فيما يتعلق بالإنتاج

التلقائي لوسائل المعيشة قد نشأ للسبب التالي . إن الله ذاته ، في ذلك الوقت ، رعى الجنس البشرى وراقبه ، كما يفعل الإنسان الآن ، الذى يشبهه بالله ، بين زملائه من المخلوقات ، ويعمل راعياً للأجناس الأخرى التى هى أدنى منه فى الدرجة . وعندما كان الله راعياً ، لم تكن هناك دولة ولا مالك للنساء والأطفال . إذ جاءت كافة الكائنات البشرية مرة أخرى من الأرض ، دون أن تسترجع خبراتها السابقة مرة أخرى . ولم تكن سائر ظروف الحياة موجودة ، بينما استمتع البشر من جهة أخرى بثمار ، دون أن تكون هناك أشجار ونباتات أخرى ولم تكن هذه نتاج زراعة ، وإنما نبتت تلقائياً من الأرض ذاتها . وقد عسكروا أغلب الأزمنة فى العراء دون ملابس أو فراش ، وكان المناخ لطيفاً فلم يسبب لهم إصابات ، ووجدوا مئوى طرياً فى الحشائش التى أنبتتها الأرض كيما اتفق .

وأياما كان الأمر ، فإنه عندما اكتملت فترة التجزئة وكان من الضرورى أن يحدث تغير ، أو بعبارة أخرى ، عندما أستنفذ كل نتاج الأرض ، لأن كل نفس قد آتت قصة مولدها وغرست فى الأرض عدد المرات المفروضة على كل منها ، عندئذ أهمل القائم على إدارة دفة الكون التحكم فيها وانصرف إلى موقف المتفرج وترك العالم يتحرك فى الاتجاه المضاد بفعل القدر والرغبة الكامنة . ومنذ ذلك الحين والآلهة المحلية التى شاركت الروح العظيم فى المسئولية تأكدت مما كان يحدث وأهملت على التوالى الإشراف على هذه الأجزاء من الكون التى كانت تحت رعايتها المباشرة . وبعد أن قلب الكون حركته ، عرف هزة أحدثتها قوة جسمين متحركين فى اتجاه متعاكس ، وكانا يبدآن وينتهيان فى وقت واحد . لقد هزته برجة عميقة فى باطنه وأحدثت خراباً جديداً بين كل أجناس المخلوقات الحية . وبعد ذلك ، بدأ الكون بانقضاء الزمن ، يخرج من هذه الجلبة والاضطراب ليحصل على فترة راحة من هذه العواصف الزلزالية ، وأن يستقر فى رتافته المعتادة ، والتى مارس فيها إشرافه وسلطته ، على نفسه وعلى كل شئ هناك ، واتبع تعليمات خالقه وأبيه وعلى أفضل وجه يتذكرها به . وقد مارس وظائفه فى البداية بشكل دقيق نسبياً ، وبعدئذ بحشونة متزايدة . كلما اقتربت من الطور الأخير وكان سبب التحلل العنصر المادى فى تركيبه ، والذى كان واحداً

من جواهر طبيعته وفي حالة فوضى تامة ، قبل أن يفرض عليه النظام الراهن للكون . ولقد وهبه الذي سواه صفات طيبة . ومن جهة أخرى أورث نفسه من الحالة السابقة وأوجد في مخلوقاته الحية كل ما هو شر وغير مستقيم . وطالما كان الكون يستمتع بتعاون مدير الدفة في تغذية مخلوقاته الحية ، فقد زرع فيهم نقائص تافهة فقط مع استملاء بالخبر ، وعندما يرحل في صحبته ، فإنه يقوم بوظيفته خير قيام خلال الطور الذي أفلت من تحكمه . وأياما كان الأمر ، فينزوها النسيان ، بمضى الزمن ، وتبدأ علة عدم تناسقه الأصيل في اكتساب اليد الطولى حتى ينفجر بشكل صريح في الطور الأخير . وعندئذ يتلقى الكون في تركيبه فقط عنصراً طفيفاً من الخير ومزيجاً كبيراً من الشر حتى إنه يصبح في خطر أن يطوى نفسه وكل الأشياء فيه في دمار شامل . وعلى هذا ، فإن الله الذي نظمته في الأصل ، يدرك عند هذا الحد ، العثرات التي تردى فيها الكون — وخشية أن ينفجر تحت ضغط الضربات الوحشية للاضطراب وقد يستقر في هاوية لا يدرك غورها حيث كل الأشياء لاقيمة لها فباشرة مرة أخرى تحكمه في دفة الأمور ، وحول الميول تجاه المرض والتحلل التي ظهرت في الفترة السابقة عندما ترك الكون يتولى أمور نفسه ، ونظمه وصحح الخطأ ووهب العالم الخلود والشباب الدائم

وقد وصلنا الآن إلى الهدف الذي تسعى إليه قصتي منذ البداية . وسوف أتخطى الحيوانات ، لأنها تستغرق منى الكثير في إحصائها وعددها بسبب تنقلاتها وسوف أقتصر على الإنسان ، الذي يمكن أن تكون حالته واضحة بإيجاز وأكثر ملاءمة للموضوع . وعندما حرم الجنس البشري من عناية الروح الذي كان راعيها فإن غالبية الحيوانات الوحشية التي كانت كذلك بطبيعتها تحولت إلى أصلها ، بينما أصبح الإنسان ضعيفاً ولا حول له ونتيجة لهذا روعته الحيوانات الوحشية ، وكان في الطور الأول مجرداً من الأدوات والموارد ، طالما كان مورد طعامه التلقائي قد فشل في أن يزود نفسه ، قبل أن يتعلم تحت ضغط الحاجة . وجميع هذه الأسباب ، وجد الإنسان نفسه في مأزق مروع ، وهذا هو أصل كل الهبات الأسطورية للآلهة

والتي قدمت إلينا ، معاً مع تعليم وتدريب لازمين لاستخدامها — فالنار من «بروميثيوس» Prometheus والفنون والحرب من «هيفايستوس» Hephaestus وزوجته والبذور والنباتات من أصحاب فضل آخرين . وكل حجر في أساس الحياة الإنسانية قد نحت من أحجره . إن الحراسة (التي ذكرت من قبل) والتي وضعتها الآلهة على الإنسان قد فشلت الآن على حين غرة ، وكان عليه أن يعيش بجهوده الذاتية وأن يحرس نفسه ، تماماً كالسكون جميعه ، الذي قلده وتتبع خطاه في أطوار حياتنا ونمونا المتبدلة .

دورات الحضارة

(أفلاطون : مجموعة الأعمال ، نص اكسفورد ، المجلد الرابع : تيمايوس

Timaeus ص ٢١ هـ — ٢٣ د)

كريتياس يتحدث :

في الدلتا المصرية ، وحول الرأس التي يتفرع عندها مجرى النيل ، هناك إقليم يطلق عليه (سايس) Sais ، وله عاصمة إقليمية تحمل الاسم نفسه^(١) . وشعب هذه المدينة له ربة تحميه واسمها في اللغة المصرية « نيث » Neith — وهي تقابل فيما يجزمون ، الربة الهلينية أثينا . ويزعم أهل سايس بشدة أن لهم أصلاً أثينياً ، وإلى حد ما فهم ينتمون خاصة إلى الأمة الأثينية . وقد رحل « سولون » (حسب روايته هو) إلى سايس وقوبل هناك بتكريم ممتاز . وإبان إقامته وافته فرصة استشارة الخبراء المبرزين بين الكهنة حول التاريخ القديم ، واكتشف أنه هو نفسه وزملاءه الهلنيين في حالة يجهلون فيها الموضوع تماماً . وفي إحدى المناسبات فكر أن يقودهم إلى مناقشة حول التاريخ القديم وذلك بعرض أكثر روايات هيلاس قديماً والتي تتعلق بما يطلق عليه «فاروينيوس» Pharoeneus و«نيوب» Niobe الأول ، وعندما وصل إلى مرحلة ما قبل الطوفان ؛ قص التاريخ الأسطوري ل « دوكاليون » Deucalion و« بيرها » Pyrrha فسر دأنساب سلاتهم وحاول

(١) موطن الملك أمازيس . (المؤلف) .

أن يوجد أساساً تقويمية لتأريخ الأحداث في قصته . وقد استخلص الكلمات التالية من كاهن طاعن في السن من بين محدثي سولون : « سولون ، سولون ! انتم معشر الهلينييين أطفال دائماً . لا يوجد شيء ما يعرف بالهلينييين القدامى » . فأضاف سولون « ماذا تعنى ؟ » فاستطرد الكاهن المعجوز « إنكم جميعاً صغار العقول . ليس في أذهانكم تراث قديم ولا معرفة تشيخ مع العمر . وثمة سبب لهذا ، سوف أوضحه . فقد حلت سلسلة من المصائب في أشكال مختلفة ، وسوف يستمر حدوثها ، والجنس البشرى ، أعظم كائن تأثر بفعل النار والماء ، بينما الكائنات الأخرى ، التي هي أقل عنفاً ، قد وجدت بفعل أسباب مختلفة لانهاية لها . وثمة رواية لديكم في هيلاس وهي أن « فايثون » Phaethon ، ابن الشمس ، حدث أن أعدذات مرة عربية والده وأثبت أنه غير كفؤ لقيادتها بأسلوب والده . فأحرق كل شيء على وجه الأرض قبل أن ينتهي مصيره إلى الأبد بواسطة الصاعقة . وعلى الرغم من أن هذا التراث يروى بشكل أسطوري ، فإنه يحفظ الحقيقة العلمية التي تقضى بأن مدة طويلة من الزمن ، حدث فيها انحطاط في مدار الأجرام السماوية التي تدور حول الأرض وأن كارثة لحقت بالحياة في هذا الكوكب في صورة احتراق هائل . وعند هذا الحد فإن سكان الأقاليم ذات التضاريس الجبلية قد دفعوا عبيثاً أثقل من سكان المناطق النهرية أو البحرية ، وفي هذه المناسبات فقد أتقننا النيل في مصر ، مخلصنا الوفي ، من حالة عصيبة هو محصن منها . وهناك مناسبات أخرى طهر الآلهة فيها الأرض بطوفان من المياه ، وبقي الرعاة في هذه الظروف على الجبال ، بينما اكتسحت الأنهار سكان مدنكم في هيلاس إلى البحار . وأيما كان الأمر ، فإن الماء لم يهبط أبداً ، في مصر على الحقول من فوق — ليس هذا في فترات الطوفان هذه فقط — وإنما ارتفع من أسفل بقانون [الطبيعية] الذي لا يتغير . وهكذا ، فإن التراث المحفوظ في مصر ، للأسباب السابقة ، هو أقدم تراث في العالم ، والحقيقة العلمية أنه في كل مكان لا توجد فيه درجات متطرفة من الحرارة والبرودة ، فإن السكان البشر يتعرضون لزيادة وهبوط موسمين . وهناك أحداث مجيدة . أو هامة أو على درجة مرموقة في تاريخ هيلاس أو مصر ذاتها أو

(م ١١٠) — الإغريق)

في أى منطقة أخرى في نطاق معرفتنا ، قد سجلت وحفظت هنا في مصر منذ الماضي السحيق . ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الإنساني في هيلاس أو أى مكان آخر قد وصل دائماً إلى حد إعداد نفسه بسجلات مكتوبة ومتطلبات الحضارة الأخرى عندما تهبط المياه ، بعد الفترة المنتظمة ، التي كانت أعلى الجو ، تهبط عليك وكأنها مرض دافق وهي تسمح فقط لعناصر غير المتعلمين والمثقفين من مجتمعنا أن تظل على قيد الحياة ، وينتج عن ذلك أن نصبح كالأطفال الصغار ونبدأ مرة أخرى من البداية دون معرفة للتاريخ القديم في مصر أو في عالمكم . دعني أخبرك ، ياسيدى أن الأنساب التي أوردتها في روايتك عن ماضيكم الهليني إنما لا تكاد تصل إلى مستوى حكايات الأطفال . وبالدرجة الأولى ، فقد احتفظت فقط بذكر طوفان واحد في سلسلة طويلة ، وبالدرجة الثانية ، فأنت تجهل حقيقة أن بلادكم كانت موطن الجنس النبيل السامى والذي تتمثل فيه (العبقرية الإنسانية) . وأنت نفسك وأمتك كلها قد تزعم أن هذا العنصر بعد أن أصبح جزءاً من المجموع الذى بقى على قيد الحياة بعد كارثة مبكرة ، تزعمون أنه أسلافكم ، إلا أنك تجهل هذا ، حسب حقيقة مؤداها أنه لعدة أجيال متعاقبة كثيرة ، فإن الذين بقوا على قيد الحياة عاشوا وماتوا أميين . »

تتابع التاريخ

(بوليتيوس : الكتاب الثالث . الفصول ٣١ - ٣٢) .

ما من شك في أن هناك بعض المعجبين غير الناقدين سوف يشعرون أنني مضيت في تفاصيل غير ضرورية في مناقشة أصول الحرب الهانيبالية . وسوف يكون ردى أنه إذا ما افترض أى ناقد في نفسه أنه أهل لتناول أى موقف دون معونة ، فإن معرفة السلف في تلك الحالة ، قد لا تكون ضرورة وإن ظلت مثلاً مقبولا . وأياً ما كان الأمر ، فإذا ما أحجم أى كائن بشرى عن ربط هذه الدعوة بشأن ما من الشئون ، سواء كان خاصاً أو عاماً ، واعياً بأنه إذا ما كان ناجحاً نجاحاً مؤقتاً ، فلا يسهل على شخص معقول أن يكون له العذر في أن يتخذ الظروف الراهنة كأسس

لما يتوقعه في المستقبل - وإذا ما كانت هذه هي الوقائع الحقيقية ، عندئذ تؤكد أن الإلمام بالماضي ليس مثالا مقبولاً وإنما ضرورة مطلقة . كيف تسمى لأى واحد منهم سكت حقوقه الشخصية أو حقوق بلاده أن يجد أبطالاً أو حلفاء ، أو كيف يتسنى لأى أحد كان يتوق إلى أن يؤمن هدفاً أو يتوقع منافساً يشجع مفاونيه ، أن يشرع في العمل ؟ وكذلك ، في حالة الاكتفاء بالأهداف موضع النظر كيف يكون له العذر في استنارة أولئك الذين كان يدرج جهودهم لتأييد سياسته الخاصة ولتأمين نتائجها ، وعلى أية حال ، إذا لم يعرف شيئاً من السجل السابق عن الأفراد الذين يشتمل عليهم ؟ ومن الطبيعي أن يوائم كل واحد عباراته وأمثاله من المواقف التي تواجهه ويقوم بالدور المناسب بمهارة تكفي لجعل سياسة الفرد المعين ، من الصعب التنبؤ بها ، وتخفى الحقيقة في عدد مرعب من الحالات . وأياً ما كان الأمر فإن أفعال الماضي ، توضع موضع الاختبار خلال الأحداث الفعلية ، وعلى هذا تاتي ضوءاً حقيقياً على أهداف الأفراد ومواقفهم ، وتكشف في بعضها عن وجود إرادة الخير ، والنوايا الطيبة والمساعدة العملية من وجهة نظرنا ، وإجراءات عكسية في الأخرى . ومن الممكن دائماً ، أن نكتشف ، من أمثلة كهذه ، من يتعاطف مع أسفنا وأشجاننا ، ومن سوف يزكي لنا - إمكانيات تضاف بشكل متعاضم إلى موارد الحياة الإنسانية في كل من الشؤون العامة والخاصة . ولهذا السبب ، فإن كتاب التاريخ وقراءه ينبغي عليهم أن يركزوا انتباهاً أقل على الرواية الركيكة للأجرائات أكثر من الملابس التي تسبق وتصاحب وتعقب أى عمل آخر . فإذا ما استخلصت من التاريخ (لماذا) و (كيف) و (لذلك) من العمل المعين والاتجاه العقلي أو تأمل نتيجته ، فإن ما تبقى من حالاته يكون عالماً أو يصبح عملاً من أعمال البطولة ، من شأنه أن يقدم متعة مؤقته ، إلا أنه بلا فائدة على أية حال للبحث في المستقبل .

وهذا يعني أن هؤلاء الذين يهتبرون أن عملي صعب الإدراك وعسير القراءة بحسب عدد مجلداته وحجمها ، فإنهم يقومون في مفهوم خاطيء . ومن السهل بشكل كبير أن ندركه ونقرأه من الغلاف إلى الغلاف ، على نطاق أربعين مجلداً مجمعة في

جزء واحد وأن نقابع بوضوح إجراءات إيطاليا ، وصقلية ، وشمال أفريقيا منذ فترة « بيرهوس » Pyrrhus حتى سقوط (قرطاجنه) Carthage ، وأعمال بقية العالم منذ هروب « كليومينيس » Cleomenes ملك اسبرطة ، دون انقطاع حتى المعركة بين الرومانيين والآخيين عند برزخ كورنثا ، هذا أيسر من أن ندرك مؤلفات الإخصائيين ونقرأها . وبمزل عن حقيقة أنهم كانوا لعدة مرات أكثر ضخامة من سجلى ، من المستحيل فعلا على القراء أن يخرجوا منها بأية معلومات معينة — أولا ، لأن غالبية هؤلاء الكتاب يقدمون أقوالا مغايرة عن أحداث بذاتها ، وثانياً لأنهم يهملون الأعمال المعاصرة في مجالات أخرى ، على الرغم من أن المنهج المقارن للدراسة والتحليل يتغير في بحث كافة تفاصيله كما قورنت بالنتائج التي يحصل عليها بمنهج التفصيل إلى أبواب . وسبب آخر هو أنهم غير أكفاء لتناول المسائل الرئيسية . لأن العناصر الجوهرية في التاريخ ، كما قلت ، نتائج ولوازم للعقل وفضلا عن ذلك هي أسبابها . إننا نلاحظ أن حرب « انتيوخس » Antiochus قد نشأت من حرب فليب ، وحرب فليب من حرب هانيبال ، والحرب الهانيبالية من الحرب الصقلية ، بينما الأحداث التي تتخللها عديدة ومتشابهة على الرغم من مظاهرها المختلفة ، وهي جميعاً تتجه إلى الموضوع الرئيسي نفسه . ويمكن تعلم هذه الحقائق وإدراكها من كتاب التاريخ العام ، وليس من هؤلاء الذين يكتبون تاريخ حروب خاصة ، مثل حروب (برسسيوس) Perseus أو حرب فليب منفردة ما لم يتصور أى واحد ، في كتابة حكايات المعارك المجردة أنه اكتسب أيضا من أعمال هؤلاء الكتاب مفهوم ما واضحاً من مورفولوجيا الحرب ككل . وأياً ما كان الأمر فإن هذا يعد هوساً كاملاً ، وإننى أدرك أن تاريخى يختلف عن أعمال المتخصصين بشكل عميق اختلاف ما يملمه العقل مما تسمعه الأذن .

شمول التاريخ

(بوليبديوس : الكتاب الخامس . الفصول ٣١ - ٣٣)

لقد أوضحت ، فيما أعتقد ، أنني تكلمت بأن أسجل ، لا مجموعة معينة من الأحداث وإنما ما حدث على نطاق العالم ، وأكاد أبالغ فأقول إنني قد أعددت عملي التاريخي على نطاق أوسع وأكثر من أي ممن سبقوني . وإنه من واجبي أن أبذل أقصى ما يمكن من تبصر حول تناولي وتربيتي ، كما يأتي تأليف واضح للعمل في كل من خطوطه العريضة أو تفصيلاته . وعندما أعود الآن إلى ممالك « أنتيوخس » و « بطليموس » سوف أرجع إلى مسافة قصيرة محاولاً أن أجد نقطة بدء معروفة ومألوفة للقصة التي أنا بصدد تقديمها - وهي محاولة تعتبر أكثر واجباتي ضرورة كمؤرخ . ويقولون في أمثالهم « إن نقطة البدء هي نصف العمل » وأوصي القديم ببدل أقصى انتباه لإحجاز بداية طيبة في أي حالة معينة ، وأن ما يعتبرونه بدورهم ، أنه رواية مبالغ فيها ، في رأي قصور عن الحق . وينبغي أن نؤكد باطمئنان أن نقطة البدء ليست (نصف الكل) ولكنها تمضي قدماً إلى النهاية ومن المستحيل تماماً أن تقيم بداية طيبة في أي شيء بدون ، أن تتوقع سلفاً ، الإحاطة الذهنية بتكملة المشروع أو التأكد من جو وغرض المشروع وسببه . وإنه من المستحيل أيضاً أن نوجز بشكل مناسب ، في العملية - أي مسار أحداث معينة - دون الإشارة إلى نقطة البدء وبيان أين وكيف ولماذا تؤدي هذه الإجراءات العقلية في الوقت المعين ، وينبغي أن تعتبر نقطة البدء بالتالي على أنها لا تمتد إلى مجرد الوسط لحسب وإنما تمتد إلى النهاية ، ونتيجة لذلك ، ينبغي أن يولي أكبر اهتمام إلى نقط البدء سواء من كتاب أو قراء التاريخ الكوني . وأنا لمست غافلاً بالطبع ، عن أن عدداً لا بأس به من الكتاب التاريخيين قد تقدموا بالنعمة نفسها كما فعلت أنا ، وقبلت ، شأني ، شأن كتاب التاريخ الكوني ، أن أحاول تناول عمل على مدى أكبر من أي عمل سابق . وأنا شخصياً سوف أتوق إلى تسامح « ايفوروس » (Ephorus) المؤرخ الأول والوحيد الذي حاول أن يكتب

بأصالة على نطاق عالمي) ، إلا أنني سوف أرفض بحزم متابعة الموضوع أو ذكر أي « من المدعين الآخرين بأسمائهم ، وسوف ألتزم بإشارة إلى أن بعض الكتاب المعاصرين ، يطالبون — بسبب قيامهم بوصف الحرب الرومانية القرطاجينية في ثلاثة أعمدة أو أربعة — بلقب المؤرخين العالميين . والآن ، ليس من أحمد يجمل — بدرجة ينقل معها — ما حدث في تلك الفترة من عدد كبير من العمليات ذات الأهمية القصوى في أسبانيا وشمال أفريقيا وبالمثل في صقلية وإيطاليا ، وأن الحرب الهانيبالية أكثر شهرة وأطول أمداً من أية حرب حدثت من قبل ، فيما عدا ما يتعلق بالحرب الصقلية^(١) ، وقد اضطرنا اتساع أبعادها جميعاً إلى أن نركز انتباهنا عليها . وعلى الرغم من هذا ، هناك كتاب تكون مراجعهم أقصر كثيراً من تدوينات تلك السجلات الرسمية المدونة في أماكن عامة بنظام تقويمي وشكل جدولي ، والتي تؤكد بعد ذلك أنها تتضمن في عرفها كافة اجراءات العالم الهليني وغير الهليني والسبب هو أنه من اليسير تماماً أن تقيم دعوى شفوية إلى كافة الأعمال المفروضة ولكن ليس من اليسير في التطبيق أن تدجز أي شيء يستحق الإنجاز . إن التعجرف مادة شائعة وهي دائماً من أعمال كل إنسان لا يملك سوى ادعاء الوقاحة ، بينما النادر جداً هو بلوغ الشيء عملياً ، وهذا نجده عند أفراد معدودين في الحياة الفعلية لقد دفعت إلى عمل مثل هذه الملاحظات بفعل أضاليل الكتاب الذين يضحخون أنفسهم ويضحخون ما يكتبونه ، إلا أنني سوف أعود الآن إلى نقطة بدء الأحداث التي أقترح هنا تسجيلها .

وحدة التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثامن . الفصل الثاني)

إنني أعبط نفسي لأن التسجيل الفعلي للواقع قد أثبت الآن صدق مبدأ أكدته مراراً في مستهل عملي — وهذا المبدأ هو أنه من المستحيل أن ندرك المقالات ذات

(١) مثلاً... الحرب اليونانية الأولى . (المحقق) .

الموضوع الواحد للإخصائيين التاريخيين وأن ندرك وجهة نظر عن ميورفولوجيا التاريخ العالمي . وعند قراءة رواية جامدة ومعزولة من أعمال صقلية وأسيانيا ، فن المستحيل جداً أن نتحقق أو ندرك ضخامة الأحداث محل البحث أو وحدتها ، وأعني بها الوسائل والأنظمة التي أفاد منها التاريخ حتى يكمل ما كان أكثر أعماله شذوذاً في جيلنا . وهذه التهمة ليست سوى إيقاع سائر العالم المعروف تحت نير إمبراطورية واحدة - وهي ظاهرة ليس لها مثيل من قبل في التاريخ المسجل . ويمكن إدراك معرفة محددة عن العمليات التي استولت بها روما على سيراكوز وهزمت بها أسبانيا ، دون شك ، من كتابات الإخصائيين ، إلا أنه من العسير بدون دراسة التاريخ العالمي ، أن ندرك كيف بلغت روما التفوق الشامل ، وأية أحداث محلية وخاصة عاقبتها عن تنفيذ مشروعاتها العامة ، وكذلك ، ماهي الأحداث والأزمات التي تعزى إلى نجاحها . لأنه من السهل على أية حال للأسباب ذاتها ، أن ندرك عظمة جهود روما أو قوة أنظمتها . ولا يبدو نزاع روما لما تستحوذ عليه أسبانيا وصقلية أيضاً ، ومباشرتها حملات إلى كلا المنصرين ، لا يبدو أنها مسألة ذات شأن إذا ما نظر على حدة . وهذا يحدث فقط عندما نأخذ في اعتبارنا أن الحكومة نفسها ومجموعة الدول توجد نتائج في مجالات أخرى متباينة بذات الوقت مع مباشرة هذه العمليات ، وعندما ندخل في العرض ذاته الأزمات الداخلية وأنواع النضال التي تعرق أولئك المسؤولين عن كافة أنواع النشاط المذكورة آنفاً بشكل موسع ، وهو أن الخواص الواضحة للأحداث تتضح جيداً وتولى الانتباه الذي تستحقه . وهذا هو ردى على أولئك الذين يتصورون أن عمل المختصين سوف يدخلهم زمرة التاريخ العالمي والشامل .

القسم الرابع القانون والتعليل

الحمية

(هيردوت : متفرقات)

- ١ — كان على الشر أن يلحق ب « كاندولس » Gandaules ، وعلى هذا لم يمض وقت طويل .. (الكتاب الأول . فصل ٨) .
- ٢ — كاتب الشر على وشك ، أي ما كان الأمر ، أن يحلب (سكيليس) Scyle ، وبالتالي أفاد من الفرصة التالية .. (الكتاب الرابع ، فصل ٧٩)
- ٣ — ولم يكن مقدر أن تدمر هذه الحملة ناكسوس Naxos . وعلى هذا وقعت الحادثة التالية ... (الكتاب الخامس ، الفصل ٣٣)
- ٤ — كان على (كورنثا) أن تجني محصول الشر من بذور « اتيون » ، لأن ... (الكتاب الخامس ، الفصل ٩٢) .
- ٥ — كان لابد وأن تكشف هذه القصة بشكل واضح حتى يحرم « داماراتوس » Damaratus من عرشه ... (الكتاب السادس ، الفصل ٦٤)
- ٦ — وسوف لا تسمح راعية معبد دلفي بعقاب « تيمو » Timo وأعلنت أنها غير مسؤولة ، إلا أن « ميليتادس » Miltiades أتى إلى نهاية سيئة ، وقدر لتيمو أن يتسوق قدميه إلى طريق الدمار .. (الكتاب السادس . الفصل ١٣٥)
- ٧ — من « كسر كسيس » إلى « ارتابانوس »
« من المستحيل على أي فريق أن يخلص نفسه ، ووضعت قوائم المنتصرين والضحايا ، كي تقع كل أملاكنا إلى الهلنيين أو الفرس . وفي هذا الشأن لا يمكن أن تكون هناك مساومة .. (الكتاب السابع الفصل ١١) .

٨ — ارتابانوس .. وقد ارتدى ملابس كسر كسيس ، وجلس على العرش الملكي وبعد ذلك ذهب لينام ، حيث ظهر له وقتئذ في نومه الحلم نفسه الذي راود كسر كسيس كثيراً . وخيم الطيف على ارتابانوس وقال : « هل أنت الرجل الذي يشبط همة كسر كسيس من اللحاق بالحملة ضد هيلاس ، على غير مصالحه إنني أحذرك بأنك سوف لا تكون ملزماً بمحاولة تغيير ماهو كأن ، سواء مباشرة أو بعد ذلك . أما بالنسبة لكسر كسيس ، فإن العقوبة التي تعرض لها من جراء عصيان ما كشف له شخصياً » وفي تنفيذ هذه التهديدات الشفهية ، ظهر الطيف إلى ارتابانوس حتى يكون على استعداد أن يكوى عينيه بالحديد الساخن ، عندما رحل بصرخة شديدة . (الكتاب السابع ، الفصول ١٧ - ١٨)

٩ — وعندما تحيروا ، اكتشف الشرقيون وسائل اقتحام القلعة ، لأن البنية أخبرتهم أن كل أرض أتيكا الأصلية ، سقطت في قبضة الفرس (الكتاب الثامن الفصل ٥٣)

١٠ — وكان من المحتم أن يحبل الشر بـ « ارتايانت » Artaynte وسائر بيته ، وتبعاً لهذا أجاب كسر كسيس . (الكتاب التاسع الفصل ١٠٩)

نذير

(هيرودوت : الكتاب السادس الفصل ٩٨)

وبعدئذ أبحر « داتيس » Datis بحملته إلى قبلته الأولى ، (ارتريا) Eretria وبعد رحيله من (ديلوس) Delos اهتزت الجزيرة بفعل زلزال — وهي الحادثة الأولى والأخيرة حتى الآن ، كما يجزم السكان . ولعل هذا الحادث كان من علاقات الشؤم التي كشفها الله للبشر كنذير بالكوارث القادمة . وفي الأجيال الثلاثة المتتالية التي اشتمل عليها حكم « داريوس » بن « هستاسبس » Hystaspes ، وحكم « كسر كسيس » بن « داريوس » و « ارتا كسر كسيس » ابن « كسر كسيس » ، قاسى الهلينيون من أكبر عدد من الكوارث أكثر مما

حدث للأجيال العشرين السابقة على « داريوس » — ووقع البعض في أيدي
الفرس ووقع الآخرون في أيدي الدول الهلينية الرئيسية نفسها في نضالها من أجل
السيادة. وعلى هذا ، ليس هناك شيء شاذ في أن تهتمز ديلوس بالزوال بعد تسجيل
سابق غير منقطع من المناعة .

القانون التقدير

(هيرودوت : الكتاب الثالث . الفصل ٣٨)

توضح لي كل الظروف أن « قمبيز » كان قد فقد عقله تماماً . وإلا فما كان
يحاول على الإطلاق أن يصب السخرية على عادات دينية كانت أودنيوية . ولو
كان الجنس البشري ^{منتهى سورا الأثرية} _{www.godking.net} قد أعطى مجالاً حرّاً وتعلم اختيار أفضل القوانين من
بين سائر قوانين الوجود لكان قد اختار قوانينه بعد تبصر مناسب — وهو
مقتنع بأنه لديه بالذات تفوق لأحدله . وعلى هذا فمن غير الموثوق به أن أى أحد
لم يقدر عقله من شأنه أن يسر من مثل هذه الأنظمة . وتأكيدي هو أن كل الجنس
البشري الذى يدرك هذا الاعتقاد فيما يتعلق بالقوانين قد يختلف بعدد من الأدلة ، التى
من بينها أقدم الأدلة التالية . عندما كان « داريوس » على العرش جمع في
حضرته الهلنيين فى بلاطه وسألهم بأى ثمن يرضون بأن يبيدوا آباءهم عندما يموتون؟
فأجاب الهلينيون بأن كل النقود فى العالم ليس من شأنها أن ترغبهم فى مثل هذا
العمل ، وبعد هذا جمع « داريوس » الهنود الجلائين الذين يأكلون آباءهم ،
وسألهم (فى حضور الهلنيين ، الذين كانوا يحاطون علماً ، عن طريق مترجم) بأى
ثمن يرغبون فى حرق آباءهم عندما يموتون . فصرخ الهنود عالياً والتمسوا منه
ألا يواصل هذا الموضوع الذى لا يمكن ذكره — وهى قصة توضح الموقف الطبيعى
للجنس البشري إزاء هذه المسألة ، والتى ، فى رأى . تبرر حكمة « بندار »
Pindar الشعرية التى تقول إن « القانون سيد الجميع »

القانون الطبيعى

(مدرسة هيپوقراط القوسى Hippocrates of Cos ٤٥٩/٤٦٠ — ٣٦٨

ق . م . مجموعة الأعمال ، نص تويبىز تحقيق كيوهيلفن Hr. Kuchlewein
المجلد الأول ص ٦٤ — ٦٦ = مؤثرات الجو والماء والموقع (الفصل ٢٢) .

ينسب الأهلون تعليل هذا المرض ^(١) إلى الله ، وهم يجعلون ضحاياهم ويمبدونها خوفاً من أن يصرعهم هم أنفسهم . وأنا بالمثل ، أقول بأن هذه الظواهر مردها إلى الله ، ولكننى أتخذ النظرة ذاتها إزاء جميع الظواهر ولا أنظر إلى ظاهرة بعينها على أنها ربانية أو فوق الإنسان من أى ظاهرة أخرى . فجميعها ، فى نظرى واحدة وربانية ، إلا أن كل ظاهرة تخضع لقانونها الخاص ، والقوانين الطبيعية لاتعرف الاستثناء وسوف أشرع الآن فى شرح نظريتى عن هذا المرض . .

[يأتى بعد ذلك تحليل علمى]

وضحايا هذا المرض ليسوا من طبقة (المرتحلة) الدنيا ، ولكنهم أعضاء أفضل الأسر التى توفر لها أقوى بنية جسمانى . وأصابهم المرض بسبب الركوب . والفقراء محصنون نسبياً لأنهم لا يركبون . وأيا كان الأمر ، فعلى أساس افتراض أن هذا المرض فى صورة ما ربانى أكثر من غيره ، فإنه ينبغى ألا يهاجم بصفة خاصة خيرة (المرتحلين) نسبياً وحسباً ، ولكن كل الطبقات سواء ، أو إذا كانت هنالك تفرقة ، لكان علينا أن نتحدث ضد أولئك الذين لا يملكون سوى القليل — هذا إذا كانت الأرباب يسرها حقيقة أن تحظى بالثشريف والإعجاب من جانب الأدميين ويردون مثل هذه العناية بمعروف من لذنهم ولنفرض أن الأغنياء بما أوتوا من ثراء طائل هم الذين يقدمون الذبائح للأرباب دائماً ويؤدون مظاهر الولاء والتكريم ، بينما يختلف الفقراء عنهم فى هذا المجال ، بسبب ضيق ذات اليد أو

(١) يناقش المؤلف مرضاً خاصاً بالسكان الرحالة فى أقاليم الإستبس إلى شمال البحر

الأسود . (المحقق) .

لثورة على الأرباب لأنهم منعوا عنهم خير الدنيا . وعلى هذا الأساس ظاهرياً ينبغي أن يلتقى أولئك الفقراء القضاض على مثل هذا التخلف أكثر من الأغنياء وأياً ما كان الأمر ، ففي الحقيقة على نحو ما بينت سلفاً ، فإن هذه الظاهرة ربانية فحسب بقدر ما تكون أى ظاهرة أخرى ، وكل ظاهرة تخضع للقانون الطبيعي .
البيئة والطبع

(هيرودوت : الكتاب التاسع الفصل ١٢٢)

« أرتايكس Artayctes هذا الشخص الذى أمات شهبواته كما بينت كان له جند يدعى « ارتيمبارس Artembares » ، وكان أول من اقترح على زملائه بنى وطنه الفرس الرأى الذى تبنيه وطرحوه أمام « قورش » Cyrus وهو على الوجه التالى :

«الآن ، وقد أنزل زيوس استياجس Astyages من كرسيه وفتح السيطرة لك ولأمة الفرس ، يامولاي ، نسألك شخصياً ، لماذا لاينبغى أن نهجر من الإقليم المحصور والصخرى الذى نملكه حالياً ، ونحتل إقليماً أفضل ، هناك أقاليم كثيرة قريبة وفى متناول اليد وكثير منها على بعد مسافة ، وما علينا إلا أن نختار حتى نقيم نفوذاً على العالم أكبر مما عليه نفوذنا الآن . وهذه سياسة تتفق مع شغب يسفى إلى التوسع ، ولن تكون لنا فرصة لتحقيق ذلك خيراً من الآن عندما تقوم إمبراطوريتنا على سكان أوسع وعلى سائر قارة آسيا .»

أما « قورش » الذى استمع ولم يتأثر ، فأمر الذين طلبوا منه هذا أن يفعلوا مايتراءى لهم ، إلا أنه شفع نصيحته بأن أخبرهم بذات الوقت أن يعدوا أذهانهم لتغيير المراكز مع رعاياهم الحاليين . وأخبرهم أن البلاد المستوية تربي رجالاً مسلمين بشكل ثابت ، ومن المستحيل على الفرد والبلد ذاته أن ينتج محاصيل جيدة ، وجنوداً حقيقيين . وسلم الفرس بذلكاء قورش المفرط ، واعترفوا بخطئهم ، وتنازلوا عن اقتراحهم وآثروا أن يعيشوا كشعب امبريالى فى بلدوعدة عن أن يزرعوا الأراضي اللواطنة كما يفعل عبيد الأمم الأخرى .

البيئة والسياسة

(هيبو كراتس : تأثير الجو والماء والموقع الفصل ١٦)

لقد ناقشنا الآن الاختلافات العضوية والبنائية بين سكان آسيا وأوروبا ، إلا أننا مازلنا نضع في اعتبارنا المشكلة الخاصة بسبب كون الآسيويين أقل نزوعاً للحرب ، ولماذا يستكينون للطفانيان أكثر من الأوروبيين : إن النقص الملحوظ في روح سكان آسيا وشجاعتهم يعود بشكل رئيسي إلى التغير الموسمي في درجة حرارة تلك القارة ، التي هي ثابتة تقريباً على مدار السنة . ومناخ كهذا ليس من شأنه أن يوجد تلك الصدمات العقلية والتفسيخ الجسدي الذي يجعل المزاج ضارياً من الناحية الطبيعية ويقدم تياراً أقوى من اللاعقلية والانعزال الذي لا يحدث في ظل ظروف مستقرة . إن التغيرات الثابتة تنبه عقل الإنسان وتمنعه من البقاء سلبياً : وهذه هي الأسباب ، في رأيي ، لعدم كون العنصر الآسيوي ميالاً للحرب ، إلا أنه ينبغي ألا أغفل عامل الأنظمة . فإن الجزء الأعظم من آسيا تحت حكومات ملكية ، وحينما لا يكون الناس سادة أنفسهم وعناصرهم حرة وإنما تحت حكم طفانيان ، فإنهم لا يعمدون بأن يكونوا عناصر حربية فعالة ، وإنما على العكس ، يتجنبون اعتبارهم مادة حربية جيدة — السبب الذي من أجله لا يظهرون على أنهم كفتين متوازيتين . فمن المفروض ، أن يخدموا ويناضلوا ويموتوا في ظل إكراه سادتهم بعيدين عن أعين زوجاتهم وأطفالهم وأصدقائهم . وعندما يدعون السلاح ، فإن سادتهم هم الذين يميون المجد ويكبرون بفعل أعمالهم ، بينما يكون نصيبهم من المنافع هو المخاطرة وفقدان حياتهم . وليس هذا فحسب ، ولكن في حالة شعب في مثل هذه الظروف ، فما لامناس منه أيضاً أن العاقبة من عدم النشاط على غياب الحرب لا بد وأن يكون لها تأثير أليف على المزاج ، ولهذا فحتى القرد الشجاع والذشيط بطبعه من شأنه أن يكون رادعة على الجانب الذهني بفعل الأنظمة المنتشرة . وثمة حجة قوية في صالح رأي أن الهلينيين وغير الهلينيين في آسيا الذين لا يقعون تحت حكم الطغاة ، ولكنها عناصر حرة تناضل من أجل مصالحها الخاصة . وهي تنزع للحرب كأي

شعوب أخرى في العالم — السبب ينبع من كونهم يراهنون بحياتهم في سبيل قضيتهم الخاصة ويجنون ثمار شجاعتهم الخاصة (ويماقبون على جنبهم في المساومة) . وسوف نجد أيضاً أن الآسيويين يختلفون فيما بينهم الواحد عن الآخر ، فيكون البعض رقيقاً ويفتقر الآخر إلى هذه الصفات ، وهذه الاختلافات لما سبيلها أيضاً في التغيرات الجوية الموسمية ، كما قررت من قبل .

البيئة والعنصر

(هيبو كراتس : تأثيرات الجو والماء والموقع الفصل ٢٤)

أصبح عرضنا المقارن لأوروبا وآسيا الآن ، كاملاً في الخطوط العامة . وأياً ما كان الأمر فهناك في أوروبا ذاتها ، عدد من كميات متميزة توضح اختلافاتها البناء والتناسب والصفات الخلقية إن العوامل المتميزة هي بذاتها التي وصفت في الملاحظات السابقة ، إلا أنني سوف أوضحها مرة ثانية بتحديد أكثر . ويميل سكان البلدان الجبلية الصخرية والروية جيداً على علو مرتفع^(١) ، حيث يتسع هامش التغيرات المناخية الموسمية ، يميلون لأن يكون لديهم أجسام ضخمة جبلت مزاجياً على الشجاعة والتحمل ، وفي مثل هذه الطبيعة سوف يكون هناك عنصر لا بأس به من الضراوة والوحشية . وسكان التجاوير الحارة المغطاة بمروج الماء^(٢) المعرضة بشكل عام للرياح الحارة أكثر من الباردة والذين يشربون المياه الفاترة — فهم على النقيض — ليست أجسادهم ضخمة أو نحيفة ، إلا أنها أكثر سمكا ممتلئة ، وذات شعر أسود ، مع بشرة قائمة أكثر منها بياضاً مع فتور أكثر من الاصفرار في بنيتهم . وسوف لا تكون الشجاعة والتمجّل فطرية في طباعهم بالدرجة نفسها ، ولكنها سوف تكون جديرة بأن توجد فيها بفعل عناصر الأنظمة . فإذا ما كانت هناك أمهار في البلد التي تمتص منها المياه الرائدة ومياه الأمطار ، فإن السكان سوف يتمتعون بالصحة والأحوال الجيدة ، بينما إذا لم تكن هناك أمهار وتأتي إليهم مياه الشرب من البحار

(١) (ايتوليا) Aetolia (المحقق) .

(٢) « قلب أسبرطه » (المحقق) .

الراكدة والمستنقعات ، فإن أجسادهم تتلف طحالمهم وتميل إلى أن تصبح أوعية شرهة . أما سكان البلاد المدرجة ، والتي تكتسحها الرياح ، وجيدة المياه لدرجة عالية ^(١) ، تكون أجسادهم جيدة ، ويكونون غير قرويين ، مع مسحة من الخوف والألفة في طباعهم . أما سكان البلاد ذات التربة الرقيقة ، وقليلة المياه وعدية الخضراوات ، حيث التغيرات المناخية الموسمية ، فيكونون غلاظاً ويمتازون بالعنف ^(٢) ، ويميلون إلى أن يكون لهم أجساد كبيرة العظام وعضلية ، وتميل بشرتهم إلى البياض أكثر منها قاتمة ، ورأس عنيد ، وطباع ذات إرادة ، حيث التغيرات الموسمية دأمة في الغالب ويتضح الهامش الأكبر في التغير ، وسوف نجد هناك الفرق الأكبر في الجسد الإنساني والطباع والحيوية .

وهذه هي أكثر التغيرات أهمية في الأجهزة ، وهناك إذن تأثير البلد والماء التي تشكل البيئة الإنسانية . وفي أغلب الحالات ، سوف تجد أن الجسد الإنساني والطبع تختلف طبقاً لطبيعة البلاد . وحيث تكون التربة خصبة ولينة وجيدة الإرواء ، وحيث تبقى المياه لدرجة كبيرة قرب السطح ، ولهذا نجد هاراكدة صيفاً وضحلة شتاء ، وحيث تكون الظروف المناخية صالحة أيضاً ، فيكون السكان ممتلئين ومفاصلهم رخوة ومترهلين ولا طاقة لهم وغير نشطين في الاتجاه العام : وسوف يكون الكسل والنوم شائعاً بين مميزاتهم ، وسوف يكونون غلاظاً بدلا من الرقة أو سريعين في الأشغال ^(٣) الدقيقة . وحيث تكون البلاد صخرية وقليلة المياه وبلاخضر ، ويقاسون من شتاء قارس وشمس حارقة ^(٤) سوف نجد السكان بارزى العظام وبلا لحم فائض وذوى مفاصل وعضلات جيدة ، وأجساد خشنة . ومثل هذه البنية مطبوعة على الطاقة والنشاط ، وأصحابها شديدي المراس ، وذوو إرادة صلبة ، ويميلون للبطش بدلا من الألفة ، وسرعة

(١) داخل شبه جزيرة أناتوليا (المحقق) .

(٢) استيس جنوب روسيا (المحقق) .

(٣) نجد وضماً لسكان (كوتيس) أو غرب جورجيا في الفصل ١٥ من هذا البحث .

(المحقق) .

(٤) أتیکا .

فائقة وذكاء في الأعمال الدقيقة واستعداد فائق للحرب . وسوف تجد فيما بعد أن النباتات تختلف أيضا حسب نوعية تلك التربة . ولقد وصفت الآن التناقضات الصارخة للبيئة وأعضائها ، وسوف لا تجانب الصواب إذا ما قمت بتحليل البقية بنفسك .

تعريف أتيكا

(أفلاطون : مجموعة الأعمال ، نص أ . كسفورد ، المجلد الرابع : كريتياس Critias ١٣ - د) .

يمكن أن توصف أتيكا المعاصرة على وجه الدقة بأنها مجرد بقايا البلاد الأصلية ، وهو ما سوف أشعر في إيضاحه . ومن ناحية الشكل ، تتكون أتيكا كلها من شبه جزيرة مستطيلة ناتئة من اليابسة في البحر . ويميل الحوض البحرى الداىرى بالمحدار حول كل الشريط الساحلى . ونتيجة للطوفانات العنيفة المتتالية التى حدثت خلال تسعة الآلاف عام الماضية ^(١) ، كانت هناك حركة دائمة من التربة بعيدة عن العلو المرتفع ، وتبعاً ، لبروز الساحل المنحدر ، فإن هذه التربة بدلا من أن تطرح الطمى ، كما تفعل دائماً ، إلى درجة ذات بال ، غرقت بشكل متناوب فى البحر العميق الذى يحيط بالبلاد ، بعبارة أخرى ، ضاعت هذه التربة . وعلى هذا تمرضت أتيكا للعملية التى تلحظها فى جزر صغيرة ، ومابقى من أرضها يشبه هيكل جسد أضناه المرض ، إذا ما قورن بتضاريسها القديمة : وقد ذابت التربة الخصبه واللينه كلها ، تاركة بلداً من جلد وعظام . وأياما كان الأمر ، فى الفترة التى نحن بصدد تناولها ، عندما كانت أتيكا ما تزال فى حالة سليمة ، فإن جبالها التى هى شاهقة حالياً ، وتلالها المتربة ، وما يعرف لسيولها الخصباء فى الأيام الراهنة ، كانت مليئة بتربة خصيبة ، وكانت جبالها غابات كثيفة - وهى حقيقة ما يزال لها أثار يمكن تبينها . لقد كانت هناك جبال

(٣) هى الفترة التى تفصل عصرنا عن الفترة التى نحن بصدد تناولها . (المؤلف) .

في أتيكا ، ليس منها الآن سوى النمل ، كانت مكسوة ، لا من زمن بعيد جداً بأشجار جميلة تنتج أخشاباً تصلح لسقف أكبر المباني ، ومازالت الأسقف من الأخشاب موجودة . وكانت هناك أيضاً أشجار باسقة ، بينما أنتجت البلاد مراعى لا حدود لها للماشية . ولم تنقطع الكمية السنوية من الأمطار ، كما يحدث الآن بسبب فيضانها على سطح عادى إلى البحر ، إلا أن البلاد تقبلتها ، على وفرتها ، في باطنها ، حيث تختزنها في فخارها الأرضى الذى لا ينضب ، وعلى هذا كانت قادرة على أن تخزن مصارف المرتفعات في الفجوات في شكل الينابيع والأنهار مع كثرة غزيرة ومع توزيع إقليمى واسع . وتعتبر الصحاريج الباقية حتى يومنا هذا على مواقع إمدادات المياه المقرضة دليلاً على صواب افتراضى الراهن .

التعلييل جوهر التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الحادى عشر ، الفصل التاسع عشر ٣)

ماذا يفيد القارىء أن يخوض في حروب ومعارك وحصار واسترقاق الشعوب مالم يكن يقصد إلى أن يذهب إلى ما وراء ذلك فيقف على الأسباب التى أدت إلى انتصار فريق وهزيمة الفريق الآخر في موقف بذاته كل على حدة ؟ إن نتائج العمليات تتمتع القارىء فقط ، بينما البحث في المواقف السابقة إنما يفيد الدارس الجاد . إن تحليل حادث بعينه بغير تفاصيل ميكانيكية ، خير ثقافة من بين سائر الثقافات للقراء الذين لهم صبر على متابعة العملية .

أسباب بعيدة وأسباب قريبة

(بوليبيوس : الكتاب الثانى والعشرون ، الفصل ١٨)

يمكن تتبع بداية المصائب التى لا علاج لها والتى لحقت بالبيت المالك في (مقدونيا) منذ هذه الفترة . وأدرك بالطبع ، أن مؤرخين عديدين للحرب بين روما وبرسوس « Perseus » ، سردوا أول ما سردوا ، في مسعاهم ، لتفسير أسباب النزاع ، طرد « هابروبالس » Habrupalis من ولايته ثاراً منه لغارته على منطقة (م ١٢ — الاغريق)

المناجم في (بانجاييم) بعد وفاة فيليب (عندما خف برسوس لنجدته . هزم الأمير السابق ذكره هزيمة تامة ، وطرده من أملاكه) . وبعد ذلك ، أوردوا غزو « برسوس » ل (دولوبيا) Dolopia وزيارته لدلفي ، وأوردوا كذلك المؤامرة التي أبرمت في دلفي ضد الملك « يومينيس » Eumenes ملك (برجاموم) Pergamum واغتيال مبعوث بويوتيا - وهي أحداث كان من شأنها ، طبقاً لرواية بعض الكتاب ، أن نشبت الحرب بين برسوس وروما . وفي رأيي ، ليس هناك شيء ضروري للكتاب أو لدارسي التاريخ مثل إدراك تلك الأسباب التي تفسر تكوين أية سلسلة من الأحداث وتطورها . إلا أن المشكلة قد حدثت حولها بلبلة في كتابة معظم المؤرخين بسبب الفشل في إدراك الاختلاف بين المناسبة وسببها ، وكذلك بين بداية الحرب ومناسبتها . وعند هذا الموقف الراهن ، أجد نفسي مدفوعاً بشكل واضح من جانب مادة الموضوع التي أُمّيت إلى أن أعود لمناقشة المسألة .

ومن بين الأحداث المذكورة آنفاً ، تعتبر الأحداث الأولى أسباباً ، بينما تشكل المجموعة التالية (بما فيها المؤامرة ضد الملك يومينيس ، ومذبحة السفارة وأحداث أخرى ذات طابع مماثل حدثت في الوقت نفسه) تشكل ، بدرجة لا يخطئها أحد بداية الحرب بين روما وبرسوس والإطاحة بالإمبراطورية المقدونية . وأياً ما كان الأمر ، فمن الناحية الحرفية ، ليس هناك حادثة من هذه الأحداث تعتبر السبب الرئيسي ، كما سوف أوضح الآن . لقد أكدت من قبل أن فيليب بن أمينتاس Amyntas هو الذي تصور واقترح أن يقوم بتنفيذ خطة الحرب ضد فارس ، بينما كان الإسكندر عاملاً قام بتدبير الإجراءات مترسماً قرارات والده السابقة . وأعود بالطريقة ذاتها لأؤكد أن فيليب بن ديمتريوس هو الذي تصور أصلاً مشروع التكفل بالحرب النهائية ضد روما ، وأنه هو الذي أعد الأسلحة على أهبة الاستعداد لهذا الغرض ، بينما « برسوس » كان مجرد عميل قام بتنفيذ الأعمال عندما أطلق والده يده . فإذا ما كان هذا صحيحاً ، فإن رأيي يحمل في طياته صحته ، لأن أسباب الحرب لا يمكن أن تكون لاحقة تاريخياً بوفاة

الشخص الذى قرر هذه الحرب ورسم خطتها . وأياً ما كان الأمر ، فهذا هو مضمون الرواية التى يقدمها المؤرخون الآخرون ، لا بد أن كافة الأحداث التى وردت فى أعمالهم بهذا الصدد لاحقة لوفاة فيليب .

سلوى الفلسفة

(ماركوس أوريليوس أنطونينوس الإمبراطور: رسائل ذاتية ، نص أ كسفورد تحقيق أ . ه . نيوبولد I. H. Leopold الكتاب الثانى : الفصل ١٧^(١) .

الحياة الإنسانية ! أجلها موقوت ، قوامها رخو دائماً ، وإحساساتها قائمة ، وبنائها البدنى قابل للهلاك ، ووجدانها دوامة ، ومصيرها مظلم ، وشهرتها فى واقع الأمر زائفة ، وعنصرها المادى مجرى منحدر ، وأما عناصرها الروحية فأضغاث أحلام ، والحياة سجال ، والإقامة فيها مؤقتة فى بلد ناء ، والشهرة نسيان . فما الذى يمكن أن يهديننا خلال هذه الحياة ؟ إنه شيء واحد لا غير - الفلسفة ، وهذا يعنى أن تبقى روحنا غير تالفة وغير ملوثة . . . وأن تسمح باللذة أو الألم ، وألا نعمل دون أن نفكر وألا نعمل بغش أو بغير إخلاص ، ويعنى ألا نكون معتمدين على مساندة الآخرين المعنوية . ويعنى أيضاً تقبل ما يحدث برضاء شأنه شأن كافة أجزاء العملية التى يرجع إليها وجودنا ؛ ويعنى - فوق هذا كله - مواجهة الموت بهدوء ، وتقبله ببساطة على أنه تحلل ذرات كل عضو حتى يتركب منها . إن تحولها الدائم لا يؤذى الذرات ، وعلى هذا لما ينبغى على المرء أن يفكر فى كافة الأعضاء التى تتحول وتتحلل ؟ إنه قانون الطبيعة ، وقانون الطبيعة لا يخطئ أبداً .

(١) كتبت فى معسكر كارنونتوم Carnuntum على حدود الدانوب (المحقق) .

القسم الخامس

حجة وملاحظة

أصول العنصر الهليني

(هيرودوت : الكتاب الأول ، فصول ٥٦-٥٨)
أجرى « كرويسوس » تحقيقاً عن أية دول هي الأعظم في هيلاس ، بغرض ،
أن يضمن تأييدها الودى ، ونتيجة لهذه الأبحاث ، وجد أن الإسبرطيين والأثينيين
يبرزون من بين الشعوب الدورية والأيونية على التوالي . ومن بين هذه الشعوب
التي تركت أثارها ، الأيونيون وهم أصلاً بلازجيون والدوريون ذوو أرومة هلمينية
وفي حين أن العنصر الأخير لم يرح موطنه ، كان العنصر الأول يهاجر بشكل مطرد
وفي زمن الملك « ديوكاليون » احتلت القومية الأولى إقليم (منيثوتس) ، وفي
زمن (دورس) Dorus بن « هيلين » أطلق على البلاد اسم (هستيايوتس)
Histiaeotis عند سفح جبال (أوسا) Ossa والأوليمب . وبعد أن تم طردهم من
هستيايوتس على أيدي الكادميين Cadmeians ، استقروا في (بندس) Pindus
واكتسبوا اسم (مقديني) Macedni . وتحركوا مرة أخرى (من بندس)
إلى (دريوبس) Dryopis ومن دريوبس عبروا مباشرة إلى (بليبونيزيا) حيث
عرفوا باسم (الدوريين) . أما فيما يختص باللغات التي تكلمها البلازجيون ، فليس
لدى معلومات دقيقة ، إلا أنه من الممكن أن نستشهد بدلالة البلازجيين^(١) الذين
مازالوا موجودين ، والذين يشغلون مدينه (كريستون)^(٢) Creston في قلب
(الترهينيان) Tyrrhenians ، ومن البلازجيين^(٣) الآخرين الذين استوطنوا

(١) الجيران السابقون للشعب الذي يسمى الآن الدوريون ، في الفترة التي احتل البلازجيون
فيها المنطقة التي تسمى الآن تساليوتس Thessaliois (المؤلف)
(٢) في المنطقة التي تسمى الآن مقدونيا الشرقية (المحقق)
(٣) حلوا أولاً في الإقليم نفسه مثل الأثينيين (المؤلف)

(بلاكيا) Piacia وصقلاسيا Scylaei على جبال البنط Hellespont ، ومن المجتمعات المختلفة الأخرى من العنصر البلازجيوى التى غيرت أسماءها القومية . وإذا ما أمكن أن نستمد الاستدلال من الشواهد، لقلنا بأن البلازجيين الأصليين قد تكلموا لغة ليست يونانية ، وأن القومية الأثينية البلازجيوية لا بد أن تكون قد تعلمت لغة جديدة وقت أن تحولت من البلازجيوية إلى الهلينية . وعلى أى وجه من الوجوه فإن سكان كريستون وبلاكيا ، الذين لم يتكلموا بأية حال اللغة ذاتها التى تكلم بها جيرانهم ، كان عليهم أن يتكلموا لغة بين الواحد والآخر ، ويتبين من هذا أنهم احتفظوا باللغة المعينة التى جاءت معهم عندما هاجروا أصلاً إلى هذين المكانين . ويقابل هذا ، أن العنصر الهليني قد استخدم لغة خاصة بشكل مستمر ، عندما جاء إلى الوجود^(١) وبعد أن انسلخوا من العنصر البلازجيوى ، وجدت اللغة نفسها ضعيفة ، إلا أنهم ترايدوا من هذه البدايات الصغيرة حتى أصبحوا يضمون الآن عدداً من القوميات ، وقواها الرئيسية ذات أصل بلازجيوى ، إلى جانب قوميات أخرى عديدة ، ذات أصل غير هلىنى . ورأى الأخير هو أن الأصل غير الهلىنى فى الروايات البلازجيوية ، بشأن الفشل الكامل إلى هذه القومية ينمو إلى أبعاد لا بأس لها .

مصر مهد الحضارة

(هيرودوت : الكتاب الثانى . فصول ٤٨ — ٥٨)

إن الطقوس الدينية ، فيما عدا عنصر الجوقة ، فى الاحتفال بـ « ديونيسوس » تتشابه عملياً فى كافة تفصيلاتها مع الطقوس الهلينية . . والأمر عندى هو أن « ميلامبوس » Melampus وهو رجل عبقرى ، لم يبتدع إجراءات التنبؤ لنفسه فحسب ، وإنما طلب المعرفة من مصر ، مما نتج عنه عبادة « ديونيسوس » وكثير من البدع الأخرى فى هيلاس ، مع تعديلات طفيفة عن شكلها الأسمى . وإننى

(٤) هذه مسألة لا أشك فيها أنا شخصياً (المؤلف) .

لا أستطيع أن أسلم بأن التشابه بين طقوس ديونيسوس في مصر وهيلاس مجرد صدفة ، لأنه في تلك الحالة كان يجب أن تكون الطقوس الهلينية متطابقة مع الطقوس الهلينية الأخرى ولا تكون ابتداءً حديثاً . وكذلك فإننى لا أستطيع أن أسلم بأن المصريين قد اقتبسوا هذا النظام ولا أى شكل آخر من الهلنيين . والذي أتصوره أن مصدر المعلومات الرئيسى عند « ميلامبوس » الخاص بديونيسوس كان هو « كادموس الصورى » وأن أتباعه المستوطنين من فينيقيا هم الذين استوطنوا في البلد الذى يسمى الآن (بويوتيا) والحقيقة هى أن أسماء سائر الآلهة تقريباً قد وفدت إلى هيلاس من مصر . ولقد أقيمت الحقيقة العامة عن أصلها غير الهليني بالبحث والتقصى ، وى رأى أن موطنها الأصلي من المحتمل أن يكون مصر إلى حد كبير . لقد ذكرت فعلاً أن أسماء سائر الأرباب الهلينية الأخرى محلية في مصر^(١) ، باستثناء « بوسيدون » Poseidon و « الديوسكورى » Dioscuri « وهيرا » Hera و « هستيا » Hestia و « ثيميس » Themis و « جراسيس » Graces و « نريديس » Nereids وفيما يختص بالأرباب التى لا يزعم المصريون أن أسماءها تابعة لهم ، فإننى أتصور أنها أخذت عن البلازجيين^(٢) ، وأياما كان الأمر ، فليس هناك شئ في مصر يطابق عبادة القديسين^(٣) .

وهذه الأنظمة ، شأنها شأن أنظمة أخرى سوف أشرع في وصفها ، قد جلبها الهلينيون من مصر أما إظهار الهلنيين (لهرميس) Hermes ، من جهة أخرى . فلم ينقله المصريون عنهم وإنما نقله البلازجيون ، والذي نقله عنهم في بداية الأمر الأثينيون ، وعن هؤلاء نقلها سائر الهلنيين^(٤) . وسوف يتضح ما أقصد إليه لكل من يتعمق في أسرار عبادة كابيرى Cabeiri التى يحتفل بها في ساموثراس ،

(١) في هذا ، أنا أكرر ببساطة عبارات المصريين أنفسهم (المؤلف)

(٢) باستثناء بوسيدون الذى علم به الهلينيون من البربر ، فإن اسم بوسيدون محلى بينهم وخدم . (المؤلف)

(٣) « أبطال » في اليونانية (المحقق)

(٤) في ذلك الوقت فإن الأثينيين الذين يعتبرون هلينيين فعلاً ، كان لديهم مجتمع من البلازجيين الذين حلوا في بلدهم ، وهذا كان صدفة ، كيف كان البلازجيون يعتبرون هلينيين (المؤلف)

والتي أخذها سكانها عن البلازجيين^(١). وفيما يتعلق بتقليد البلازجيين كان الأثينيون الهلينيون أول من أظهر عبادة « هيرميس » Hermes في الوضع الذي بينته . وكان لدى البلازجيين عقيدة حول هذا الموضوع ، تظهر في الأسرار المقدسة عند (ساموثريس) . وفي بداية الأمر (كما علمت من تحرر شخصي في دودونا Dodona) توصل البلازجيون في سائر خدماتهم الدينية ، إلى « الأرباب » مجردين دون لقب أو اسم (فالألقاب والأسماء كانت ما تزال محمولة لديهم) إلى كل رب منها . لقد أطلقوا عليها (الأرباب) لأن هذا ما « وصل » إليهم في شكله الكلي واحتفظوا بالكون وكافة أجزائه هكذا . وعلى هذا ، وبعد فترة طويلة ، علموا من المصادر المصرية أسماء كافة الآلهة فيما عدا « ديونيسوس » ، ، وبعد فترة طويلة أخرى ، عرفوا اسم « ديونيسوس » . وبعد فترة جاء البلازجيون يستفتون النبوءة في دودونا^(١) عما إذا كان ينبغي أن يقتبسوا هذه الأسماء من بضاعة خارجية . وأمرتهم النبوءة بأن يفعلوا ذلك ، ومن ذلك الحين فصاعداً ابتهل البلازجيون إلى الأرباب في الخدمات الدينية بأسمائها ، بينما نقل الهلينيون بدورهم هذه العادة من البلازجيين .

ومن المبالغة أن نحدد ، كما نحدد تاريخاً حديثاً أو نحدد الأمس أو أول أمس ، أن الهلينيون ظلوا يجهلون إعادة كل إله من الآلهة إلى أصله ، ويجهلون مظهرها الخارجي ، ويجهلون ما إذا كانت قد وجدت منذ الأزل أم لا . وأما أنا فلا أضع هسيود وهومر وتاريخها قبل جيلي أنا بأكثر من أربعة قرون ، وهما أول ثقات قدما للهلينيين أنساب الآلهة ، ووضعنا للآلهة ألقابها ، وخصصنا لها تبجيلها وأعمالها ، وحددا ملامح مظهرها الخارجي^(٢) . وكاهنة (دودونا) هي مصدرى عن السلسلة الأولى للقضايا السابقة ، وفيها يختص بالقضايا الباقية التي تتعلق بهسيود وهومر ، فأنا مسئول عنها شخصياً .

(١) كانت ساموثريس قد احتلتها في البداية البلازجيون الخالص الذين حلوا في إقليم أثينا ، ومن هؤلاء البلازجيين استعار أهل ساموثريس الأسرار المقدسة (المؤلف) .

(٢) كانت هذه النبوءة أكثر قدما في هيلاس ، وهي الوحيدة التي كانت موجودة في هذه الفترة (المؤلف)

إن مسألة الارتباط بين (النبوءة) في هيلاس وفي النبوءة في شمال أفريقيا^(١) مادة قصة مصرية سوف أبدأ ببسطها . فيقرر كهنة (زيوس طيبة)^(٢) . بأن كاهنتين من طيبة نقلها الفينيقيون من البلاد ، وأظهر البحث أن إحداها قد بيعت في شمال أفريقيا وبيعت الأخرى في هيلاس . وهم يؤكدون أن هاتين المرأتين هما اللتان أوجدتافي الأصل النبوءات في أقاليم الأمم السابق ذكرها . ولقد سألت الكهنة كيف كانت الكاهنتان في مركز يمكنها من أن ينطقا بمثل هذه المعرفة الدقيقة . فكانت إجابتهم أنهم قد أجروا بحثاً دقيقاً ، ولكنهم لم ينجحوا في اكتشاف السر . وعلى هذا حصلوا على المعرفة التي يعيدون روايتها على الآن . وهذا ماسمعه من كهنة طيبة ، في حين أن كاهنة دودونا قد روت لي الحكاية التالية : لقد طارت حمامتان سوداوان من طيبة المصرية إلى شمال أفريقيا وبعد ذلك إلى دودونا . وحطت الحمامة الأخيرة على شجرة زان وأعلنت بصوت إنساني ، أن إحدى معجزات زيوس يجب أن تقوم على تلك البقعة . واعتبر أهل دودونا أن الرسالة خارقة للطبيعة وتقدوها بعد ذلك . أما الحمامة التي طارت إلى شمال أفريقيا فيقال إنها أمرت البربر بأن يقيموا نبوءة لأمون وهي نبوءة أخرى لزيوس ، وهذه هي القصة كما حكها لي كاهنة دودونا^(٣) ، والتي أيدها سكان محليون آخرون على صلة بالضريح أما وجهة نظري الخاصة حول الموضوع فهي كما يلي . إذا كان الفينيقيون قد نقلوا حقيقة النساء المقدسات وباعوا واحدة في شمال أفريقيا وأخرى في هيلاس ، فإنها في رأيي ، المنطقة المعينة التي تسمى الآن هيلاس ومن قبل كانت بلازجيا التي بيعت فيها ، فلا بد وأنها كانت (ثسبروتيا)^(٤) Thesprotia . وخلال فترة الرق التالية هناك ، لا بد أنها أسست ضريحاً لزيوس

(١) زيوس دودونا في أبيروس وآمون في سيوة في الصحراء الليبية (المحقق)

(٢) آمون طيبة في مصر (المحقق) .

(٣) كانت أسماؤها (برومينا) Promena الكبرى و (تيماريتا) Timareta الكبرى التالية ونيكاندرا الصغرى (المؤلف)

(٤) جنوب غربي أبيروس (المحقق)

تحت شجرة بلوط ، ولا بد أنها أقامته كما أقيم في البداية معبد زيوس في طيبة ، وينبغي أن تحفظ ذكره في مكان إقامتها الجديدة. وتمشياً مع هذا ، فإنها تكون بعد أن تمكنت من اللغة اليونانية ، قد أنشأت نبوءة ، ولا بد أن تكون قد ذكرت أن أختنا لها قد بيعت في شمال أفريقيا بواسطة الفينقيين أنفسهم الذين باعوها هي . وفي رأي أن أهل دودونا قد أطلقوا على السكاهنتين عبارة (الحمامات) لأنها لم تكونا هيلينيات وبدتا للمواطنين على أنها صغيرتان كالعصافير . وعندما أطلقوا هذه العبارة ، وبعد فترة من الوقت ، تحدثت الحمامة بصوت إنسانى ، أى أنه : عندما بدأت المرأة في الحديث بشكل مفهوم لهم ، وفي حين أنها عندما كانت تتحدث بلغة أجنبية ، كانت تبدو كأنها تتحدث إليهم بلغة الطيور . وإلا ، كيف يمكن للحمامة أن تتحدث بصوت إنسانى بالمعنى الحرفى للكلمة؟ وكذلك ، فعندما قالوا إن الحمامة كانت سوداء فهذا يعنى أن المرأة كانت مصرية . لأن أساليب التنبؤ التى اتبعت في طيبة المصرية ودودونا كانت ، على التوالى ، في الحقيقة متشابهة ، وأن علم التحنيط بطريقة الأحشاء كان من المحتمل أن يكون من أصل مصرى .

وكان المصريون أيضاً العناصر الأولى من الجنس البشرى التى أقامت الأعياد والمواكب ، والخدمات الدينية ، وقد نقلها الهلينيون جميعاً . واستنبط هذا من أن هذه الاحتفالات في مصر تبدو أنها اتبعت منذ تاريخ بعيد ، بينما كانت في هيلاس بدعة جديدة .

هل الكولخيون مصريون

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٠٢ - ١٠٥)

يبدو أن الكولخيين^(١) من أصل مصرى - تلك حقيقة لا حظتها بنفسى قبل أن أحاط علماً بهما من الآخرين . وما إن شغلت انتباهى ، حتى قت باستقصاءات

(٣) شغلت كولخس النصف الغربى من البلاد التى يطلق عليها حالياً جورجيا عبر القوقاز (الحقق) .

بين كلتا الأمتين ووجدت أن الكولخيين يتذكرون المصريين أكثر مما يتذكركم الآخرون . وقدم المصريون نظرية مؤداها أن الكولخيين هم بقايا جيش « سينوستريس »^(١) Sesostris ولقد أقت افتراضى على حقيقة أن الكولخيين لهم شعر أسود - وأثق كثيراً فى حقيقة أخرى هى أن الكولخيين ، والمصريين والسودانيين هم الأعضاء الوحيدون من الجنس البشرى الذين يمارسون عادة ختان الأطفال . ويعترف الفينيقيون والفلسطينيون والسوريون صراحة بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين، بينما يعترف السوريون الذين يعيشون حول أنهار ثرمودون Thermodon و (بارثينيوس)^(٢) Parthenius وجيرانهم ودولة (المقرون) Macrones . يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة مؤخراً فقط عن الكولخيين . وهذه قائمة شاملة عن الأجناس التى تمارس الختان ، ويبدو أنهم جميعاً يقلدون المصريين أما فيما يختص بالمصريين أنفسهم والسودانيين ، فلا أستطيع أن أقرر أيهما أخذ العادة عن الآخر ، لأن الختان قديم جداً فى كلا البلدين . أما عن النظرية التى تقول بأن الآخريين قد أخذوا هذه العادة نتيجة احتكاكهم بالمصريين فإننى أجد لها سنداً قوياً فى الحقيقة التالية . إذ إن الفينيقيين الذين احتكوا بالهلينيين توقفوا عن تقليد المصريين وأغفلوا ختان الجيل الذى جاء بعد ذلك . ودعنى أذكر عامداً ، مسألة أخرى يتشبه فيها الكولخيون بالمصريين . إذ إن الكولخيين والمصريين هم الفريديون الذين لديهم منهج مماثل فى صنع الكتان^(٣) وإلى جانب هذا هناك مماثلات قوية بين الأمتين فى حياتهما الاجتماعية وفى لغاتهما .

طوائف

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٦٤ - ١٦٨)

توجد فى مصر سبع طوائف وهى تسمى على التوالى ، الكهنة ، المحاربون

(١) شخصية أسطورية ، اختلطت باسمه أسماء عديدة من الغزاة المصريين التاريخيين العظام (المحقق)

(٢) نهران أناضوليان يطاق عليهما الآن (ترم-رسو) Terme وبارتين رسو Bartin

ويصبان فى البحر الأسود بين unie وسامسون Samsun وبين أمارسرا Amasra وزونجداك Zonguldag فى هيلاس .

(٣) الاسم التجارى لكتان الكولخيين هو (السرينيون) . بينما الكتان الذى يأتى من مصر

يطلق عليه (المصرى) - المؤلف .

رعاة البقر ، رعاة الخنازير ، التجار ، والأدلاء ، وكبار البحارة . وعدد هذه الطوائف سبع وأسمائها حسب حرفها . فالقاتلون يطلق عليهم Calasiries و Hermotybies ، وتأتي كل طائفة بدورها من الأقسام^(١) التالية فيتبع Hermotybies إلى أقسام . . . [أسماء مغلطة] وتبلغ أقصى قوتهم ١٦٠ و ٠٠٠ رجل ولا ينخرط أي فرد من هؤلاء في أية حرفة دينية . لقد كانوا جميعاً منصرفين إلى السلاح ، ويتبع Calasiries الأقسام الأخرى . . . (أسماء مهملة) . . . وتبلغ أقصى قوتهم ٢٠٠ و ٠٠٠ وكان محظوراً عليهم أيضاً ممارسة أي حرفة عادية ، ولا يزاولون سوى فن الحرب عن طريق التوارث . وإذني لأستطيع أن أقرر على وجه التحديد إذا ما كان هذا النظام قد أخذه الهلينيون من المصريين ، واضعاً في اعتباري أن الرحل التراقيين والفرس الليديين^(٢) وتقريباً سائر الشعوب اللاهليونية ، يعاملون الأشخاص الذين يمارسون الفنون والحرف ، ونسل هؤلاء الأشخاص ، على اعتبار أنهم في مرتبة دون أعضاء المجتمع الآخرين ، في حين أن الذين لا يزاولون الأعمال اليدوية يعاملون على أنهم من منشأ طيب . ولا سيما أولئك الذين ينصرفون إلى الاتجاه الحربي . وعلى أية حال ، فإن جميع الهلينيين تبناوا هذه العادة ولا سيما الإسبرطيون — والكورنثيون ، على عكس الأمة التي تبدي ازدياداً أقل للعمل اليدوي . وفي مصر ، حازت الطائفة العسكرية الامتيازات التالية التي لم تتمتع بها أي طبقة أخرى من السكان فيما عدا الكهنة : فهم أولاً يحتفظ كل منهم باثني عشر فداناً^(٣) منقاة من الأرض لكل منهم دون جزية ، ويكون دخل كل حصة بالتناوب من فرد إلى آخر . ولا يبقى أبداً في أيديهم بشكل ثابت ، وثانياً ، كان ألف من (الكالازيرس) وجملة مماثلة من

(١) ينقسم لإقليم مصر كله إلى قسمين (المؤلف)

(٢) سكان وادي أيدين Aidin الحديث غرب الأناضول (المحقق) .

(٣) الفدان المصري مائة ذراع مصري مربع ، والذراع المصري يتساوى في الطول مع

الذراع السامي (المؤلف) .

(الدمويتس) يخدمون سنوياً كحرس إمبراطورى . وإلى جانب الحصص ، فإن الأفراد الذين يشتغلون سنة فى هذه الخدمة يتسلمون ، كأجر إضافى ، جراية يومية تباع خمسة أرغفة لكل فرد ، وقطعتين صغيرتين من اللحم وأربع مغارف من النبيذ .

انتقال الألف باء

(هيرودوت : الكتاب الخامس . الفصول ٥٨ — ٥٩)

كانت حروف الهجاء من بين الابتكارات العديدة المفيدة التى وصلت إلى هيلاس على أيدى الفينيقيين الذين جاءوا مع «كادموس» واستعمروا البلاد التى تسمى الآن (بويوتيا) ، وكانت حروف الهجاء هذه ، فى رأى ، غير معروفة من قبل فى العالم الهلنى . لقد أدخلوا فى الأصل صناعة الكتابة التى كانت شائعة الاستعمال بين الفينيقيين ، ثم تغيرت مع الزمن حياتهم فتغيرت معها بذات الوقت رسوم حروفهم . وقد كان الأيونيون أكثر الإغريق الذين كانوا يقيمون يومئذ فى تلك البلاد حيث الفينيقيون ، ولذلك تعلم الأيونيون فن الكتابة من الفينيقيين ، واقتبسوا حروف كتابتهم مع تعديلات طفيفة ؛ ومازالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية إنصافاً لمن نقلوها عنهم — على اعتبار أن الفينيقيين وحدهم هم الذين أدخلوها إلى هيلاس . واحتفظ الأيونيون أيضاً بالاسم القديم . اسم (القديد)^(١) على الأوراق لأنه فى وقت ما ، اضطرتهم ندرة صحائف الكتابة إلى استخدام جلود الماعز أو جلود الماشية^(٢) كأدوات كتابية . ولقد رأيت بنفسى كتابة الحروف الكدموسية محفورة فى نقوش^(٣) على بعض القوأم المثلثة فى معبد (أبولون أسميناس) بطيبة البوطية .

(١) «دفتراى» فى اليونانية كلمة نقلها العالم الشرقى المعاصر وظلت فى الفارسية الحديثة فى كلمة «دفترا» (دفتر الحسابات) وعادت إلى اليونانية الحديثة عن طريق التركية (المحقق) .
(٢) فى بلاد غيرهلينية كثيرة تستخدم الجلود المائلة كمواد كتابية حتى أيامنا هذه (المؤلف)
(٣) يشرع هيرودوت فى اقتباس هذه النقوش حتى يتحقق الأشخاص المذكورون فيها فإن الدليل الموجود فى الأسلوب واللغة يثبت أنه قد دخلت إليها ترويرات فى فترة حديثة نسبياً (المحقق) .

هل خان « بنو الكمايون » Alcmaeonidae هيلاس ؟

(هيرودوت : الكتاب السادس . الفصول ١٢١ — ١٢٤)

أعتقد أن افتراض أن « بنى الكمايون » عرضوا ترساً^(١) كإشارة إلى الفرس ، بقصد إخضاع الأثينيين تحت نير الشرقيين وهيباس Hippias ، هو افتراض لا يمكن قبوله . إذ إن كل شيء يبين أن « بنى الكمايون » كانوا على الأقل خصوصاً أقوياء للاستبداد ، فمثلاً « كالياس »^(١) Callias كان الرجل الوحيد في أثينا الذى لديه درجة كافية من الجرأة ، فعندما طرد « بيزيسترatos » Peisistratus من البلاد ، لأنه اشترى أملاكه من مزاد الخزينة ، فإنه لم يفوت فرصة للعمل ضد بيزايستراتوس بأشد ألوان العداة مرارة . وكان « بنو الكمايون » على الأقل خصوصاً أشداء للاستبداد كما كان « كالياس » مما يجعلنى أرفض الاتهام الذى لا يستند إلى شيء بأنهم عرضوا ترساً فى هذه المناسبة . لقد نفى الطغاة « بنى الكمايون » طيلة فترة حكمهم بأسرها ، وانتهى حكم أنصار « بيزيسترatos » خلال مكائدهم — وهذا يعنى فى تقديرى الخاص ، أن « بنى الكمايون » كانوا محررى أثينا لحد كبير أكثر من « هارموديوس » Harmodius و « أرسوجيتون » Aristogéton ، وبسبب قتل « هيبارخوس » فإن الأخير قد أغاظ العناصر التى ظلت على قيد الحياة من أسرة بيزيسترatos ، دون الإسهام فى الإطاحة بسلطانهم ، بينما حرر « بنى الكمايون » الأثينيين بشكل متميز ، وإذا ما كانوا حقيقة هم الذين أوحوا إلى كاهنة (دلفى) أن تقدم كل رد قدمته إلى الإسبرطيين وتحرضهم على تحرير أثينا ، حسب القصة التى شرحتها آنفاً ، وإذا ما قيل إنه كان لديهم بعض الضغينة ضد أعضاء مجلس العموم فى أثينا

(١) انظر هيرودوت الكتاب السادس فصل ١١٥ . وكان الترس يستخدم ليعكس الرسائل التلغرافية الشمسية ، عندما عادت الحملة الفارسية مرة أخرى بعد هزيمتها فى ماراثون افتراض أن إشارة أبرقت إليها تنصحها بالإبحار حول أتিকা وترسو على الساحل المقابل أمام الجيش الأثينى ويمكنها أن تعبر حول البلاد (المحقق)

(٢) ابن فاينبوس وأب هيبونيكوس (المؤلف) .

مما دفعهم إلى هذا المسعى لخيانة البلاد ، فيمكن الرد ، بأنه في العالم الأثيني ، لم تكن هناك عائلة أخرى تتمتع بشهرة أعظم أو بشرف مماثل . وعلى هذا فليس من المعقول تماماً أن نفترض أن هذه الأسرة بالذات قد عرضت الترس لمثل هذا السبب . ومما لاشك فيه أن هناك ترساً قد عرض ، وليس هناك مرء في هذه الواقعة ، إلا أنني لأستطيع أن أقرب قيد أنملة أكثر مما فعلت هنا للإجابة على السؤال : من الذى أظهر الترس إذن ؟

هل خان الأرجيفيون هيلاس ؟

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصول ١٤٨ — ١٥٢)

يقدم الأرجيفيون الرواية التالية عن الدور الذى قاموا به بأنفسهم فى (الحرب الفارسية الكبرى) . وتلقوا ، بادية ذى بدء ، معلومات عن العاصفة التى تتجمع ضد هيلاس من العالم الشرقى ، وبهذه المعلومات التى توافرت لديهم ، علموا أن الهلنيين يعتزمون المفاوضة حول التعاون ضد الفرس . وطبقاً لهذا ، بعثوا برسول إل (دلفى) يسأل الرب أى مسلك من شأنه أن يضمن لهم أفضل النتائج . إذ لم يكن قد مضى وقت طويل على موت ٦٠٠٠ من رجالهم فى المعركة على أيدي الإسبرطيين (بقيادة كليومينيس Cleomenes بن انكسندريادس Anaxandriads) وكان هذا (حسب روايتهم) هو السبب فى إرسال المبعوث . وردت عليهم الكاهنة بالأبيات التالية :

بحق السماء الجببية ، بحق الجيران الذين قهروا ببشاعة

ضعوا الحراب فى غمدها وخذوا راحة

والتفتوا إلى عقولكم ، فالعقول سوف تنفذ البقية .

وكان إلقاء هذا الرد من جانب الكاهنة سابقاً على وصول البعثة الكونفدرالية إلى أرجوس ، حيث قوبلوا هناك بالتحية فى المجلس وقدموا تعليماتهم . وأجاب مجلس العموم على طلباتهم بأن أرجوس مستعدة لقبول مقترحاتهم على شرطين —

سلام لمدة ثلاثين عاما مع إسبرطة ونصيب مساو في قيادة القوات الكونفدرالية كلها . وأضافوا أن العدل المطلق يحول لأرجوس نصيب الأسد في القيادة ، ولكنها تكتفى بالمشاركة مع دولة أخرى . وكان هذا (حسب الرواية الأرجيفية) رد المجلس ، على الرغم من أن النبوءة قد اعترضت على التحالف مع الهلينيين . وأياً ما كان الأمر ، فإن خوفهم من النبوءة لم يكن يوازي تمتعهم بسلام ثلاثين عاماً . حتى يمكنهم ، كما قالوا ، أن يجعلوا أولادهم يشبون إلى سن الرجولة في هذه المدة ، وفي حالة عدم وجود مثل هذا السلام ، أدركوا أنهم في حالة إصابتهم بكارثة أخرى في الحملة ضد الفرس ، فوق ركام مصائبهم السابقة ، فإن الحاصل سوف يكون خضوع أرجوس تماماً لإسبرطة . ورد الأعضاء الإسبرطيون في البعثة المشتركة على إعلان مجلس أرجوس بأن أعلنوا أنهم سوف يحيلون مسألة المعاهدة إلى رؤسائهم ، إلا أنهم فيما يتعلق بمسألة القيادة ، يجب أن يسترشدوا بتعاليمهم القاطعة ، والتي كانت تقضى بأن هناك ملكين في إسبرطة وملكاً واحداً في أرجوس ، ومن المستحيل إبعاد أحد الملكين من القيادة ، إلا أنه لم يكن هناك اعتراض على الموافقة لملك أرجوس بأن يصوت مع ملكي إسبرطة . وحسب رواية الأرجيفيين الخاصة ، فإن هذا البيان أخرجهم عن صبرهم إزاء اعتداء الإسبرطيين وجعلهم يفضلون أن يقعوا في قبضة الشرقيين على أن يسلموا بوحدة واحدة إلى الإسبرطيين . ونتيجة لهذا ، أنذروا البعثة بأن تكون خارج الحدود قبل غروب الشمس ، وذلك بمقتضى معاملتهم كأعداء . إلى هذا الحد يذهب الأرجيفيون أنفسهم ، إلا أن هناك قصة مختلفة تجرى في هيلاس : - وهي أن « كسر كسيس » قد أرسل مبعوثاً إلى أرجوس قبل أن يعد حملته ضد هيلاس . ويقال إن الرسول عند وصوله ألقى هذه المذكرة الشفاهية :

« أيها الأرجيفيون ، إن الملك كسر كسيس له رسالة إليكم . إننا نؤمن بأن جدنا هو « برسيس » Perses ، بن « برسوس » ^(١) Perseus من

(١) ابن داناى Danae (المؤلف)

« أندروميديا » Andromeda بنت « كسيفيوس » Cepheus . ومادام الأمر كذلك ، فإننا لابد وأن نكون قد انحدرنا من مجموعتكم ، ويكون من الغريب أيضاً من جانبنا أن نشن حرباً على أسلافنا ، ويكون غريباً من جانبكم أن تقفوا في وجهنا دفاعاً عن طرف ثالث . وأفضل طريق هو أن تنوذوا بدياركم وتحافظوا على حيادكم ، وإذا ما فزت أنا ، فلن يكون هناك بلد ساء معاملتها بتقدير أكثر منكم . »

ويقال إن الأرجيفيين تأثروا جداً بهذه الرسالة لدرجة أنهم لم يقوموا وقتها بأية مفاخرة أو طلب امتيازات من المبعوثين الهلينييين فحسب ، ولكنهم عندما حاول الهلينيون أن يطلبوا معونتهم أيضاً ، طلبوا بحزم المشاركة في القيادة ، وهم يدركون أن الإسبرطيين لن يوافقوا على مطلبهم ، وذلك حتى يتذرعوا بالبقاء على الحياد . ولتأكيد هذه الرواية ، أشار بعض الثقات الهلينييين إلى رواية أخرى ، تتعلق بالأحداث في تاريخ متأخر . وهي أن بعثة أثينية تتكون من كالياس بن « هيبونيكوس » Hipponicus وحاشيته ، تصادف أن وجدوا أنفسهم في مهمة في (صوصه)^(١) Suoa عندما كانت بعثة أرجيفية مرسلة بذات في نفس الوقت ، وصلت . تسأل « ارتا كسر كسيس » عما إذا كانت الاتفاقية التي عقدتها (أرجوس) مع « كسر كسيس » ما تزال قائمة ، أو إذا ما كانت حكومته تنظر إلى أرجوس على أنها دولة معادية — ورد الملك « ارتا كسر كسيس » عليها بأن الاتفاقية قائمة بشكل طيب . وأنه ليس هناك دولة يعتبرها أكثر صداقة من أرجوس .

وسواء كان « كسر كسيس » قد أرسل حقيقة مبعوثاً إلى (أرجوس) بالتعليمات السابق ذكرها ، أو أن بعثة أرجيفية زارت (صوصه) حقيقة لتتأكد من رأى ارتا كسر كسيس حول الاتفاقية ، فليس في مقدوري أن أؤكدها ، ولا أعرض أي رأى عن الموضوع أكثر مما قرره الأرجيفيون أنفسهم . فقط أعلم هذا جيداً ، لو أن جميع أعضاء الجنس البشري وضعوا أعباءهم الفردية بشكل جماعي

(١) مدينة ميمنون Memnon (المؤلف)

على أساس التبادل مع جيرانهم ، فإن فحص أعباء جيرانهم عن كثب يجعلهم يتنبهون ويسهمون بما أوجدوه هم أنفسهم . أما فيما يختص بهذا ، فإن الأرجيفيين ليسوا أكثر الناس خطيئة في التاريخ . وواجب الشخصى أن أروى ما قيل فعلا ، ولكن ليس على أن أصدقه — وهو مبدأ أطبقه عامداً ، بشكل محدد ، على كل عملى . أما بخصوص هذا ، فهناك قصة أخرى حول الموضوع أن الأرجيفيين هم الذين حرضوا الفرس ضد هيلاس ، لأنهم أساءوا العمل فى الحرب ضد الإسبرطيين ولم يشعروا بشىء طيب إزاء إذلالهم الراهن .

كيف أنقذت أثينا هيلاس

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصل ١٣٩)

وعند هذا الحد ليس أمامى من طريق أسلكه سوى أن أسجل تقديراً سيقابل بالاستياء من جمهرة الراى العام ، إلا أننى لا أستطيع فيه أن أحجم عن متابعة ما يبدو لى أنه الحق . ولنفترض أن الأثينيين قد وهنت عزيمتهم بما حل عليهم من خطر بعد ذلك كالهجرة من بلدهم ، أو نفترض — فى حالة عدم وجود هجرة — أنهم مكثوا وخضعوا لكسر كسيس ، ففى هذه الحالة لم يكن فى وسع أحد أن يقاوم الملك فى البحر ، وطالما لم يقاوم أحد « كسر كسيس » فى البحر ، فإن نتيجة الأحداث على البر يمكن أن تكون كالتالى . وبغض النظر عن طبقات المراكز الجاهزة التى جذبها البلبيونيزيون عبر برزخ كورنثا، فكان على حلفاء الإسبرطيين أن يهجروهم — لا عن عمد وإنما بتأثير (قوة أعظم) كما حدث واستسلموا ، بشكل فردى ، إلى قوات الأسطول الشرقى — وكان من المفروض أن يخضعوا للعزل . وفى ساعات عزائهم قام الإسبرطيون بأعمال باهرة وماتوا ميتة مجيدة — فيما عدا الحالات التى كان يصل إلى علمهم فيها أن الهلبيين الآخرين ينضمون إلى جانب الفرس حتى يصلوا هم أنفسهم إلى شروط مع « كسر كسيس » — إلا أنه فى ظروف أخرى كان الهلبيون يسقطون تحت نير الفرس . أما فيما يختص بالمواقع عبر (١٣٢ — الإغريق)

البرزخ فإننى فى حيرة من أن أكتشف ماذا كانت قيمتها الحربية بالنسبة إلى الملك الذى سيطر على البحر . وفى مثل هذه الظروف ، فإن الحق يحتم أن نقول إن الأثينيين كانوا منقذى هيلاس . وإن الميزان يميل إلى صالح كل جانب ينضم إليه الأثينيين ، فالأثينيون والأثينيون وخدمهم ، كانوا هم الذين رغبوا فى أن تبقى هيلاس مجتمعاً حراً ، وجمعوا شتات بقية العالم الهليني (ومع ذلك حتى لا نستسلم للفرس) ، وهم أيضاً (بعد الآلهة) الذين ردوا غزو الملك . حتى لم يستطع نذير النبوءة الذى جاء من دلفى ، أن يجعلهم يهجرون هيلاس . لقد تمسكوا بأرضهم ولم يجمعوا عن مواجهة أسلحة غزاة بلادهم .

الآثار الاجتماعية للحرب الفارسية الكبرى

(ديودورس : الكتاب الثانى عشر . الفصول ١ - ٢)

إن أى فرد يوجه انتباهه إلى العنصر غير المتوافق فى الحياة الإنسانية ، قد نلتبس له العذر إذا ما وقع فى تناقض . فليس هناك ، فى مجال التطبيق ، نعمة واحدة من النعم المفروضة فى الحياة تمنح للكائنات البشرية بشكل مطلق ، وكذلك ليس هناك شر من الشرور يقع بشكل مطلق دون أن يكون له مخرج من الخير . ويمكن أن ندرك بيان هذا بتوجيه الانتباه إلى الأحداث الماضية ، ولا سيما تلك الأحداث ذات الأهمية البارزة . فإن ضخامة القوى التى استخدمت فى حملة كسر كسيس ملك الفرس ضد هيلاس تلقى ضوءاً على الخطر المرعب على المجتمع الهليني . إن السباق الذى فرض على الهلينيين أن يقاتلوا فيه لم يكن سوى العبودية أو الحرية ، فى حين أن المجتمعات الهلينية فى آسيا التى كانت قد وقعت بالفعل فى العبودية أثارت فى كل ذهن احتمال أن المجتمعات فى هيلاس سوف تواجه المصير ذاته ، وأياً ما كان الأمر ، فعندما وقعت الحرب ، على غير ما هو منتظر ، فى نتائجها المدهشة ، لم يجد سكان هيلاس أنفسهم غير بعيدين عن الأخطار التى تهددهم فحسب ، وإنما وجدوا أنفسهم يمتلكون إلى جانبها الشرف والمجد ، بينما كان كل

مجتمع هلينى قد عبيء بمثل هذه البجبوحة لدرجة أن العالم بأسره كان مندعشاً إزاء الكمال الذى انعكس إليه الموقف .

وخلال نصف القرن الذى أعقب هذه الحقبة ، خطت هيلاس خطوات واسعة نحو الرخاء . وخلال هذه الفترة فإن آثار البجبوحة الجديدة ظهرت فى تقدم الفنون والفنانين بعظمة أكثر مما سجله التاريخ، فمن المثال « فيدياس » Phidias الذى لمع فى ذلك الحين . وكان هناك بالمثل تقدم بارز فى المجال الذهبى حيث تفردت فيها الفلسفة والخطابة إلى شرف خاص على نطاق العالم الهلينى ولا سيما فى أثينا . ففى الفلسفة كانت هناك مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وفى الخطابة كان هناك أعلام أمثال « بركليس » و « إيسقراط » Isocrates وتلاميذه ، وقد رجحت هذه على أيدي رجال أعمال ذوى شهرة عسكرية ، أمثال « ملتياديس » Miltiades و « ثيميستوكليس » Themistocles و « أرسستيديس » Aristides و « كيمون » Cimon و « ميرونيديس » Myronides وصف طويل من الأسماء الأخرى أكثر من أن يذكر . وفى مقدمة هؤلاء جميعاً ، أحرزت أثينا انتصار المجد والبسالة حتى إن اسمها حاز شهرة عالمية واسعة . لقد زادت من سطوتها إلى درجة أنها حطمت ، بمصادرها الخاصة ودون مؤازرة الأسبرطيين والبلبيونيزيين ، مقاومة القوى الفارسية على البر والبحر وحطمت من هيبة الإمبراطورية الفارسية حتى إنها اضطرتها إلى أن تجلو بمقتضى معاهدة عن جميع المجتمعات الهلينية فى آسيا .

تأثير قوة البحر على التاريخ

(أنونيموس^(١) Anonymous عرف فى ٤٦٠ — ٤١٠ ق . م) أنظمة أثينا
طبعة توييز تحقيق كالينكا E. Kalinka ١٩١٣ : الفصل ٢ . فقرات ٢ — ٨
و ١١ — ١٦) .

(١) محفوظ بين الأعمال الصغرى لـ (كسينوفون) ، الذى أثبت بالدليل الداخلى أنه ليس المؤلف الحقيقى (المحقق)

لقد وهب الحظ الأثينيين ميزة يمكن أن تقررها في العبارات التالية : كان السكان ، رعايا إمبراطورية برية في وضع يمكنهم من توحيد موارد عدد من المجتمعات الصغيرة وأن يشتركوا في حرب التحرير ، بينما رعايا أى إمبراطورية بحرية ، وهم إلى حد بعيد سكان جزر ، لم يكونوا في وضع يمكنهم من تعزيز موارد المجتمعات المعزولة . لقد فصل البحر فيما بينهم ، وسيطرت عليهم الدولة السائدة ، وحتى لو نجح سكان الجزر في تركيز قواهم في جزيرة واحدة دون أن يكونوا محجوزين ، فليس أمامهم سوى الهلاك ، وكانت المجتمعات البرية ، إلى أبعد حد ، تحت سيطرة الأثينيين ، ينظر إليها على أن القسم الأكبر منها يسيره الخوف ، والأقلية تدفعها الحاجة . وما من مجتمع يمكن أن يحيا دون واردات وصادرات ، وهذه سوف ينسكرها أى مجتمع لا يخضع لسادة البحر . وكذلك ، فإن سادة البحر كانوا في وضع (كما هي الحال مع الدول البرية فقط) يمكنهم من أن يدمروا إقليم دولة أقوى . ويمكنهم أن يمضوا قدماً حيث لا تعسكر قوات معادية أو على الأقل قوى ضعيفة ، ويمكنهم من أن يواصلوا الإبحار بقرب التحصينات . ويمكن للدولة البحرية أن تستخدم هذه الاستراتيجية بارتباك أقل من الدولة التي تسعى إلى أن تركز الهدف نفسه على البر . وكذلك فإن سادة البحر في وضع يمكنهم من أن يعملوا بأسطولهم إلى مسافة بعيدة عن قواعدهم كما يرغبون ، بينما لا يمكن للقوى البرية أن تتحرك إلى مسيرة أيام كثيرة من إقليمهم الأصلي . وفي العمليات البرية ، تكون التحركات بطيئة ومن المستحيل حمل مؤن كافية لمسلة طويلة الأمد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجيش الذي يعمل على البر عليه إما أن يتحرك عبر أقاليم موالية وإما أن يقاتل لمسافة ما ، في حين أن القوة البحرية يمكن أن ترسو حيث تجد التفوق إلى جانبها ، وهي ليست مضطرة إلى أن ترسو عند نقطة يكون فيها التفوق إلى الجانب الآخر ، ويمكنها أن تواصل إبحارها حتى تجد نفسها في أقاليم صديقة أو في سواحل دول أقل قوة .

وكذلك ، فإن النتائج السيئة التي تعود إلى الظروف الجوية تحل بشكل ما حتى على أقوى الدول البرية ، بينما يمكن للدولة البحرية أن تتجنبها في يسر . ولا تصيب النتائج السيئة العالم كله ، وعلى هذا فإن سادة البحر قادرون دائماً على

أن يجذبوا إليهم المناطق التي لم تحل بها النتائج السيئة . وإذا ما غامرت بالانحدار إلى تفاصيل صغيرة ، فينبغي على أن أضيف أن السيطرة على البحار مكنت الأثينيين بالدرجة الأولى ، من أن يكتشفوا تهديداً للرعْد خلال علاقاتهم الخارجية الواسعة . وقد تجمعت رقة صقلية وإرغاليا وقبرص ومصر وليديا ^(١) والبحر الأسود وبليونيوزيا أو أي بلد آخر ، تجمعت على صعيد واحد بفضل السيطرة على البحر . وكذلك فإن ألفتهم مع كل لغة منظوقة تحت الشمس قد مكنت الأثينيين من أن يختاروا هذا التعبير من اللغة وهذا الشكل أو ذاك ، ونتيجة لذلك استمتع الأثينيون بمحضارة كونية أسهم فيها سائر العالم الهليني وغير الهليني ، في مقابل الهلينيين الآخرين الذين كانوا يحفظون ، كقاعدة عامة ، لهجتهم المحلية وطرائق حياتهم وأزيائهم .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأثينيين هم الأمة الوحيدة ، هيلينية أو غير هيلينية ، التي هي في وضع يمكنها من أن تجمع الثروة ، وإذا ما حدث وكانت بلد غنية بأخشاب السفن ، فأى سوق لها ، إذا ما فشلت في أن تسود البحار ؟ وكذلك ، إذا ما حدث ، وكان بلد غني بالحديد والنحاس أو الكتان ، فأى سوق لها ، إذا ما فشلت في أن تجد مصلحتها في الاتجاه نفسه ؟ إلا أن هذه هي بالتحديد المواد الخام التي أبني منها سفنى — فإن الأخشاب تأتي من مورد واحد ، والحديد من مصدر ثانٍ ، والنحاس من مصدر ثالث ، والكتان من مصدر رابع ، والقنب من مصدر خامس . وبالإضافة ، سوف برفضون السماح بتصدير هذه السلع إلى الأسواق الأخرى ، أو أولئك الذين يفضلون معارضة رغباتنا سوف يزاحون عن البحر . وهكذا ، فأنا الذى لا أنتج إحدى هذه السلع في إقليمى الخاص ، أمتلكها عن طريق البحر بينما لا يوجد بلد آخر يملك واحداً أو اثنين منها في وقت واحد . والبلد نفسه لا ينتج الأخشاب والكتان ، فالتربة جرداء ولا أخشاب فيها وحيث لا قنب . وكذلك فإن بلداً واحداً لا ينتج الحديد والنحاس كما لا يوجد اثنان من هذه الخامات أو ثلاث مواد في بلد واحد ، وإنما توجد دائماً هنا مادة هنا ومادة هناك .

(١) الوادى الحديث لايدى Aidin في الأناضول الغربية (المحقق) .

وكذلك ، فبالإضافة إلى هذا ، فإن أى ساحل يرى له رءوس أراض ناتئة في البحر أو جزر قريبة من الشاطئ أو ممرات ضيقة تقدم لسادة البحر نقطة ارتكاز يمكن أن يرسوا عندها ويلحقوا الضرر بالسكان البريين .

وأياً كان الأمر ، فهناك شيء واحد ، يفترق إليه البر والبحر . فلنفترض أن الأتنيين قد سيطروا على البحر وباشروا أعمالهم من قاعدة جزرية ، فإنهم كانوا يتمكنون من أن يحدثوا أخطاراً كثيرة دون أن يخشوا أى انتقام (بسبب رؤية إقليمهم مدمراً أو معرضاً لغزو العدو) ، ما داموا يحتفظون بالسيطرة على البحر ، وفي الظروف الراهنة ، فإن المصالح التي أرسيت وأصبحت خاصة بأثينا ، أياً ما كان الأمر . تميل كثيراً إلى أن تدلل للعدو ، بينما البروليتاريا ، التي تدرك تماماً أنه ليست لديها ملكية خاصة معرضة للحريق أو الدمار ، تعيش في أمان وترفض الخضوع للعدو . وكان يمكن أن تظل في أمان من أى قلق ما دامت تسكن الجزر . وليس عليهم أن يخافوا خيانة الأقلية للمدينة أو فتح البوابات غيلة ، أو الهجوم المباغت من العدو (وهي أحداث كان من شأنها ألا تحدث في بلد غير جزري) أو أى اضطراب داخلي مع البروليتاريا (التي لا يوجد مثيلها في دولة الجزيرة) . وفي الوضع الراهن ، إذا ما حدث وشبت اضطرابات داخلية ، يمكن أن يتوقعوا تأييد العدو لها ، وسوف تسعى قواتهم إلى أن تدخل عن طريق البر ، مما يدفع السخط إلى حد العسيان . وفي دولة الجزر ، ليس عليهم أن يضعوا كل هذه الأمور في الحسبان . وأياً ما كان الأمر ، فلم يحدث أصلاً أن اختاروا جزيرة موطناً لهم ، أو أخذوا لهذه الأمور الاحتياط الكافي . فقد أودعوا أملاكهم في الجزر ، بثقة كاملة في علو شأنها البحري ، وعارضوا في تدمير إقليمهم في أتیکا ، وهم على يقين ، كما حدث ، أنه في وسعهم فقط أن يظهروا اعتباراً إلى أتیکا مقابل تضحية مصالحهم ذات الأهمية البالغة .

الطاعون في أثينا (٤٣٠ ق . م)

(توكوديديس : الكتاب الثاني . الفصول ٤٧ - ٥٣)

في وقت مبكر من الصيف التالي ، غزا البليبونيزيون وحلفاؤهم أتيكا بثلاثي قواتهم تحت قيادة « أرخيدا موسى » Archidamus « بن زيوكسيداموس » Zeuxidamus ، ملك الإسبرطيين ، كما فعلوا في العام الذي قبله ، وراحوا يدمرون البلاد . ولم يكن قد مضى عليهم أيام كثيرة في أتيكا قبل أن يهاجم الطاعون الأثينيين . وكان من المفروض أن هذا المرض قد شب من قبل في (ليمنوس) Lēmnos وفي أماكن أخرى كثيرة ، ولكن لم يسمع من قبل أو في أى مكان بهذا الوباء على هذه الدرجة والمدى من التخريب . وفي البداية ، كان الأطباء عاجزين تماماً عن مقاومته ، وذلك لجهلهم بطبيعته ، وتزايدت حوادث الوفاة فيما بينهم ، لأنهم عرضوا أنفسهم أكثر مما يجب للعدوى . فلا الدواء ولا أى علم دنيوي آخر كان في مقدوره مواجهة الآلام ، حتى ولاشفاعات المصلين ومشورة الأنبياء والالتجاء إلى الدين ، فقد ثبت أيضاً أنها لا حول لها ، فأصبح الأثينيون أخيراً غارقين في الآلام حتى فقدوا إحساساتهم .

وكان المفروض أن الوباء قد بدأ في السودان المصري ، ومن هناك رحل إلى مصر وشمال أفريقيا والجزء الأكبر من البقاع الفارسية . واكتسح في طريقه الأثينيين الغافلين . وحدثت الحالات الأولى في (بيرايوس) Peiraeus التي نشأت على أثرها رواية تقول بأن البليبونيزيين سعموا مخازن المياه (لم تكن الآبار الراهنة موجودة) . وبعد ذلك اتخذ الوباء طريقه من الميناء إلى المدينة . وزادت حالات الوفاة . وسوف أترك لكتاب آخرين ، محترفين أو هواة ، أن يسجلوا تأملاتهم فيما يتعلق بأصل المرض وحالاته (إذا ما كان يمكن افتراض الأسباب بقدرة كافية في حساب اضطراب بالغ في نظام الطبيعة) ، وسوف أقصر روايتي على وصف موضوعي ، ولا سيما الأعراض التي من شأنها أن تساعد أولئك الأخصائيين في تشخيص الطاعون بشكل صحيح إذا ما قدر له أن ينتشر مرة أخرى . وأستطيع

أن أقوم بهذا بشكل معتمد، لأننى أنا نفسى قد هاجمى الطاعون ورأيت كيف أنه صدع ضحايا أخرى .

ومن الحقائق التى كان مسلماً بها أن السنة التى جاء فيها الطاعون كانت خالية بشكل استثنائى من الأمراض الأخرى ، بما فيها حالات توعك المزاج السابقة . فالأشخاص الذين فى صحة عادية هاجمهم المرض بشكل لا يحصى دون سابق إنذار . وكانت الأعراض الأولى حمى عنيفة فى الرأس واحتقاناً فى العيون ويتبعها مباشرة داخل الفم تغير اللون الى الأحمر القانى فى الحلق واللسان ورأحة كريهة فى التنفس بشكل غير عادى . وبلى ذلك من الأعراض عطس وذبحجة فى الصوت، وتسرع العدوى الى الصدر ، حيث تظهر على هيئة سعال عنيف . والحالات التى تصيب المعدة تلتفها تماماً وتفرز المرارة كل ما يصنعه الداء الناشئ عنها ، كل هذا مصحوب بضيق حاد . ولقد هوجم معظم المرضى بتهوع لا تأثير له يسبب رعشة عنيفة ، ويسبب فى بعض الأحيان القيء إلا أن هذا لم يحدث فى حالات أخرى . ومن الناحية الخارجية لم يكن الجسم فى درجة حرارة مرتفعة عن الحرارة العادية ولم يصب فى سطحه الخارجى باليرقان ، إلا أنه كان محمراً ، أزرق اللون مغطى بطفح جلدى مع بثور وقرح صغيرة . وأياً ما كان الأمر ، فإن درجة الحرارة الداخلية كانت مرتفعة بشكل مؤلم الى درجة أن المريض لم يستطع تحمل لمس أخف الأشياء ، حتى السكتان ، على الجسد العارى ، ويود أن يغطس فى الماء الثلج . وألقى كثيرون من الذين أهملتهم الرقابة بأنفسهم فى موارد المياه ، وهلكوا من عطش لا يرتوى — رغم أن الحال لم يتغير سواء شربوا كثيراً أو قليلاً . ولم يكن هناك من البداية إلى النهاية فكاك من رعب الأرق وعدم القدرة على الراحة . ولم يطل الوقت حتى بلغ الهجوم ذروته ، إن الجسد لم يفن إلا أنه أظهر قوة لم تكن منتظرة للمقاومة . وبعد ذلك ، فإن المريض سواء استسلم كما يحدث عادة (للحمى الداخلية فى اليوم التاسع دون أن يفقد حيويته البدنية تماماً ، أو اذا مات تخطى هذه المرحلة ، فإنه يجد أن المرض قد هبط الى الأمعاء ، التى تصبح فى حالة احتقان عنيف مصحوب بهجمات إسهال عنيفة . وفى هذه المرحلة الثانية ، فإن أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة يعمون فى بداية الأمر فريسة الانهالك ،

وبعد إصابة الرأس ، يأخذ المرض طريقه الى الجسد كله ، وعندما يعيش الجسد خلال الأجزاء الحيوية ، فإنه يترك آثاره على الأطراف . إنه يهاجم أصابع الأيدي ، وأصابع الأقدام والأجزاء الخاصة ، ويخرج الكثيرون من المرض وقد فقدوا هذه الأعضاء ويفقد البعض بصره . ويصاب آخرون خلال فترة النقاهة بفقدان مؤقت للذاكرة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يتعرفوا تماماً على أصدقائهم ونسوا هويتهم الخاصة . وفي الحقيقة ، فإن ربع المرض يفوق الوصف . لقد كان كارثة فوق احتمال البشر ، ومن طبيعته الشاذة ، أن الطيور والحيوانات التي طعمت من جيفة الإنسان ، اما أن تبتعد عن الجثث ، وإما أن تموت منها . وتوضح الحقيقة من اختفاء جثث الطيور في ذلك الوقت . إذ لم يرها أحد تأكل او لم تشاهد على الاطلاق ؛ إلا أنه كان من الميسور ملاحظة الظاهرة في حالة حيوان أليف كالكلب .

لقد وصفت الطبيعة العامة للمرض دون المضي في تفاصيل لاحصر لها حول صفاته وتنوعها في حالات انفرادية . وخلال انتشاره كانت هناك مناعة من العمل العادية ، وإذا ما ظهرت إحدى هذه العمل فإن المناعة تحصرها . وتعود بعض حالات الوفيات الى الإهمال ، إلا أن المرضى الآخرين ماتوا على الرغم من التمريض الفائق . ولم يكتشف علاج يمكن أن يستخدم بالذات ، لأن العلاج الذي نجح في حالة ما أحدث وفاة في حالات أخرى . ولم تكن هناك بنية ضعيفة أو قوية محصنة ضد الهجوم . لقد اقتلع المرض كل مصادفه وأفسد كل علاج . إن أكثر مصيبتين مرعبتين هما اليأس الذي يهبط على كل من يشعر بالمرض (وهو نوع من اليأس السريع الذي يقوض مقاومة الضحايا ويتركهم فريسة سهلة للمرض) والمصيبة الأخرى هي عدوى السليم من المصاب ، مما يجعل الناس يموتون كالأنعام وحدثت وفيات كثيرة بسبب العدوى . وحيثما يرفض السليم أن يقترب من المريض خوفاً من العدوى ، فإن المريض يموت بلارعاية ، ويحصد الموت سائر أهل المنزل لآخر واحد إذ لم يسكن يوجد أحد يقوم بالتمريض . ومن جهة أخرى ، عندما يهبون لمساعدتهم كان هؤلاء يموتون أيضاً ، وقدعانى الناس في أى مستوى سلوكي الأمرين

بهذا الصدد ، مادامت مشاعرهم النبيلة دفعتهم الى أن يضجوا بأنفسهم ويمضوا في تريض أصدقائهم بينما كان الرعب يخيم . فالأقارب للموتى غالباً ما يتمزقون من الأنين ويخلون مرا كزهم . وكان أبرز المتعاطفين مع المرضى والموتى هم من في دور النقاهاة ، فهم يتحققون مما يعانیه المرضى وليس لهم ما يخشونه على أنفسهم ، اذ أن الشخص نفسه لا يهاجمه المرض مرة أخرى هجوماً قتالاً . لقد تلقوا التهنئة من كل إنسان ، وملاً هم غرور اللحظة الراهنة بآمال كاذبة عن بقائهم في مناعة دأمة من الموت من أى مرض .

وزاد هول الألم بتركيز السكان الريفيين في المدينة ، ولا سيما في اللاجئين أنفسهم . ولم تكن هناك بيوت لمأواهم ، وتسكدسوا في أكواخ خانقة في جو هذا الصيف . ولم يكن هناك حد معين لوفاتهم . وتسكدست جثث الموتى الواحدة فوق الأخرى ، بينما البؤساء الذين يعانون سكرة الموت تضوروا في الشوارع وتكاثروا حول جميع النافورات يتطلعون بئاس إلى الماء . حتى أما كن العبادة التي كان يستريح فيها الجنود امتلأت بأجساد من مات في التخوم ، لأن الرعب كان يتدفق بشكل كبير حتى إن الشعب لم يعرف كيف يواجهه وفقد كل اعتبار للوصاية المقدسة أو الدنس . وانقلبت المراسيم الجنائزية المألوفة ، إذا أنهم دفنوا موتاهم بأفضل ما في وسعهم ، وفقد الكثيرون كل إحساس باللياقة إزاء الضائقة التي وصلوا إليها بسبب عدد الوفيات في ذويهم . ووجد بناء المحرقة أنفسهم محتجزين من الآخرين ، الذين يضمون موتاهم عليها ويشعلونها أو الجمالين الذين يلقون بالجثمان على كومة محترقة ويجرون بسرعة .

وفي الحقيقة ، فإن الطاعون أعطى باعثاً لكل نزعة غير اجتماعية في أئينا . فانفجرت الأحابيل والمراوغات التي أحاطت من قبل بأنواع معينة من السلوك تحت وطأة تقلبات الحظ السريعة . وانظفاً الخير في بريق العين ووهب المفلسون ممتلكات على حين فجأة . أما الأخلاق التي لافكاك منها فكانت أن تصرف بسرعة وأن تصرف على اللهو ، مادامت الحياة والثروة من أمور الساعة . واختلفت

رغبة الاحتفاظ بأساليب الشرف المعروفة ، خلال عدم التأكد من أن الموت سوف يحل قبل تحقيق الهدف ، واغتصبت اللذة المؤقتة وكل ما سيتصل بها مكان الشرف والخير . أما مخافة الله وتقاليد الإنسان فقد كفت عن أن تزاوّل قدسيتهما . مادام الموت يحل بالمعادل وغير المعادل ، وبدا الأمر على أنه ليس هناك محل للاختيار بين التقوى والكفر ، ولم يتوقع المجرمون أن تمتد بهم الحياة حتى يقتص منهم ، وأحسوا بأن عقاباً قد حل بالفعل على رؤوسهم وأن الحياة يجب أن تسمح ببعض المتعة قبل أن تحل بهم الضربة .

أجزء الثالث
فن التاريخ

القسم الأول

مسائل فنية

الإشكال الزمني حول هرقل

(هيرودوت : الكتاب الثاني . الفصول ٤٣ - ٤٥)

لقد سمعت ، فيما يتعلق بهرقل ، أنه من المقرر في مصر أنه كان واحداً من الآلهة الاثني عشر ، إلا أنني لم أنجح أبداً في العثور في مصر على أثر عن (الهرقل الآخر) الذي يألفه الهلينيون . ومن المؤكد أن المصريين لم يأخذوا إطلاقاً الاسم من الهلينيين وإنما الهلينيون هم الذين أخذوا الاسم عن المصريين ، وقد تم هذا على أيدي الهلينيين الذين أطلقوا اسم « هرقل » على ابن « أمفتريون » Amphitryon . وأحد الأدلة الكثيرة على ما وجدته مقنعا في هذه المسألة هو أن أبوى « هرقل » أمفتريون والكمينا Alcmena ، كانا ينحدران من مصر ، وأن المصريين ينكرون كل معرفة بأسماء « بوسيدون » Poseidon « وديوسكوري » Dioseuri ، ولم يعرف البانثيون Pantheon المصري بهذه الآلهة الأخيرة ، في حين أنهم ، إذا كانوا قد أخذوا اسم أي إله من هيلاس ، كان لهذه الآلهة الثلاثة أن يحدث انطبعا في ذكرياتهم . واعتقادي الشخصي ، أن الحكم الذي له وزن هو أن للمصريين في تلك الفترة ، كانوا يجوبون البحروا أن هذه الآلهة الثلاثة كانت من عناصر الملاحه في هيلاس — وهي ظروف من شأنها أن تجعل أسماء هذه الآلهة مألوفة للمصريين أكثر من اسم هرقل .^(١) وأيما كان الأمر ، فقد كان لدى المصريين إله قديم خاص بهم يدعى « هرقل » يدخلونه في زمرة الاثني عشر إلها وقد وضع Eight هذه الآلهة الاثني عشر في الألف السابقة قبل حكم « أمازيس »^(١) Amasis .

(١) كان بوسيدون وديوسكوري الحماة الهلينيين الملاحه (المحقق)

(٢) ٥٦٩ - ٥٢٥ ق . م (المحقق) .

ورغبة في أن أحصل على معلومات دقيقة حول هذه المسائل من أولئك الذين هم أهل لتقديمها ، أبحرت إلى (صور) في فينيقيا ، حيث سمعت أنه كان هناك ضريح نذر لهرقل . ووجدته مزيناً بشكل فاخر بعدد كبير من الذنور ، وبه عمودان ، أحدهما من الذهب الخالص والآخر من الزمرد (ويظل العمود الأخير لامعاً مضيئاً في الظلام) ودخلت في حديث مع كهنة الآلهة وسألتهن عن التاريخ الذى أقيم فيه الضريح ، وعلمت عندئذ أنهم ، لا يقولون عن المصريين اختلافاً مع الهلينيين . إذ إنهم أخبروني أن تأسيس الضريح يعاصر تأسيس (صور) نفسها ، وهو تاريخ يعود إلى ٢٣٠٠ سنة مضت .

وفي صور ، شاهدت ضريحاً ثانياً لهرقل يطلق عليه (هرقل الثاسوسى) Heracles of Thasos . وفي (ثاسوس) نفسها (التى زرتها أيضاً) اكتشفت معبداً لهرقل أقامه فى الأصل الفينيقيون الذين استعمروا الجزيرة خلال رحلة قاموا بها بحثاً عن « يوروباً »^(١) . — وهى حادثة سابقة بخمسة أجيال على مولد هرقل ابن « أمفثيون » فى هيلاس . وتبين نتائج أبحاثى بوضوح أن هرقل كان إلهاً قديماً ، وفى رأى ، أن الإجراء الأكثر صحة هو ذلك الذى اتبعه الهلينيون الذين أقاموا أضرحه مزدوجة لهرقل وحافظوا عليها ، وشرفوا بها من حمل الاسم على حدة باثنين من الطقوس المتميزة ، — أحدهما خالد وهو يدخل فى زمرة سكان الأوليمب ، والآخر يدخل فى زمرة القديسين^(٢) . والهلينيون الذين يقترفون عبارات سيئة التقدير ، يسردون على الأخص أسطورة طفولية تتصل بهرقل . تدور حول الوقت الذى زار فيه هرقل مصر ، وعندما أخذه المصريون ضحية وقادوه فى موكب رزين ليقدموه قرباناً إلى « زيوس » . لم يبد البطل أى مقاومة ولكنه عندما تأهبوا لوضعه على المذبح ، قاوم فى سبيل حياته وأتى لآخر رجل وفى رأى ، أن القصة تفصح عن الجهل الكامل من جانب الهلينيين بطبيعة

(١) كانت يوروباً، حسب أسطورة الهلينيين، أميرة فينيقية اختطفها الإله زيوس وهو فى شكل

ثور وحملها إلى كريت (المحقق)

(٢) « بطل » فى اليونانية (المحقق) .

المصريين وأنظمتهم . فان الذبائح الحيوانية ، عند المصريين ، بمثابة (تابو) فيما عدا الأغنام والثيران ونتاج الثيران . ومن هنا . فليس من المعقول أن يقدم المصريون ذبائح بشرية . وكذلك حسب افتراض الهلينيين فهناك هرقل واحد ، وهذا الفرد الوحيد كان كائناً بشرياً ، والفكرة القائلة بأنه ذبح عشرة آلاف لاتتفق مع مجرى الطبيعة . وبهذا أختتم ملاحظاتي حول الموضوع — الذى أثق إزاءه بأنه لا الآلهة ولا القديسون يحملونى رغبة فاسدة .

تقويم مصرى و تقويم هليينى

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٤٢ — ١٤٦)

وعند هذا الحد من روايتى ، كانت مصادرى هى المصريين و كهنتهم ، الذين حسبوا الفترة من أول ملك حتى كاهن « هيفاستوس » Hephlaestus ، ويشتمل حكمهم على سلسلة من ٣٤١ جيلاً ، مليئة بهذا العدد الدقيق من كبار الكهنة والملوك على التوالي . وتقدر الأجيال الثلاثمائة الآن ب ١٠٠٠٠ عاماً^(١) ، بينما الواحد والأربعون جيلاً الباقية ، بالإضافة إلى الأجيال الثلاثمائة ، تكون ١٣٤٠ عاماً ، وفى عبارة أخرى فإن المصريين يؤكدون أنه بالنسبة ل ١١٣٤٠ عاماً ، لم يكن هناك إله يتجسد فى شكل إنسان — وهى ظاهرة لاتعزى بطبيعتها ، فيما يتعلق بهذا الموضوع الى أى من ملوك مصر الباقين ، سواء كانوا سابقين على هذه الفترة أو لاحقين لها . وخلال الفترة موضع البحث ، يؤكدون أن إله الشمس قد تحول عن مكانه السابق فى أربع مناسبات — وهناك دورتان تحول فيها فكان يغيب حيث يشرق الآن ويشرق حيث يغرب الآن^(٢) . وأضافوا أن هذه الثورات الفلكية لم تحدث أى تغيير فى الظروف البيئية لمصر ، كمسائل خواص التربة أو الفهر ، وحالة الصحة العامة ومعدل الوفيات .

(١) ثلاثة أجيال مائة عام (المؤلف)

(٢) إشارة مضطربة إلى الدورة الفلكية من التقويم المصرى ، ومن المفروض أن يبدأ الشهر الأول يوم بزوغ كوكب الشمس (سوتس) وهو تاريخ يتكرر فعلاً مرة كل ١٤٦٠ سنة فلكية (المحقق) .

(م ١٤ — الإغريق)

وقد حدث قبل زمانى أن زار « هيكاتيوس » Hecataeus الراصد^(١) طيبة Thebes وشرع فى سرد نسبه انلخاص ، حيث ربط فيه أسلافه بالآلهة فى الجيل السادس عشر ، وحيث فعل معه كهنة « زيوس » ما فعلوه معى من قبل ، على الرغم من أننى أحجمت عن أن أخذو حذوه . لقد أخذوه إلى البهو الداخلى الكبير للمعبد وعرضوا فى حضرته سلسلة من التماثيل الخشبية يصل عددها إلى الرقم الذى ذكرته . وكانت هذه هى عادة كل كاهن كبير أن يقيم له شبيهاً إبان حياته فى هذا المبنى . وقد استعرض الكهنة هذه التماثيل مرة أخرى فى حضورى ، وزعموا وجود تسلسل غير منقطع من الأب إلى الابن ، وكان الإجراء الذى قاموا به هو أن يبدأوا من تمثال الكاهن المتوفى مؤخراً حتى يأتوا على نظائر السلسلة كلها . وأياً ما كان الأمر ، فعندما كان « هيكاتيوس » يسرد نسبه ويربط نفسه بإله الجيل السادس عشر ، لم يكونوا قانعين بإحصاء التماثيل وإنما سردوا أنسابهم هم فى مقابل أنسابه ، حتى يظهروا تشككهم فيما يتعلق بتأكيده أن إنساناً ما من نسل الله . وكان منهمجهم فى سرد أنسابهم المقابلة هو أن يملنوا أن كل تمثال كان « بكرًا »^(٢) أو جده « بكر » حتى أوجدوا نظائر لـ ٣٤١ تمثالا ، ورفضوا أن يربطوها بإله أو قديس . وكانوا ، بالطبع ، يزعمون بأن سائر سلسلة الأفراد التى تمثلها التماثيل كانت كائنات بشرية ، وهى جميعاً بعيدة عن الآلهة . وأياً ما كان الأمر فهم يسلمون بأنه قبل زمن هؤلاء الرجال ، فإن حكام مصر كانوا آلهة يسكنون بين البشر ، وكان يحكمهم أحدهم دورياً . وطبقاً لروايتهم ، فإن آخر ملك — إله فى مصر كان « حورس » Horus بن « أوزيريس »^(٣) Osiris الذى يطلق عليه الهلينيون « أبولون » Apollo .

وكان من المفروض أن يكون أصغر الآلهة فى هيلاس هم « هرقل » و

(١) راصد مبكر وراوى للأنسب من (ميليتوس) المدينة الهلينية (عرف فى القرن السادس ق . م) — المحقق

(٢) Piromis فى المصرية تقابل الكلمة اليونانية (السيد) — المؤلف

(٣) Horus هو آخر ملك فى سلسلة الملوك الذين ارتقوا العرش فى مصر بعد الإطاحة بـ

« تيفوس » والكلمة اليونانية « أوزيريس » هو « ديونيسوس » — المؤلف

« ديونيسيموس » و « بان » Pan بينما « بان » في مصر هو أعظم مجموعة الآلهة الأولى قدماً « ضمن » و « هرقل » من المجموعة الثانية « الاثني عشر » و « ديونيسيموس » من المجموعة الثالثة التي تنحدر من « الاثني عشر » وقد أصبح التاريخ الذي وضع فيه المصريون « هرقل » بالإشارة إلى حكم « أمازيس » ضحاً فعلاً . أما تاريخ « بان » فهو مبكر عن ديونيسيموس آخر الثلاثة ، على الرغم من أن الفترة التي تفصل ديونيسيموس من حكم أمازيس تقدر بـ ١٥٠٠٠ عاماً ويعلم المصريون أنهم يعرفون هذه الوقائع بالتأكيد خلال سلسلة غير منقطعة من الإحصائيات والسجلات التقويمية وفي مقابل هذا فإن « ديونيسيموس » هو الذي زعم أنه ابن « سيميل » Seme e ابنة « كادموس » Cadmus الذي عاش منذ ١٠٠٠ عام قبل علي وجه التقريب وعاش « هرقل » ابن « الكمينيا » منذ ٩٠٠ عاماً ، « وبان » ابن بنيلوبي^(١) penelope ٨٠٠ تقريباً ، أو لم يعيش قبل الحرب الطروادية بكثير . وعلى القارىء أن يأخذ من هذه التواريخ المتعارضة ما يجده أكثر اتساعاً . أما تعقبي الشخصي على الموضوع فقد أوضحتها فعلاً . وإذا ما كان الاثنان الآخريان ، والذان أقصد بهما ديونيسيموس بن « سيميل » و « بان » « بنيلوبي » ، فقد أوجدوا أثارهم وعاشوا حتى نهاية أيامهم في هيلاس ، مثل هرقل بن أمفثيون ، ويمكن الجدل بأن الهلينيين الذين يحملون هذه الأسماء كانوا بالمثل أناسا اكتسبوا الأسماء من أسلافهم وسموا الإلهين المصريين . وأيا ما كان الأمر ، فإن الهلينيين يؤكدون أن « ديونيسيموس » بعد ولادته مباشرة ، التصق بفخذ زيوس ونقل « نيسا » Nysa في جنوب مصر ، بينما كانوا غير قادرين أن يجبروك ماذا فعل « بان » مع نفسه عندما ولد . وعلى هذا فمن الواضح بالنسبة لي أن الهلينيين تعلموا أسماء هذين الإلهين في تاريخ متأخر عن هؤلاء الآخرين ، وأنهم ، في حساب أنسابهم ، يؤرخون مولدهم من الفترة التي سمعوا فيها عنهم لأول مرة .

(١) حسب الرواية الهلينية ، وكانت أم « بان » هي « بنيلوبي » ووالدة هرتميس .

دليل كتابي

(بوليبينوس: الكتاب الثالث . الفصل ٢٦ - ١ - ٥ و ٣٣ - ١٧ - ١٨
والكتاب الثاني عشر الفصل ١١ - ٤ - ١).
لقد أوضحت الآن قسما هذه المعاهدات ^(١) ، ونصوص كل معاهدة
محفوظة على ألواح ^(٢) البرنز ، في معبد زيوس على الكايبيتول ^(٣) في حجرة
الوثائق ^(٤) . وعلى ضوء هذا ، فكل شخص الحق في أن تملكه الدهشة إزاء
المؤرخ « فيلينوس » ^(٥) لا لجهله بالوقائع ^(٦) ، وإنما إزاء الوقاحة التي
لا تصدق عندما يجرؤ على تأكيده نقيض ذلك ، ويزعم أن المعاهدات بين روما
وقرطاجنة كانت قائمة وهي التي منعت الرومانيين من دخول أى جزء من صقلية
ومنعت القرطاجينيين من دخول أى جزء في إيطاليا . وهو افتراض يستنتج منه
أن الرومانيين انتهكوا وعودهم الموقرة عندما حلوا لأول مرة في صقلية ^(٧) .
على الرغم من أنه ليس هناك مثل هذه الوعود المكتوبة التي تبين أن هذا قد حدث
في وقت ما ، وهذا هو التأكيد الواضح الذي دونه « فيلينوس » Philinus في
مجلده الثاني . ولقد أشرت إلى هذه المسألة في مقدمة مؤلفي ، إلا أنني أرجأت
تناولها إلى الفرصة الحالية . والتي أقوم بها الآن بشيء من التفصيل ، على ضوء
أن كثيرا من دراسي التاريخ قد انقادوا إلى الخطأ في هذا الصدد بسبب اعتمادهم
على عمل « فيلينوس » . . .

وينبغي ألا يدهش قرأى إزاء دقة هذه العودة ^(٨) حتى على الرغم من أنني

-
- (١) المعاهدات المبكرة بين روما وقرطاجنة (المحقق)
 - (٢) بعض أجزاء المستندات الهلينية والرومانية (القانونية والدينية) حُفرت على ألواح البرنز
وبقيت من التاريخ القديم ، رغم أن النصوص المذكورة هنا ليست من بين العدد (المحقق) .
 - (٣) جوبيتر كابيتولاينس (المحقق)
 - (٤) كلية لضباط يختارون سنوياً في روما وكانت وظائفهم اقتصادية بحجة (المحقق)
 - (٥) مؤرخ هليني للحرب البونية الأولى (٢٦٥ - ٢٤٢ ق م) وكان من الواضح
أنه معاصر لها (المحقق)
 - (٦) ليس هناك ما يبعث على الدهشة في هذا ، على اعتبار أنه حتى في أيامنا فإن هذه
النصوص لم تكن معروفة لأكثر المدرسين اهتماماً بالشؤون العامة ، بما فيهم أولئك الذين وهبهم
عصرهم أكبر قدر من الذاكرة (المؤلف)
 - (٧) في عام ٢٦٤ ق م أول حملة في الحرب البونانية الأولى (المحقق) .
 - (٨) عودة القوة التي غزاها هانيبال في إيطاليا

قد وصفت إجراءات « هانيبال » في أسبانيا بتفصيل أكبر أكبر من السند الأول الذى يعرض الشئون الجارية التى مرت من بين يديه ، وينبغى ألا يدينونى كذلك دون أن يستمعوا لى إذا ما سلكت برينة كمسلك المؤرخين الأفا كين عندما يرغبون فى خلق انطباع بالحقيقة . وأن القائمة فى ضريح (لا كينيوم)^(١) Lacinium عن اكتشافى ، حيث وضعت فى سجل من ألواح برززية بواسطة هانيبال ، فى أثناء حملاته فى إيطاليا . واثق باطمئنان فى هذه الوثيقة ، وعلى الأقل فى المسائل التى سردتها ، والتي عازمت على اتخاذها هادياً لى .

وإذا ما كان صديقنا « تيمايوس »^(٢) قادراً على أن يضع يديه على أية محفوظات عامة أو نصب تذكارى تأييداً لرأيه ، فهل لنا أن نفترض أنه فشل فى أن يذكرها؟ إن « تيمايوس » هو المؤرخ الذى يقارن قائمة الدليل السنوى فى (أسبرطة) مع قائمة الملوك (حتى عصور قديمة) ؛ وهو الذى يرتب حكام أثينا السنويين والكاهنات فى (أرجوس) فى أعمدة مقارنة مع الظافرين فى الألعاب الأولمبية ؛ وهو الذى يعرض أخطاء الحكومات فى سجلاتها الرسمية عن هذه المعلومات ، التى يثبت فيها أن ثلاثة شهور غير دقيقة . مرة أخرى ، إنه « تيمايوس » الذى اكتشف السجلات على الجانب الخطأ من المباني العامة وقوائم القناصل الأجانب على أبواب المداخل الجانبية فى الأضرحة

مكان الجغرافيا فى التاريخ

(بوليبىوس : الكتاب الثالث . الفصول ٥٧ — ٥٩)

والآن وقد أدت روايتى فيما يتعلق بى وبقيادة القوات المعادية والحرب ذاتها^(٣) حتى أعتاب إيطاليا ، فإننى أرغب ، قبل أن أبدأ فى العمليات الحربية ، أن أناقش بإيجاز مسائل معينة غير مناسبة فى عملى . إذ إنه من المحتمل أن يتوق بعض القراء

(١) ضريح شهير للربة (هيرا) فى إقليم كروتون وهى عاصمة هالينية فى آخر إيطاليا (المحقق) .
(٢) « تيمايوس » من تور ومينيوم (٣٤٦ — ٢٥٠ ن . م) مؤرخ هالينى شهير ضاعت مؤلفاته . ومعلوماته الرئيسية عنه مأخوذة من بوليبىوس ، لهجمات الطويلة والعنيفة عليه (المحقق) .
(٣) الحرب الهانيبالية أو (الحرب الثانية) بين روما وقرطاجنة (المحقق) .

إلى معرفة ماهى تلك المسائل، بعد التوسع فى جغرافية شمالى غرب أفريقيا وأسبانيا، ولم أسهب بالذات فى مضايق جبل طارق، والمحيط الأطلنطى وظواهرها الغربية، والجزر البريطانية وصناعة القصدير، أو مناجم الفضة ومناجم الذهب فى أسبانيا ذاتها - وهى موضوعات أفسح لها المؤرخون السابقون صفحات عديدة من المناقشة. والسبب عندى فى طرح هذا الفرع من التاريخ جانباً لم يكن لأنه غير مناسب، وإنما لأنه غير مرغوب فيه، وفى المحل الأول، لأنه يقطع بشكل مستمر سياق الرواية ويحرف انتباه القارئ الجاد عن موضوعى العمل، وفى المحل الثانى، هو قرار موضوعى بالأتناول هذه المادة بطريقة مستقلة أو عرضية، وإنما لأخصص لهذا الفرع مكاناً خاصاً ووقتاً خاصاً به وبعدئذ أقدم رواية لها بكل ما أملك من دقة. ولهذا ينبغى ألا يدهش قرائى، إذا ما وجدوا فى الفصول التالية، أنى، عندما أصل إلى مناطق أخرى من الاهتمام الخاص بالجغرافيا، قد طرحت جانباً هذا الفرع من البحث - فقد وضحت مبرراتى لهذا الآن. وإذا ما أصر أى قارئ على تلقى هذه المعلومات شيئاً فشيئاً، ومنطقة منطقة، فمن المحتمل ألا يكون مدركاً أنه بهذا يسلك مسلك النهم على المائدة. إذ إن النهم يتذوق كل طبق ولا يستمتع أصلاً بأى من المأكولات فى لحظة أكله ولا يحصل على أية فائدة دأمة منها فى طريقة الهضم والغذاء، وإنما يحصل تماماً على عكس ذلك، وكذلك فإن القارئ النهم يضر بنفسه، سواء كان هدفه التسلية المؤقتة أو التثقيف الدائم.

إن الحاجة الفعلية للتفكير الوثيق والإصلاح (فى اتجاه دقة أكبر)، والتي يندرج تحتها هذا الفرع من التاريخ أكثر من أى فرع آخر، قد وضحت من اعتبارات عديدة، وسوف أذكر أكثرها إقناعاً. إن سائر كتاب التاريخ تقريباً أو الأغلبية الساحقة على أى تقدير، سعوا إلى وصف وضعية البلدان التى تقع على حدود العالم المأهول المعروف لدينا وخواصها، ووقعت الأغلبية فى عملها هذا فى أخطاء لا حصر لها. وعلى هذا ليس هناك عذر لطرح هذا الموضوع جانباً، ولكن بذات الوقت، مهما قيل فى الرد على أسلافنا يجب أن يقال بانتهاء كامل

ولا يقال بطريقة عارضة مشوشة . ويجب أيضاً ، ألا يقال بروح اللوم أو بنعمة التقريع . فمن الأسلم أن تمتدح جهودهم مع تصحيح أخطائهم ، مدركين أن أولئك المؤرخين لو كانوا قادرين على أن يفيدوا من الفرص الراهنة ، لتوفروا على تصحيح وإعادة ترتيب كثير من أعمالهم التي نشرت . ففي الماضي ، كان من المستحيل أن نشير إلى عدد أكثر من الهلينييين المرموقين الذين سمعوا إلى الإفادة من الأراضي المتاخمة - وكان العائق هو عدم القدرة على تطبيق المشروع . وكانت مخاطر السفر بحراً وقتئذ لا يمكن حصرها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، رغم أنها لم تكن سوى جزء من أخطار البر . ولو نجح المسافر كذلك ، عن رغبة أو إزام في الوصول إلى تخوم الأرض ، فإنه كان ما يزال معرضاً لعدم إكمال هدفه . وكانت أية ملاحظة أولية أخرى تلاق صعوبات لأن بعض المناطق أصبحت أقل حضارة والبعض الآخر خالياً من السكان ، بينما الاختلاف في اللغات البشرية جعل من الصعب إدراك أية معلومات نتيجة البحث فيما يتعلق بالأهداف التي تقع تحت البصر . وأياً ما كان الأمر فحتى عند إدراك هذه المعلومات ، فإن العمل الأكثر صعوبة منها جميعاً من وجهة نظر المراقب ، كان أن يزاول كبح جماح النفس لمقاومة إغراء العواطف والمتاجرة الغريبة ، حتى يعطى واجب الأمانة الأول إلى الحق وأن يقرر لنا الحقيقة كاملة ولا شيء غير الحق . وبالتالي ، فإن البحث التاريخي الدقيق في المواضيع السابق ذكرها لم تكن صعبة جداً بدرجة مستحيلة في الماضي ، وأبعد من أن تسحق اللوم لأخطائهم ونقائصهم ، فإن كتاب اليوم قد يطالبون بحق برضائنا وإعجابنا بمثل هذه الوقائع كالتى يؤكدها وللدولة التى طوروا بها معرفة الموضوع الذى يوجد تحت ظروف معاكسة . وأياً ما كان الأمر ، ففي الأزمنة الحديثة ، نجد أن إمبراطورية الإسكندرية فى آسيا وسيادة روما فى كل مكان قد فتحت تقريباً كل العالم للبر أو البحر ، بينما رجال الأعمال وجدوا أطماعهم تتحول من المهن الحربية والسياسية وقدمت لهم الظروف الجديدة تشهيلات هامة وعديدة للاستثمار والبحث فى الموضوعات السابقة ، ولهذا فإنه محتم علينا أن نكتسب معرفة أكثر ودقة أفضل فى حقول لم يخطط لها من قبل وسوف أحاول أن أسهم من

جانبي في هذه المهمة عندما أصل إلى حد ملامم في مؤلفي لهذا الفرع من الاستقصاء وسوف آمل أن أدرب طلاباً جادين على الموضوع بطريقة مفهومة . وفي الحقيقة ، فإن هدفى الرئيسى هو تعريف نفسى للأخطار التى أحصيتها فى رحلاتى فى أفريقيا وأسبانيا ، وأيضاً فى بلاد الغال Gaul وفى المحيط الذى يغسل شطآن هذه البلدان النائية ، وكان من شأنها أن تصحح جهل أسلافنا فى هذا الفرع من المعرفة وأن نجمل هذا الجزء من العالم مألوفاً للجمهور الهليني كبقية الأجزاء الأخرى .

منهج الفصول المتعاقبة

(بوليبيوس : الكتاب ٢٨ الفصول ٥ - ٦)

إننى لست بغافل عن أن بعض القراء سوف ينتقدون عملى على أساس أننى قدمت رواية للأحداث غير كاملة ومشوشة - فمثلاً ، عند المضى فى سرد حصار قرطاجنه أغفلتها فجأة فى الوسط ، وقطعت سلسلة أفكارى ومضيت أتابع تدابير هيلاس ، ومقدونيا وسوريا أو مناطق أخرى . وسوف يقال لى إن الدارسين الجادين يطلبون الاستمرار ويرغبون فى متابعة موضوع ما حتى ختامه - وهو المنهج الذى من شأنه أن يحصل على أقصى قدر من الكفاءة ويقدم أكبر قدر من التعليم إلى القارئ اليقظ . أما من جهتى ، فإننى لا أخالف هذا الرأى فحسب بل إننى أعزز الرأى المضاد ، تدعيماً لما أنا على استعداد لأن أطلق عليه دليل الطبيعة ذاتها . فإن الطبيعة لا ترغب ، فى حدود أى معنى على حدة أن تبقى بشكل مستمر على موضوع بذاته . إن الطبيعة هى الحامى المخلص للتغيير ، وهى ، إذا ما مالت إلى موضوعات متشابهة ، فإنها تفضل أن تفعل هذا فى فترات ومن زوايا مختلفة ، وسوف تتضح قضيتى من زاوية السمع ، التى لا تميل إلى البقاء بشكل مستمر فى مراحل متماثلة ، سواء سمعت أو سردت ، ولكن التغييرات هى التى تنبها ، وبطريقة عامة ، أو أى شىء شاذ أو يتسم بالأحمان عنيفة وسريعة ، وبالمثل ، فإن معنى الذوق سوف يكون غير جدير بالاحتفاظ به ، دون تغير ، حتى بالنسبة لأدسم الأطباق . إنها تشبع سريعاً حتى إنها لتبتهج بالتغير وترحب دائماً بالطعام السهل أكثر من الطعام الدسم

لمجرد التجديد . وسوف تلاحظ الظاهرة نفسها في حالة رؤيتها ، فإن النظر غير كفو من الناحية العملية في التركيز بشكل مستمر على هدف واحد ، ولكن يثيرها القنوع والتغير في مجال الرؤية . وأياً ما كان الأمر ، فإن أكثر أمثلة القانون وضوحاً متوافر في ذهن ، فإن المشتغلين بالمسائل الذهنية المضمنية يجدون تسليمة مماثلة في نقل البؤرة العقلية والانتباه من موضوع إلى آخر . والحق أننى أعتقد بأن أكثر المؤرخين المرموقين القدامى يقتبسون عن وعى وسائل هذه التسليمة ، البعض عن طريق التحريف في شكل الأسطورة أو الملحة ، والبعض الآخر عن طريق تشتيت روايتهم التاريخية بشكل كبير فمثلاً لا يقصرون نقلهم على أجزاء هيلاس المختلفة ولكنهم يحتضنون العالم الخارجى . إننى أفكر فى مثل هذه الحالات بصفتى مؤرخاً ، يقطع روايته فى منتصف سزدر تاريخ تساليا وتداير « الإسكندر الفرايوى » Pherae ، ليصف مشروعات الإسبرطيين فى البليونيز ، وحتى مشروعات أهل طيبة ، أو ، الأحداث فى مقدونيا أو الليريا Illyria أيضاً ، وهو الذى يشرع فى التباطوء فى حملة إيفقراط Iphicrates إلى مصر أو انتهاك حرمة « كليارخوس » Clearchus فى البحر الأسود . والنتيجة هى أن سائر الكتاب التاريخيين سوف نجد أنهم استخدموا هذا المنهج فى التناول ، إلا أنهم فعلاه بلا منهج نظامى ، حيث أكون أنا نظامياً . وعلى سبيل المثال ، فإن الذين سبقونى بعد أن سجلوا كيف أن الملك الليدى « بارديليس » Bardylis أو ملك تراقيا « كيرسوبليتيس » Cersobleptes حصلوا على عروشهم ، لا يقطعون هذه الرواية دون أن يقدموا فى القصة فصلاً ثانياً فحسب ، بل إنهم أيضاً ينسون أن يخطر ببالهم المتابعة بـمد فترة معينة ، بدلاً من النتيجة التى يرجعونها إلى موضوعهم الأسمى ويتناولون الآخر بوصفه مجرد إدماج . وكان على منهجى الخاص أن يميز سائر مناطق العالم الهامة نسبياً والإجراءات الواحدة من الأخرى التى كانت مسرحاً لكل منها على حدة ، وأن يتمسك فى عرضه لها ، بنظام ثابت من المتابع ، وأن يرى فى حدود كل سنة متتالية ، الأحداث المتعاصرة التى وقعت فيها . وبهذه الطريقة أجعل من المستحيل بالنسبة للدراسين الجادين أن

يخطئوا المسائل التي التزم نحوها بمتابعة الأحداث التي رويت من قبل أو أن أقطع روايتي للأحداث في أية حالة معينة ، بحيث لا أترك جزءاً من الأجزاء السابق ذكرها مبتوراً أو ناقصاً . من وجهة نظر القارىء الجاد .

(أنا) في الرواية

(بوليبوس : الكتاب ٣٦ . الفصل ١٢)

ينبغي ألا يدهس قرائي إذا ما أشرت في بعض الأحيان إلى نفسي باسمي وفي بعض الأحيان بتعبيرات عامة مثل (عندما قلت هذا) أو (عندما اتفق في هذا) . والحقيقة أنني غارق جداً في الإحساس الشخصي ، في الإجراءات التي ينبغي أن أرويها من هذه النقطة فصاعداً ، يجعل من الضروري بالنسبة إلى أن أغير من الإشارة إلى نفسي . وعلى أن أتجنب أى حرج بتكرار اسمي بشكل رتيب وعلى كذلك أن أكون يقظاً إزاء الانزلاق في السوقية باستخدام كلمة (أنا) و (في روايتي) في كل مناسبة . وعلى هذا سوف أفيد من كل هذه القضايا ، مختاراً التغير الأكثر مناسبة لكل مقام ، بأفضل ما يعذرني قرائي من أكبر رذيلة شاقة وهي الإعلان عن النفس - وهي خدعة أسلوبية ينشأ عنها اسمئزاز غريزي على الرغم من أنه لا يمكن تجنبه في الغالب عندما لا يكون هناك منهج بديل عنه في تقديم مادة الموضوع . إن الحظ السعيد قد ساعدني على أن أحل هذه المشكلة حسب الحقيقة التي تقضى بأن - في حدود أقصى معلوماتي - ليس هناك فرد آخر قبل زماني ، كان اسمه « بوليبوس » .

الخطب : مكانها الملائم وغير الملائم

(بوليبوس : الكتاب ٣٦ . الفصل الأول ، والكتاب ١٢ . الفصل ٢٥ - ب)

من المحتمل أن يتطلع بعض قرائي لمعرفة كيف أنني لم أسع إلى الشهرة بإعادة الخطب التي ألقها الأطراف المختلفة ، مادام لدى موضوع يمثل هذه الضخامة ومجال

بمثل هذا الاتساع . ولكن لماذا لم أترسم خطى أغلبية المؤرخين ، الذين صنفوا الأحاديث الهامة حسب المناسبة التي أقيمت فيها كل منها ؟ إن الحقيقة التي تقضى بأننى شخصياً لم أنبذ هذا الفرع من الكتابة التاريخية قد وضحت بشكل كاف في مقاطع كثيرة من عملي وذكرت فيها مراراً أحاديث ومؤلفات الناس الجماهيريين ، إلا أنه قد أصبح من الواضح الآن أننى لم أتشبث بأن أتابع هذه التجربة بمناسبة وبلا مناسبة ، على اعتبار أنه لن يكون من اليسير أن نجد موضوعاً أكثر أهمية من الموضوع الراهن^(١) أو مادة وافرة أقدمها لقرائى . وقد أضيف بأن شيئاً لن يكون أكثر بساطة بالنسبة لى من أن أقدم جهداً أديب من هذا النوع ، مادمت غير مقتنع بأن القاعدة نفسها تنطبق على المؤرخ كما تنطبق على السياسى . إذ أنه ليس من واجب السياسى أن يعلق أو يوسع تفاصيل أى موضوع يطرح للمناقشة ، وإنما عليه أن يوائم بين عباراته في مناسبة بعينها ، وكذلك ليس من مهمة المؤرخ أن يتدرب على حساب قرائه أو أن يستعرض قدراته الأدبية بأقصى ما فى وسعه من جهد ، ولكن عليه أن يبذل قصارى جهده فى إفادتهم وأن يشرح العبارات التي قيلت فعلاً ، ملتزماً بأكثر المقاطع حيوية وفعالية .

ومما يجرى كضرب الأمثال ، أن أى قطرة من أكبر جرة تكفى بأن تفصح عن طبيعة اللون كله الذى تحتوى عليه ، وهذا ينطبق على الموضوع الذى بين أيدينا فعندما تدون رواية أو روايتان مغلوطنان فى عمل تاريخى ، وتكون هذه الروايات قد وضعت عن عمد ، فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك اتكال أو ثقة بأية تأكيدات عن مثل هذا الكاتب ، وأقترح على أمل إقناع حتى أبطال « تيبايوس » الغيورين ، شيئاً بخصوص سياسته والتطبيق فيما يتعلق بالأحاديث والمرافقات ، والذكرات الدبلوماسية الشفهية ، وباختصار كل أنواع الخطب ، التي يمكن اعتبارها تقريباً مختصرات للخطب وكفاسم مشترك للكتابة التاريخية . ولا يكاد القراء يخطئون فى أن « تيبايوس » قد زيف ، وزيف عن عمد ، الأحاديث

(١) نشوب الحرب الثالثة والأخيرة بين روما وقرطاجنة (١٥٠ / ١٤٩ : ن : م) المحقق .

التي تنطوى عليها مؤلفاته ، فبدلاً من أن يستعيد العبارات كما قيلت فعلاً ، فإنه يقرر ما ينبغي أن يقال ويأخذ بعدئذ في تفصيل ما تفيده الأحاديث والنتائج الأخرى لسلسلة الأحداث المعينة ، بدقة كما لو كان طالباً أمام تمرين يحاول أن يجعل منه فرصة لاستعراض قدراته ، وذلك بدلاً من أن يقرر العبارات التي قيلت فعلاً .

إن وظيفة التاريخ في الحل الأول أن يحقق العبارات الدقيقة التي قيلت بالفعل مهما كانت هذه العبارات ، وفي الحل الثاني أن يتحرى السبب الذي توج الحدث الذي تم أو العبارات التي قيلت بنجاح أو فشل . إن صياغة الوقائع عارية هي في حد ذاتها متعة دون أن تكون فيها قيمة تثقيفية ، بينما يحيل الشرح الإضافي للسبب من دراسة التاريخ عملاً مثمراً . إن التحليلات التي يمكن أن تستخلص من مواقف مماثل مواقفنا تقدم مواد واقتراضات للتنبؤ بالمستقبل ، فيما يتعلق بتلك المواقف التي تكون بمثابة النذير ، بينما تشجعنا في فترات أخرى بأن نبدي جسارة في الأحداث المقبلة بموجب موازنة تاريخية . وأياً ما كان الأمر ، فإن المؤرخ الذي يلغى كلا من العبارات التي قيلت وسببها ويحل مكانها عرضاً كاذباً وهراء ، فإنه بعمله هذا يدمر الصفة التي يتميز بها التاريخ ، وهذا هو على وجه التحديد الضرر المسئول عنه « تيايوس » ومن المعروف تماماً أن كل مجلد من أعماله مليء بهذه المادة الكاذبة .

الحديث والرواية في التاريخ

(ديودورس : الكتاب ٢٠ : الفصول ١ - ٢٢)

إن الكتاب الذين يدخلون الخطب المعدة ذات النفس الطويل في مؤلفاتهم التاريخية ، حق عليهم اللوم والتصنيف وكذلك أولئك الذين يقدمون خطابات مستديمة . فإنهم لا يقطعون تسلسل روايتهم فحسب لعدم ملاءمة هذه الخطب التطفلية ولكنهم يفسدون دور التطلع الذهني في عقول أكثر الباحثين الغيورين على المعرفة التاريخية . وبالإضافة إلى هذا كله ، فيجوز لأي شخص يرغب في

عرض قدراته الأدبية أن يؤلف مجموعة أحاديث ومذكرات دبلوماسية شفاهية ومدائح وهجاء ، إلى آخر هذا من الأعمال المستقلة . ويؤدى فريضة الشكل الأدبي ، وهو بإخراج موضوعاته بشكل مستقل في فرعى الكتابة ، فإنه قد يأمل بشكل معقول أن يبرز في كلا المجالين . وأيا ما كان الأمر ، فإن بعض الكتاب ركزوا فعلاً على المقاطع الخطابية بمثل هذا الطول مما جعل التاريخ كله مجرد حاشية للأحاديث — غافلين عن أن هذا التذوق لا تضيره الكتابة السيئة فحسب ، وإنما أيضاً الكتابة التي قد تعتبر ملائمة وباعثة على العبطة في سياق آخر ، إذا ما خرجت عن مكانها الصحيح . ونتيجة لذلك فإن قراء مثل هذه المؤلفات سواء تخطوا الخطب ، أيا كانت درجة تمرسهم ، أو إذا ما تحطمت روحهم تماماً بسبب إسهاب الكاتب وعدم ملاءمتها ، فإنهم يتخلون عن محاولة قراءتها مرة واحدة . ولا يمكن لومهم على هذا ، مادام التاريخ بوصفه فرعاً من الأدب بسيط ومتجانس ويحمل تماثلاً عاماً لأجزائه ، وقد تكون الأجزاء محرومة من نعمة الحيوية ، بينما إذا ما حافظت على تعاونها المستمر ، فإنها تبقى في أحسن حالاتها ، وتجعل من مهمة القارئ شيئاً مرغوباً فيه وسهلاً بسبب تناسق ينفأها الكامل .

وفي الوقت نفسه لن أتمادى فأدين المقاطع الخطابية بدون أسانيد وأنبذها تماماً من مؤلفي التاريخ . ملتصقاً ، كما يفعل التاريخ ، زينة القنوع ، فإن التاريخ لا يستطيع أن يستغنى عن مثل هذه المقاطع هنا وهناك (وهي لمسة أكون أنا محججاً عن المضى بها في مكانها الصحيح) وطبقاً لهذا فعندما يتطلب الموقف مذكرة شفاهية دبلوماسية أو خطبة برلمانية . وما أشبه ذلك ، فإن المؤرخ الذي ليس لديه الشجاعة لينزل إلى حلبة الخطابة معرض أيضاً للنقد . وفي الحقيقة ، هناك عدد لا بأس به من المناسبات التي نجدتها تقدم مورداً للخطابة الضرورية . وقد نتقبل الأحاديث الزاخرة والماهرة على أنها واقعة تاريخية ، وفي هذه الحالة يكون من الخطأ أن نغفلها . ونتخطى مقاطع تعبر عن ذكريات قد لا تخلو من معلومات من وجهة النظر التاريخية . وكذلك ، فإن مادة الموضوع قد تكون لها أهمية ومكانة مرموقة . كهذه بحيث قد لا تسمح العبارات التي قيلت بأن تبدو مناسبة للأفعال

التي وقعت . كذلك ، فإن (الختام) قد يكون في بعض الأحيان باعثاً على الدهشة حتى إننا قد نجد أنفسنا مصطرين إلى أن نستخدم الأحاديث في اتساق مع الموضوع حتى تقدم مخرجاً من هذا المأزق .

ما الذي يكون موضوعاً تاريخياً حقاً؟

(ديودورس . الكتاب السادس عشر . الفصل الأول)

ينبغي أن يهدف الكتاب ، في سائر الأعمال التاريخية ، إلى أن يضمّنوا مجلداتهم الخاصة أعمالاً ، سواء الخاصة بالدول أو الحكام ، وأن تحتوى عليها من البداية إلى النهاية ، وعند الفحص وجد أن هذا المنهج ، هو الذي يقدم التاريخ إلى القارىء في أكثر الأشكال صفاء وسهولة على تذكره . فإن الأعمال التي لاتم دون اتصال بين البداية والنهاية ، تفسد التشويق الذهني عند القارىء الجاد ، بينما التدابير التي تحتوى على اتصال العمل حتى ختامه فإنها تخلق رواية تشكل كلاً متكاملًا في ذاتها . وأياما كان الأمر ، فعندما تتعاون طبيعة الأحداث مع جهد القارىء ، ليس ثمة عذر لعدم سعيه لتحقيق مثاله (وطبقاً لهذا ، سوف أبذل قصارى جهدي ، من جانبي ، مادمت قد وصلت إلى أعمال «فيليب» بن «أمينتاس» حتى يشتمل على حياة ذلك الحاكم في المجلد الراهن . فخلال الأربعة والعشرين عاماً من حكمه كملك لقدونيا ، والتي بدأ فيها بأقل الموارد ، بنى «فيليب» مملكته في أعظم دول أوروبا . أما وقد وجد مقدونيا تحت نير «الليبريين» فقد بسط سيادتها على أمم ودول عظيمة كثيرة ، وأقام ، بقوة شخصيته ، سطوتها على سائر العالم الهليني ، حيث خضعت له دول هذا العالم بمحض إرادتها . وأخضع المجرمين الذي نهبوا معبد (دلفي) ، وقد كافأته النبوة بطولته بقبوله في مجلس (٦) Amphictyons حيث تنازل عن أصوات الفوكيين المهزومين ككافأة على غيرته الدينية . وبعد إخضاع «الليبريين» والبايونيين Paonians والتراقين ، والنوماد وسائر الأمم المحيطة ، ووضع خطة للإطاحة بالإمبراطورية الفارسية ، وأرسي القوات في آسيا وكان يعمل على تحرير السلع الهلينية عندما داهمه القدر

على الرغم من أنه ترك بناء حربياً يمثل هذا الحجم والكيفية إلى درجة أن ابنه الإسكندر تمكن من أن يطيح بالإمبراطورية الفارسية دون طلب معونة الحلفاء . وهذه الأعمال لم تكن فعل الحظ ولكن بفعل قوة شخصيته ، لأن هذا الملك برز على جميع الآخرين بسبب فطنته ، وشجاعته الشخصية وموضته الذهنية .

القسم الثاني — نعثر

نقد بوليبيوس لزينون لردوسى Zeno of Rhodes

(عرف في النصف الأول من القرن الثاني ق.م)

(بوليبيوس : الكتاب السادس عشر ، الفصول ١٤ و ١٧^٨ - ١٨^١ و ٢٠)
 إن الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث^(٩) في (مسينيا) ، وكذلك العمليات البحرية السابق ذكرها ، تصادف أن تناولها إخصائون تاريخيون عديدون ، ومن بينهم من أرى أن أقول كلمة قصيرة عنهم . طالما لا أستطيع أن أتناولهم جميعاً . فإننى سوف أقتصر على أولئك ، في رأى سوف يوفون المناقشة والفحص ، وسوف أتناول « زينون » و « أنتيستينيس » Antisthenes الرودسى . ولدى أسباب عديدة لاختيار هذين الكاتبين . فكلاهما معاصر ، وكلاهما زاول قسطاً من السياسة ، ويمكن القول عموماً إن كليهما قد أخرج أعماله بدافع الطموح واعتبارات أخرى مشرفة للسياسة تماماً ولم يكتبهما بدافع عن مصالح ذاتية . إن تناولهما للأحداث ذاتها كما فعلت يمنعنى من أن أتغافلها يدافع رؤية دارسين جادين يعتمدون عليهما في تفضيل عملى الخاص بمسائل موسمية لعدم الاتفاق فيما بيننا ، حسب شهرة بلادهم والافتراض المسبق بأن عمليات الأسطول يجب أن تكون موضع عناية خاصة من كتاب رودس .

إن أول خطأ كان يتمين على أن أكتشفه عند « زينون » و « أنتيستينيس »

(١) تنظيم دولى أدار الأحرام فى دلفى وثرموبولاي ، والذي يمثل حصة - أكبر من العالم الهلنى أكثر من أى هيئة منظمة رسمية (المحقق)
 (١) ٢٠٢ - ٢٠١ ق . م (المحقق) .

هو أن كليهما يعرض معركة (لاد Lade) على أنها أكثر حدة وليست أقل عنفاً وأنها كانت أكثر حماسة من معركة (خيوس)^(١) .
Chios ، ويقول كلاهما فيما يتعلق بتفاصيل العمل ونتائجه العامة ، في عبارات عامة إن النصر ظل إلى جانب الرودسيين . وسأذهب إلى أبعد من هذا فأسلم بأن المؤرخين يحق لهم أن يرجحوا الكفة لصالح بلادهم ، ولكن لا يحق لهم أن يجعلوا أنفسهم ، يؤكدون ما يناقض الحقائق من أجل بلادهم . إن خطأ الجهل الذي يتعرض له الكتاب بحكم عدم العصمة الإنسانية هو أمر خطير للغاية ، ولكن إذا ما كنا — نحن المؤرخين — نزيف الوقائع عن عمد لصالح أصدقاء البلاد ، فسوف يكون هؤلاء بالتأكيد ، في مستوى أقل من أولئك الذين يندرون أنفسهم لسوء التصرف باعتباره مهنة مربحة . وشخصيات كهذه تقدم أعمالها عن طريق انحيازها عن مصالحها المادية باتخاذها مستوى لمؤلفاتهم ، وكذا فإن الساسة ، بالمثل ، غالباً ما ينصرفون إلى النتائج نفسها بالوقوع تحت تأثير تعاطفهم أو نفورهم . وهذا عامل يجب على القارئ أن يثابر على مراقبته ، وعلى الكاتب أيضاً أن يثابر على إرشاده . إن مسألتى قد أوجدها الوقائع ذاتها .

(تأتى بعد ذلك سلسلة من الإيضاحات)

وتبدو كافة الإيضاحات التي قدمتها آنفاً ، في ضوء السهو الذي يقبل بالإيضاح والاعتذار — أن معظمها أخطاء عن جهل ، بينما الرواية المقدمة عن الاشتباك البحري خطأ ناجم عن التحيز الوطني . فما هي المسائل إذن ، التي يتعرض فيها زينون للنقد الجاد بشكل عادل ؟ هي على وجه اليقين ، أنه لم يكرس جل عنايته للبحث أو التأليف وإنما كرسه للأسلوب ، ولا يفصح زينون في هذا الصدد ؛ كعدد غيره من المؤرخين المشهورين ، كثيراً عن غروره الذاتي . وأنا أرى أنه

(١) وقع كل من الاشتباك في ٣٠٢ — ٢٠١ ن . م بعيداً عن خيوس بين فيليب الخامس ملك مقدونيا وقوات الأسطوال المتحدة من رودس وبرجاموم وذلك في (لاد) بين أساطيل مقدونيا ورودس منفردة (المحقق)

ينبغي أن تفكر ونولى مادة (١) الموضوع انتباهاً لا بأس به ، إلا أن هؤلاء القضاة اليقظين ليس لهم أن يعطوا أولوية للأسلوب . وسوف نجد هناك ، بعيداً عن جادة الصواب ، ما يمكن أن يكون عوامل أخرى في الكتابات التاريخية ذات النظام الأعلى ، نجد نجاحاً قديبرر فيه الغرور الذاتي في ذهن السياسي . ويمكنني أن أشرح المعنى الذي أقصد إليه بشكل أكثر إيضاحاً بالمثال التالي

(يأتي بعد ذلك الإيضاح)

وفي رأي أن هذه الفترات وغيرها من الفترات المماثلة تلتق بالمؤرخ في خزي شأن ، بينما مثالنا (وكان مثالا نبيلاً) ينبغي أن يسود كافة العوامل في الكتابة التاريخية ، والبديل الثاني الأفضل من هذا هو تركيز الانتباه على تلك التي هي أكثر أهمية وأكثر لزوماً حقيقة . لقد رغبت في أن أقدم الملاحظات بتأمل المناظر التي يقدمها (التاريخ) هذه الأيام والفنون والمهن الأخرى . وفي كل حالة ، فقد حظ من شأن الحق والمنفعة ، بينما أطرى على الدجل والادعاء ونظر إليها بإعجاب على اعتبار أنها شيء مهيب ومدهش ، رغم أنها في الحقيقة أيسر من أن تنجز وأقل دقة في مستواها ليس في التاريخ فحسب ولكن في فروع الأدب الأخرى أيضاً .

أما فيما يتعلق بجهل زينون بطبوغرافيا (لا كونيا) Laconia ، فإن خطأه كان عظيمًا لدرجة أنني لا أتردد في أن أكتب إلى المؤلف نفسه . ولم يكن المبدأ الذي أعمل على أساسه ، في اتخاذ هذه الخطوة ، أن أعتبر أخطاء زميلي كتحقيق عرض لي ، وهي عادة شريفة لدى بعض الكتاب ، إلا أنني سأبذل قصارى جهدي في أن أحسن وأصح أعمال المعاصرين لي كما لو كانت أعمالى أنا ، وذلك في سبيل التقدم العام للمعرفة . وعندما تلتقي « زينون » رسالتي ، اغتم جداً عندما تأكد أنه من المستحيل أن يجرى تغييرات في عمله وذلك لأن العمل كان قد نشر فعلاً ، غير أنه على الرغم من أنه وجد نفسه عاجزاً من الناحية المادية ،

(١) من الواضح أن هذا ليس مجرد عنصر بل إنه عنصر بالغ الأهمية ، في كافة الكتابات التاريخية الناجحة (المؤلف) .

فكان رقيقاً حتى إنه تقبل عملي بروح ودية للغاية . وسوف أنتهز هذه الفرصة فأقدم التماساً شخصياً إلى قرائي من أجيالي والأجيال المقبلة ، فإذا ما أظهرت عامداً مقدمات زائفة أو تجاهلاً متعمداً للحق في أى مسألة من عملي ، فيتمتعين عليهم أن يمتقدوني دون رحمة ، ولكن عندما أكون مذنباً عن جهل (دون سوء نية) ، فإنني أتمس بالمعذرة ولاسيما في حالي الخاصة ، مع وضع مدى تأليفي والنطاق الشامل لمادة موضوعي في الاعتبار .

نقد ديونيسوس الهاليكارناسي لهيرودوت

وثو كوديدس وثيو بومبس

(ديونيسوس الهاليكارناسي) : الرسائل الأدبية الثلاث تحقيق ريس روبرتس W. Rhys Roberts كمبردج ١٩٠١ ، مطبوعات الجامعة: رسائل إلى بومبيوس الفصل ٦ و ٢)

ولعلك تسأل أيضاً عن رأي إزاء هيرودوت وكسينوفون وتفترض مقدماً ما أنا كاتب عن الموضوع . وهالك ما قد فعلته في مذكرات إلي ديمتريوس بخصوص المحاكاة) . وتتناول أولى هذه المقالات مشكلة المحاكاة ، وتتناول الثانية أحسن نماذج التقليد في الفروع الأربعة .. الشعر .. الفلسفة والتراجم . الأحاديث العامة؛ في حين تتناول الثالثة المنهج وهي لما تتم بعد . وسوف أسرد لك ماقلته في الرسالة الثانية التي تتعلق بهيرودوت وثو كوديدس وكسينوفون وفيليبستوس Philistus وثيو بومبس ، وهؤلاء اخترتهم على اعتبار أنهم خير النماذج:

« وهالك أفكارى فيما يتعلق بهيرودوت وثو كوديدس، إذا ما كان يتمتعين على أن أضمهم في عرضي للموضوع . إن الواجب الأول والضروري للمؤرخ حقيقة، بغض النظر عما يكون عليه أصله ، هو أن يختار موضوعاً جيداً يجلب المتعة لقرائه . وعندى أن هيرودوت كان أكثر توفيقاً في هذا المجال من تو كوديدس . فإن هيرودوت قد أوجد تاريخاً عاماً للعالم الهليني والشرقي ، (بهدف إنقاذ ماضى الجنس البشرى

من النسيان وضمان أن هذه الأعمال الرائعة وغيرها) — تقتبس مقدمته من الكتاب ، وهو من الغلاف للغلاف توسيع لهذه المقدمة . أما ثوكوديدس فقد كتب تاريخ حرب واحدة ، لم تكن مجيدة أو نافعة وكان من الخير لو أنها لم تقم (أو على الأقل) يطويها النسيان وأخفيت عن الخلق . وقد كشفت مقدمته عن رداءة موضوعه ، ويلاحظ فيها أنه دمر في هذه الحرب عدد من البلدان الهلينية ، بعضها على أيدي غير الهلنيين والبعض الآخر على أيدي حلفاء الهلنيين ، وكان تشتت السكان ودمار الحياة بدرجة لم يكن لها مثيل ، مثل الهزات الأرضية ، والمحاصيل الهزيلة ، والأوبئة وكوارث أخرى . وبهذا فإن القارئ الذي لا رغبة له في سماع كل هذه المصائب التي حلت بهيلاس ، يصده موضوع المؤلف بمجرد الانتهاء من مقدمته . إن قصة الأعمال الرائعة للعالمين الهليني والشرق تسمو على هذه الكوارث القاسية التي جرت على الهلنيين وحدهم ، وهذا يعني أن هيرودوت قد أبدى تروياً في اختياره للموضوع أكثر مما فعل ثوكوديدس . وليس من العدل أيضاً أن يقال إن ثوكوديدس لم يكن لديه موضوع آخر إلا أن يكتب ما كتب إذا ما كان عليه أن يتجنب سلوك الطريق نفسه الذي سلكه سالفوه ، على الرغم من أنه يكون قد عرف دونية موضوعه : وعلى العكس ، لقد حط من شأن الماضي في مقدمته وزعم أن جيله قد عاش خلال أعظم تجربة في التاريخ ، مما يبين أن اختياره للموضوع كان مقصوداً . وهذا يخالف هيرودوت تماماً ، الذي لم تعترضه حقيقة أن الكتاب الأول أمثال « هيلانا كوس Helanicus » وCharon قد نشروا أعمالاً حول هذا الموضوع ذاته ، إلا أنه وثق ، وهذا جائز ، بقدرته الخاصة لإيجاد شيء أفضل (١) .

« والواجب الثاني للمؤرخ هو أن يرسى البداية والنهاية . ومن الواضح أيضاً ، أن تقدير هيرودوت أفضل من ثوكوديدس ، إذ إن هيرودوت قد بدأ بسبب أول اعتداء من جانب الشرقيين على الهلنيين ، وتوقف عندما وصل برواياته عند العقاب الذي وقع على الشرقيين جزاء لهم . أما ثوكوديدس فقد بدأ بالنقطة

(١) يرى كثير من الدارسين غير هذا الرأي . ويقولون إن ثوكوديدس هو أول مؤرخ علمي بمعنى أنه يضع نفسه خارج الأحداث ويتخذ موقفاً محايداً ويكتب التاريخ غير متأثر باعتبارات ضيقة (المترجم) .

التي أخذ عندها العالم الهليني بنهار، وكانت بداية خاطئة من جانب مؤرخ هيليني وأثيني (ولا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه لم يكن أحد الذين لحقهم تحقير أو نبذ، وإنما كان رجلاً جاهلياً شهيراً ارتفع بفضل آلام بني وطنه إلى مركز وقيادة أعلى). وهو حقود أيضاً لدرجة أنه يحمل بلده مسؤولية وهمية عن الحرب، في حين كان ينبغي عليه أن يتعقبها إلى أصولها الأخرى، وكان ينبغي عليه أن يبدأ بأعمال بلده الرائعة مباشرة بعد الحرب الفارسية والتي ذكرها بعد ذلك في مكان خاطيء وبطريقة لا اكثر من فيها ولا إيمان. وبعد أن أبدى عدالة وطنية كان ينبغي أن يعرض الإسرطيين على المسرح. ويشرح خوفهم المتزايد ونقمتهم على أثينا، ويبين كيف أنهم أوجدوا أعذاراً من نوع آخر للتورط في الحرب. ولم يكن في حاجة إلى أن يذكر (كوريرا) وتصرف أهل ميجارا بعيداً عن هذه المقدمات. وما زالت خاتمة عمله متكاثره الخطأ. وبعد أن يبين أنه شهد الحرب كلها ووعد بعرض كامل لها، توقف عند المعركة البحرية بين الأثينيين والبليونيونيين في (كونوسيا) (١) Cynossema التي حدثت في العام الثاني والعشرين من العدوان. وكان في وسعه أن يفعل أفضل من هذا إذا ما عرض القصة كاملة وأن يحتم عمله بالعودة العظيمة للمنفيين إلى (فيلي) Phyle، التي كانت بمثابة بداية لعودة حرية أثينا، وبهذا ينتهي عند إشارة من شأنها أن تسر قراءه تماماً.

أما واجب المؤرخ الثالث فهو أن يضع في اعتباره ما ينبغي أن يشتمل عليه بحثه وما ينبغي أن يتغاضى عنه، وفي هذا الصدد، فإنني أشعر، مرة أخرى بأن ثوكوديدس أقل شأنًا من هيرودوت. إذ إن هيرودوت أدرك أن الرواية ذات طول لا بأس به ويجب أن تتنوع بالوقفات إذا كان له أن يحرز تأثيراً مقبولاً على عقل القارئ، وأدرك أنه يجب ألا يظل على وتيرة واحدة (مهما كانت مهارة الكاتب في الصنعة) دون أن يوجد إحساساً مؤلماً بالرتابة. وقد استهدف التنوع في كتابته

(١) يحتمل أن يكون الموت قد اختلفه ويحمل عمله علامات واضحة على عدم إتمامه (المحقق)

كبطله ومثله « هومر » والقارىء الذى يلم بأعماله يجد نفسه مسحوراً حتى آخر مقطع. ومتعطشاً دائماً إلى المزيد. أما ثوكوديدس فقد تناول حرباً واحدة بذاتها ، وجمع شتات نفسه ، ومضى معها فى نفس واحد . المعركة تلو المعركة ، والسلاح يقرع السلاح ، وصفحة أثر صفحة ، حتى يضعف انتباه القارىء البائس ويذبل نتيجة للتفرع . وفى وسع « بندار » Pindar أن يخبره بأن (العسل يمكن أن يتختم الزهور الحبيبية الحلوة) ، وعليه فى فترات أن يحقق الفضيلة المنفذة للتغيير والتنوع بالنسبة للمؤرخ . وهناك مكان أو مكانان تلتطف فيهما عليهم ، مثل انحرافه حول نشوء الإمبراطورية الأودريسية Odrasian والدول فى صقلية .

« وثمة واجب آخر على المؤرخ وهو أن يجمع ويرتب مادته . ودعنا نرى كيف أن مؤرخينا يقومان بهذه العملية كلا على حدة . فتوكوديدس يلتزم بالترتيب الزمنى ، بينما يتبع هيرودوت التقسيمات الكبيرة لموضوعه . وهذا يجعل ثوكوديدس غامضاً ومن الصعب متابعته ، لأن هناك بالطبع فى أى صيف وأى شتاء أحداث كثيرة فى أماكن متفرقة ، وعليه أن يتوقف فجأة فى سلسلة أحداث كى يتناول سلسلة أخرى . وكذلك فن الطبيعى أن ينقطع الخيط ونبذل مجهوداً كبيراً حتى نجد إجابة صحيحة لما يعرضه . ويبدأ هيرودوت بمملكة ليديا ، ويصل بالرواية حتى حكم « كرويسوس » ويمضى قدماً حتى « كيروس » قاهر « كرويسوس » ، وبعدها يتناول حكاية مصر ، وأراضى الاستبس وشمال غرب أفريقيا . وهناك فى بعض الأحيان عرض لنتائج منطقية ، ويؤلف بين المادة ليصنع منها أشياء ، ويأتى الاستطراد فيجعل القصة أكثر متعة . ويروى بعد ذلك تاريخ الهلنيين والشرقيين فى فترة تزيد على مائتى وعشرين عاماً ، وفى ميدان يشتمل على سائر القارات الثلاث ، وينتهى بهرب « كسر كسيس » ، دون أن يقطع التسلسل . والذى يحضرننا هنا هو أن الكاتب الذى تناول موضوعاً واحداً نجح فى تحطيم الوحدة إلى أجزاء كثيرة بينما الكاتب الذى آثر مجموعة متنوعة من الموضوعات قد خلق وحدة متجانسة من كتلة أمور صغيرة .

« وسوف ألس سمة واحدة في تناول مادة الموضوع ، التي تجذب ، في أى عمل تاريخي اهتمامنا على الأقل بمقدار المسائل موضع الاعتبار فعلا . فما هو موقف الكاتب إزاء الموضوع ؟ إن موقف هيرودوت صائب دائماً . إذ إنه يمتنع للخير ويمقت الشر . أما موقف « ثوكوديدس » فمرر لايلين ، ولا يغفر لبلاده أنها ألقت به في المنفى . ولا رحمة عنده في تناول أى شىء على خطأ بالتفصيل ، ولكن عندما يكون الأمر على صواب ، فإنه إما أن يتجاهله تماماً وإما أن يمسه مساً خفيفاً أو يذكره بضعفينة .

« أما ثيوبومبس الخيوسى ^(١) التلميذ الأشهر لايسوقراط Isocrates فهو مؤلف عدد من الخطب (مدائح سياسية) من (رسائل خيوس) وبعض الماهدات الهامة وهو كمؤرخ محترف له بعض الفضائل . فإن موضوعاته -- نهاية الحرب البليبونيزيه وحياة فيليب -- عمل جيد ؛ فالترتيب في كلا الحالتين واضح ومن السهل متابعتها ؛ إلا أن أقوى فضائله هى وعيه الأدبى والصناعة . ويكشف الدليل الداخلى ، بغض النظر عن عباراته الواضحة ، عن الجهد في عمله التحضيرى ، والقيمة الموجودة في مجموعة مادته ، وعدد الأحداث التي كان شاهد عيان لها ، وعدد الجنود المشهورين المعاصرين ، والساسة والمفكرين الذين احتك بهم . ومن الجلى أنه كان دائم التفكير في عمله . وبعض الناس يجعل من التاريخ هواية ؛ وقد وهب ثيوبومبس حياته للتاريخ . وإن النطاق الواسع لاهتمامه سوف يقدم فكرة ما عن عنائه المصنى . فإنه يسجل أصول الأجناس وتأسيس الدول ، ويرسم الحياة الخاصة وشخصيات الملوك ، ويضم إلى عمله كل ظاهرة بارزة ومفصلة على البر أو البحر . ويكون من الخطأ أن نفترض أن هذا مجرد الجاذبية . بل على العكس إنها مفيدة لدرجة ما . وسوف أقنع نفسى بالحقيقة المقبولة على نطاق شامل وهى أن التربية الأدبية الأ أكثر سمواً تتطلب معرفة بعلم الاجتماع ^(٢) ، والقانون ،

(١) ٣٨٠ — ٣١٠ ق م (المحقق)

(٢) غير هلينى مثل الهليني (المؤلف)

والعلوم السياسية والتراجم . وفي سائر هذه الموضوعات يعتبر « ثيو بومبس » حجة ولا تنفصل هذه المعلومات بشكل منفصل عن سياقها التاريخي . وهذه هي بعض الصفات التي تدعو للإعجاب عند مؤلفنا . وبالإضافة إلى ذلك فإن عمله يوجد برمته في التعاليم الدينية الطريفة والفلسفة الأخلاقية ، ولم يتناول عمله المتميز والذي يعد في القمة بدقة أو مهارة أى كاتب من قبله أو بعده . إننى أشير إلى كفايته لا لمجرد رؤية المظاهر الواضحة لأية حادثة وتقريرها ، وإنما لكشف الأسباب الخفية والدوافع والملابسات السيكولوجية ، التي يجسد الناس العاديون من الصعب تفسيرها ، ولأجل الكشف عن كافة أسرار الفضيحة المزعومة والردية الخفية . ومن المحتمل أن يكون الفحص الأسطوري للأفكار التي تحررت من الجسد وعلى كرسى الاعتراف في العالم الآخر يصلح كوضع لبحت كالذي استخدمه المؤرخ ثيو بومبس وهذا ما أعطاه شهرة الحقد في وزن الشخصيات البارزة بالدقة وبتفاصيل غير ملائمة . والحق ، أنه بمثابة الجراح الذي يضع الكي والتشريط بأعمق ما تكون عليه الأنسجة المعتلة فيزيل الزوائد ، دون أن يمس الأعضاء السليمة الطبيعية .

وهذه تشكل أساس شخصية ثيو بومبس كما تبينه من تناوله لمادة موضوعه وكما تتميز من أسلوبه .. إذ إنه ليس طاهراً ، وعلى الأخص في مسألة الانحرافات؛ فهي في بعض الأحيان لا لزوم لها ، وغير مناسبة وطفولية للغاية . وفكر في شبح سيلينوس Silenus في مقدونيا أو القتال بين ثعبان البحر والسفينة البحرية وهي ليست أمثلة غير عادلة لروايته . . . »

هل هيروودوت مغرض ؟

(الأخلاق عند بلوتارخ : نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الخاص بتحقيق ج . ن برناداكس Bernadakis : الفصول ١ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٨ ، ٢٩)^(١) .

كثير من قراء هيروودوت تأخذهم بساطة أسلوبه ، وسهولته وسلاسته ، ويؤخذون أكثر بشخصيته . وإذا ما كان أفلاطون على صواب في قوله إن آخر صورة نقيية من الخلود هي المظهر الزائف للنزاهة ، فإنه من الصحيح أيضاً أن العمل بالغ المكر افتراض لطبيعة جيدة كهذه وبساطة حتى يسخر بالملاحظة . إن حقد هيروودوت موجه غالباً (رغم أنه لا يفلت منه أحد) ضد البيوتيين والكورينثيين ، وعلى هذا فإنني أشعر أنني مطالب بأن أدافع عن الحق وعن أسلافي في وقت واحد مع عرض هذا الجزء في عمله على الخصوص . فإذا ما كان على الناقد أن يتناول كافة مزيقاته وخيالاته ، ملاً بذلك عدة مجلدات . وأياً ما كان الأمر ، فإننا نقل عن « سوفوكليس » Sophocles (الافتناع له ملامح خادعة) ولا سيما عندما يستقر في كتابات مليئة هكذا بالسحر ومتمرس لا في إخفاء ذلك الشذوذ فحسب ، وإنما شخصية المؤلف كلها . وعندما ثار الهلينيون على فيليب الخامس وانضموا إلى « تيتس فلامينينسوس » Titus Flamininsus ، لاحظ الملك أن الطوق الذي وضعوا فيه أعناقهم لين إلا أنه سميك . والآن فإن خبث هيروودوت ناعم الملمس أكثر من خبث ثيوبومبس ، إلا أنه أيضاً أكثر نفاذاً وأكثر التواءاً ، تماماً كتيارات الرياح تهب بطريقة خبيثة خلال شرح فهمي أكثر إيذاءً من رياح السماء .

خذ مثلاً تناوله لمسألة « أيو » « أبنة » إيناخوس « في البداية الأولى لقصته والرأي الشائع في هيلاس أن هذه البطلة الشهيرة قد لقيت شرفاً قدسياً من الشرقيين وخلفت اسمها على كثير من البحار والمضائق الرئيسية في العالم ، وأنها السلف

(١) هذا المقال وعنوانه « الحبث عند هيروودوت » جاء مع أعمال بلوتارخ إلا أن بعض النقاد يعتقدون أنه مشكوك في صحته (المحقق) .

لأكثر البيوتات المالكة تميزاً. ولكن ماذا قال عنها مؤرخنا المغوار؟ لقد قال إنها ألفت بنفسها من على رءوس بعض التجار البحارة من الفينيقيين، لأنها كانت قد أغريت على الزنى من القبطان (رغم أن الأمر ليس ضد إرادتها) وخشيت أن يفتضح حملها. هذه الرواية الطريفة تنسب تعسفاً إلى الفينيقيين ، ويسرد أقوال المؤرخين الفرس كدليل على أن الفينيقيين قد احتفظوا بـ «أيو» ونساء أخريات ، وشرع في تنفيذ الرأي القائل بأن الحرب الطروادية - وهي أعظم عمل وأكبر أعمال هيلاس فخامة - قد نشبت نتيجة الغباء من أجل امرأة لا تساوى شيئاً، يقول « من الواضح أن النساء ما كن ليختمظفن إذا لم تكن راغبات في ذلك وفي هذه الحالة ، علينا أن نتهم الآلهة بالغباء لإلقاءهم انتهاك بنات «ليوكتروس» Leuctrus على الإسبرطيين أو على معاوية «أچاكس» Ajax لانتهاك حرمة «كاساندرا» Cassandra . وحسب أقوال هيرودوت ، على أية حال ، فمن الواضح أن النساء ما كانت تنهتك حرمتهم إذا لم تكن راغبات في ذلك . إلا أن هيرودوت نفسه يقرر أن «كليومينيس» Cleomenes قد أخذها الإسبرطيون حية وقد حدث المصير نفسه للقائد الآخى فيلوبويعن Philopoemen ، بينما ريجيلوس الرومانى «Regulus» القنصل قد أخذه القرطاجينيون أسيراً. إننا نود أن نسمع عن مقاتلين أكثر شجاعة أو جنود أفضل من هؤلاء . إلا أنه ليس هناك شيء غير عادى في تجاربهم ، واضعين في اعتبارنا أن الفهود والنمور قد أخذت حية من جانب الكائنات البشرية . ونفس الشيء ، فإن هيرودوت يفضح النساء اللاتي انتهكت حرمتهم ويبيض أوجه الرجال الذين اغتصبوهن .

وعندما يصل إلى (الحكاء السبعة) وهو يسميهم «الموظفين» فإنه يتبع عائلة طاليس حتى يصل بها إلى الفينيقيين أو بعبارة أخرى إلى أصل غير هلمنى، وانتحل شخصية «سولون» حتى يتسنى له أن يسب الآلهة كما فعل فيما يلى «مولاي» ، إننى أعلم حقيقة أن الحقد والتخريب من طبيعة الآلهة بشكل ثابت ، وبعدئذ تسألنى عما يتعلق بالحياة الإنسانية ! « هذا هو رأيه الخاص عن الأرباب ، وعندما يتناول سولون يمزج الخبث بالكفر ...

والآن دعنا نفحص روايته الخاصة بنتيجة المعركة (معركة ماراثون) فيكتب
« إن الشرقيين دفعوا إلى سفنهم الباقية ، وانتمطوا العبيد من (إرتريا) Eretria
في الجزيرة التي تركوهم فيها ، وبدأوا يبحرون حول (سونيم) Sunium ، بهدف
أن يصلوا المدينة (أثينا) قبل الأثينيين أنفسهم . ويدعى أنه في أثينا دبر (بنو
الكايون) هذه المكيدة التي يقال إنهم عرضوا ترساً^(١) كإشارة لهم بعد أن كانوا
قد ركبوا سفنهم . وعلى هذا فقد شرع الفرس في الإبحار حول «سونيم» وقد يتغاضى
القارىء عن إشارة إلى (الارترين) على أنهم عبيد ، رغم أنهم قد أبدوا روحاً
سامية من أى هلمينيين آخرين وعانوا مصيراً لا يتفق وطبعهم . ناهيك عن
وشايته بيت (الكايون) مع سائر العائلات الكبيرة والأفراد المرموقين المنتمين
إليهم . ولكن مملاً يفترض له أنه خرب عظمة الانتصار وجعل العمل العالمى
الشهير لماراثون ينتهى بلا شئ . وما دام الأمر هكذا ، فمن الجلى ألا يكون هناك
معركة أو عمل له أية نتيجة ، وليس هناك سوى (قرصنة) صغيرة فى الجزء الذى
رشى من العدو (كما يبق قليلو الشأن) ، وإذا ما كان قد حدث بعد المعركة ، بدلاً
من قطع دابرهم ، ما يجعلهم يهربون ويتركون أنفسهم كيفما يحملهم النسيم بعيداً
عن أثينا ، أن يتلقوا إشارة خيانة نتيجة عرض الترس ، فقد طووا أشراعتهم
نحو أثينا على الأمل أن يستولوا على المدينة ، وحاصروا سونيم ، بسهولة ، ثم عرجوا
على (فالريم) ، بينما كان أكثر الأثينيين شهرة وتميزاً يخونون أثينا خوفاً من
وقوعهم فى العبودية . وبعد ذلك ، عمل على تبرئة « بنى الكايون » وذلك فقط
كى ينسب الخيانة إلى آخزين فيكتب شاهد عياننا^(٢) وما من ريب فى أن ترساً
قد عرض ، لست أعترض على الواقعة . وأية غرابة ، فى أن الأثينيين قد أحرزوا نصراً
ساحقاً ! ولكن حتى إذا حدث هذا ، فلم يلاحظه العدو ، الذى كان يطردى سفنهم
بتأثير القتلى العديدين ، فكانوا يهربون بأسرع ما يمكن فى طاقة كل جندى .

(١) يستخدم بمثابة التلغراف الشمسى (المحقق) .

(٢) من المحتمل ألا يكون هيرودوت قد ولد بعد عندما وقعت معركة ماراثون . إن

المؤلف يكتب بأسلوب تهكمى بالطبع (المحقق) .

وكذلك عند محاولة الدفاع « عن بنى الكمايون » ضد الاتهامات التي وجهها ضدهم في بداية الأمر ، يكتب « وعندى ، أن الافتراض بأن بنى الكمايون قد عرضوا ترساً إشارة للفرس كي يخضعوا أئينا لغير « هيبياس » فهو افتراض لا يمكن قبوله . » إلا أن هذا يذكرنا فقط بالأبيات التالية :

قف حيث أنت ياسيد (أبو جلهبو)

وعندما أقبض عليك ، فسوف أخلي سبيلك على الفور

فلماذا تتطلع للقبض عليه إذن ، ما دمت ستطلق سراحه مرة أخرى ؟ وأنت أيضاً ياسيدى ، تبدأ بالتهام ، وبعدئذ تترافع . إنك تلتصق الوشايات ضد رجال شهيرين وبعد ذلك تمسح هذه الوشايات . ينبغي علينا أن نستدل بأنك لا تثق بدليلك ، لأنك لم تسمع من أحد ولكنك أنت بنفسك الذى قلت بأن « بنى الكمايون » هم الذين عرضوا ترساً للعدو بعدما فر هارباً

وبعد ذلك هناك الأرجيفيون ، ويعرف كل إنسان أنهم لم يرفضوا مساعدة الهلينييين الآخرين ، إلا أنهم فقط أصروا على أن يكونوا تحت القيادة الدائمة للإسبرطيين أعدائهم اللدودين . هذه هى الوقائع ، فهو يوعز بأخبث اتهام . ويكتب ، أنه عندما طلب الهلينيون من الأرجيفيين أن ينضموا إليهم ، عرف الآخرون أن الإسبرطيين لن يقبلوا اشتراكهم معهم فى القيادة ، وعلى هذا وضعوا هذا الشرط ، على أمل أن يجدوا مبرراً لبقائهم على الحياد . ويضيف أن أرتا كسر كسيس عندما علم بعد ذلك بهذه الواقعة من جانب رسول الأرجيفيين ، الذى قام برحلة إلى (صوصة) Susa ، أعلن أنه ليست هناك دولة ينظر إليها بصدقة أكثر من أرجوس ، وبعد ذلك ، وبشكل متميز ، يلجأ مؤلفنا إلى التعليقات ، معلناً أنه ليس لديه معلومات دقيقة حول هذه المسألة ولكنه يعرف جيداً أنه لا يوجد أحد بلا أنيس وأن الأرجيفيين ليسوا أسوأ حظاً فى التاريخ . ويعلق قائلاً : « إن واجبي الشخصى هذا أن أعرض ما قيل ، ولست ملزماً على أية حال بتصديقه — وهذا مبدأ استخدمه ، دون ما قصد ، فى كافة أجزاء عملى فيما يتعلق بهذا ، وهناك رواية أخرى

فيما يتعلق بما قيل عن دعوة الأرجيفيين للفرس ضد هيلاس ، لأنهم أساءوا في الحرب ضد الإسبرطيين وشعروا بأن أى شيء أفضل من وضعهم السيء الراهن . « ونذكر القارىء برواية هيرودوت التي يسجل فيها قرار « اثيربيان » فيم يتعلق بروائح وأصباغ التحنيط : « إن مراهم الفرس وملاصمهم هي خادعة أيضاً — إنهم يكرون ويفرون حول الشيء ولا يخضعون قدماً » ويلقى الرسامون أضواءهم على بروز ظلالهم . ويركز هيرودوت تشويهاًته بإنكارها ، ويرفع من تأثير إيماراته عن طريق الألفاظ . ولا يمكن بالطبع إنكار أن الأرجيفيين لم يشتركوا مع الهلينييين وأنهم تركوا مجال الشجاعة إلى الإسبرطيين حسب اعتراضهم على ترك القيادة لهم وإلى هذا الحد ، حطوا من شأن الذرية النبيلة لهرقل ، لأنه كان من الأفضل أن يحاربوا في سبيل حرية هيلاس تحت قيادة « السفينيين Siphnians أو « الكثنيين » Cythnians خيراً من أن يخسروا نصيبهم في النضال العظيم المجيد بسبب النزاع على القيادة مع الإسبرطيين ، فلماذا لم يقفوا إلى جانبه صراحة عندما وصل ؟ وربما بقوا في الخطوط الخلفية ، بسبب عدم الانضمام إلى قوات الملك ، ودمروا (لا كونيا) وقاموا بمحاولة جديدة على (تيريا) Trea ، أو حاصروا الإسبرطيين بشكل أو بآخر من أشكال التسلسل . وعن طريق منعهم من إرسال قوات كبيرة للحماة كهذه التي أرسلت إلى (بلاتايا) Plataea كانوا قد وجهوا ضربة كبرى إلى القضية الهلينية .

إلا أنه ، على أقل تقدير ، قد أعلى من شأن الأثينيين في هذا الجزء من عمله وأطلق عليهم منقذى هيلاس ، وهذا صحيح وسليم إذا لم تكن إطرأاته مشتتة بين القدح والدم وها هي ذى كلماته : « لم يكن من الممكن أن يهجر الهلينيون الآخرون الإسبرطيين ما لم يكونوا قد اكتشفوا أن الآخرين ذهبوا ينضمون إلى الجانب الفارسي في فترة يصلون فيها بأنفسهم إلى شروط مع كسر كيس . » وفي هذه المقطوعة ليس الهدف الحقيقي مدح الأثينيين . بل على العكس ، فهو يثنى عليهم فقط حتى يسيء إلى الآخرين . والقارىء يستطيع بصعوبة أن يصبر على

سبل الإهانات المرة التي يلقي بها على الطيبين والفوكيين ، عندما يذنب في حق أولئك الذين غامروا بحياتهم من أجل هيلاس ، فيتهمهم بخيانة لم تحدث في الواقع رغم أنها ربما حدثت في الذهن في ظل ظروف افتراضية وهو حتى يلقي وشاية عارضة على الإسبرطيين يجعلها مسألة عامة سواء كانوا قد ماتوا في ميدان الشرف أو وقعوا شروط التسليم ، فإن قصتهم التي يقدمونها هم في (ترموبولاي) كانت بلا شك تافهة .

وعندما كان عليه أن يصف أربعة معارك ضد الشرقيين ، ماذا فعل ؟ لقد جعل الهلينيين يهربون من (أرتميزيوم) Artemiseum ، في ترموبولاي ، عندما كان ملكهم وقائدهم يضحى بحياته من أجلهم ، جعلهم يقبعون في بيوتهم لا يفكرون في شيء سوى الاحتفال الأولمبي والمهرجانات الكارنالية ، وعندما جاء إلى (سالاميس) أفرد مساحة أكبر للملكة « أرتميزيا » أكثر مما أفرد للمعركة بأسرها ؛ وأخيراً ، في (بلاتيا) أعلن أن الهلينيين بقوا في المعركة غير عابئين بها حتى انتهت . وتخميناً ، فإن أولئك الذين ذهبوا إلى العمل وافقوا على القتال في صمت كي لا يجذبوا انتباه الآخرين ، كالشاهد الذي ورد في الملحمة الهزلية (معركة الضفادع والفيران) التي كتبها « بيجرز » Pigres أرتميزيا كفسكاهة . وكذلك أظن أن الإسبرطيين لم يكونوا أكثر شجاعة من الشرقيين وأنهم هزمواهم فقط بسبب تشتت العتاد . ويذكر أن « كركسيس » نفسه عندما كان موجوداً في (ترموبولاي) ، كان من المفروض عليهم أن يدفعون بالكرابيج إلى الأمام قبل أن يتقدموا ضد الهلينيين ؛ والآن ، من الواضح ، في بلاتيا ، أنهم أصبحوا شخصيات مهذبة ؛ ولم يكونوا أقل في الأخلاق أو القوة البدنية . أما نقطة ضعفهم فكانت عتادهم ، التي لم يكن فيها ما يقي البدن ، وكان عليهم أن يقاتلوا معرضين ضد قوات مغطاة . وإذا تصرفوا بشكل فعال في أي مجد يتصل بالهلينيين على أساس من هذه المعارك ، فإذا ما كان الإسبرطيون يقاتلون رجالاً غير مسلحين ، وإذا ما كان الباقون غير عابئين بأن المعركة كانت تحتل مكانها في الحوار ، أما إذا كانت مقابر الميت المجيد لا تحوى

أسفلها جثماناً ، وإذا ما كانت النقوش التي غطت شواهد الحرب كاذبة وإذا لم يعرف أحد الحقيقة سوى هيروودوت ، بينما اهتم كل كائن بشري آخر بهيلاس واعتقد أن منجزاتها في الحرب الفارسية كانت فوق طاقة البشر ، وقد سجلت في أسطورة . من المحتمل أن مؤلفنا ، بأسلوبه البهيج الخلاب ، وسحره ورشاقته وطرافته ، كان يروي لنا حكايات «عواجيز الفرح» بكل مهارة الشاعر ، وليس فقط بمذوبة الشاعر وتهذيبه ؛ ولا شك أن كل إنسان يجده جذاباً وخبلاً ، ولكنه يتكلم بالشر وتواري الوشاية بين نعومة عباراته الرشيقة كالزناير بين الورد . لتكن يقطاً ، وإلا فإنه يسمم عقولكم بأفكار زائفة ساخرة عن أعظم البلدان ، وأنبال الرجال في هيلاس .

نقد لوسيان الساموساطي لمعاصريه

Luican of Samosata (١٢٥ - ٢٠٠ م)

(لوسيان: مجموعة الأعمال: نص توينر ، تحقيق ك. چا كوبيتز G. Jacobitz المجلد الثاني: كيف تكتب التاريخ ، الفصول ١٤ - ١٦ ، ٤١ ، ٤٣) .

سوف أعرض لكم بعض مؤرخي هذه الحرب^(١) مما يمكن أن أتذكره من أقوالهم ، بعضها كان لي حظ سماعه في أيونيا من زمن ليس ببعيد وأخرى في أكايا Achaea في مناسبة مبكرة . وسوف أحازف بشهوتي الأدبية على الحق الذي أمضى في قوله . حقا ، سوف أكون مهياً لأقدم دليلاً دامغاً ، وإذا ما كان من اللائق أن تحول مقال إلى افتراض . وسار أحدهم قدماً مع «ربات الشعر» بنشرة لدعوة أولئك السيدات ليشاركنه في عمله . وسوف تلحظ كم كانت هذه المقدمة جديرة بالإعجاب في نغمتها وكم لاءمت بشكل طريف العمل التاريخي وكم هي مناسبة لهذا الفرع من الأدب . وأحط من ذلك بقليل قارن بين قائدنا وأخيل وبين الـ (شاه) Shah وترسيتيس Thersites ، دون أن يتأكد من أن أخيل كان

(١) الحرب البارثو . رومانية ١٦١ - ١٦٥ م (المحقق)

الأفضل لهزيمة «هكتور» Hector لاهزيمة «رسميتيس» وفي هذه الحالة فإن رجل حرب قوى كان قد (هرب من قبل) وأنه (أفضل منه) قد جاء بعد ذلك) وبعدئذ قدم مديحاً لنفسه ليؤكد أن قلته كان جديراً بموضوعه المجيد . وبعد ذلك كان هناك إطراء آزر ، وهذه المرة من مواطن له من بلدة (ميلييتوس) ، مع ملحوظة يشرح فيها أى تحسين كان قد أدخله على «هومر» ، والذي تغاضى عن بلدته فى سكون . وأخيراً ، فى ختام مقدمته ، وعد على الفور ، فى كلمات كثيرة ، أن يفخهم من أعمالنا، وأن «يقوم بواجبه» فى الإنقاذ من قدر العدو . وهذا بحق ما بدأ به روايته ، والتي انغمس فيها فى مناقشة أصول الحرب : «لقد شن الحرب ، ذلك المجرم الشاه «ولوجيسيوس» Wologesus الأبكم والذي لا يفتقر له . لكم كانت مطامعه وهكذا .

ويكفى هذا القدر عن هذا المؤلف ، وثم مؤلف آخر منهم كان معجباً جداً بثوكوديديس ، وسار بأمانة على دربه حتى افتتح موضوعه بالعبارات ذاتها ، واستبدل اسمه الخاص به . وعندما أنقلها ، أظن أنكم ستذوقون الطعم الطريف من الروح الآتيكية Attic وسوف توافقون على أنها أكثر الافتتاحيات التي سمعتموها توفيقاً : كتب « كيريوس كالبو رنيانوس من بومبي فيل » Crepereins Calpurnianus of Pomp ville تاريخ الحرب بين «البرثيين» Parthians والرومان . لقد بدأ الكتابة فور نشوب الحرب . « وبعد مقدمة كهذه ، فن نافلة القول أن تذكر كيف أنه نقل غرس الخطيب الكوركيرى إلى «أرمينيا» Armenia عندما أراد أن يلقى خطاباً هناك ، أو كيف أنه عندما شن طاعوناً على (نيسيبس) Nisibis لانتخاذه الجانب الخاطيء ، فقد أخرجها بحسنة من ثوكوديديس (١) . لقد تركته حتى يتم دفن الأثينيين البؤساء

(١) كانت الأشياء الوحيدة التي أغفلها هي (البلازجيه) والجدران الطويلة ، وفيها حلت ضحايا الطاعون إلى أثينا ، ولكنه يملك كل شيء آخر ، بما فيها السودان ، عندما انتشر الطاعون فى مصر ، وعلى الجزء الأكبر من الأراضى الفارسية على الرغم من أنه فى هذه المناسبة كان مضطراً ألا يرجل - بعيداً . (المؤلف) .

في نيسبيس وزحلت بمعرفة دقيقة عن كل كلمة سوف يعرضها بعد أن مضيت .
وحقيقة إنها لمغالطة شائعة هذه الأيام لمؤلف أن يتصور أنه يكتب ثوكوديديس إذا
ما كرر كلماته مع تغيرات طفيفة . نعم ، وهناك نقطة أخرى عند المؤلف نفسه
نسيت أن أرويها لكم . لقد استخدم العبارات الرومانية لعدد من الأسلحة
والأجهزة ، وحتى بالنسبة (للمتدق) و (الكوبرى) وغيرها . تصور كيف بدت
على نمط ثوكوديديس بسمو ، ان ترى هذه الكلمات الإيطالية المطمورة في
عبارات أنيكية ، ينزع عنها الغطاء كالجواهر ويبرز مثل هذه الفائدة الكبرى
وينسقها بهذه الروعة مع الصورة الخلفية .

ومؤرخ آخر ألف مجرد مذكرة بالأحداث بأكثر الأساليب تفاهة
وركاكة، كالتى يمكن أن نجدها في يوميات الجندي أو الصانع أو التاجر الذى يلتحق
بالجيش . إن هذا المؤرخ الهاوى كان إلى حد ما غير متمجرف . ويمكنك أن تمسك
بتلابيبه إلى فترة كنجحات الخشب أو كقطر الماء ، بدلا من شخص ذى موهبة أدبية
وتاريخية أفضل منه . إننى اختلفت فقط مع عنوانه الذى كان إطنابا أكثر من
أى شيء فى عالم الرسائل كان له حظ فى الوجود . «أسفار بارثيان ، الكتاب الأول
والكتاب الثانى، وغيره، على أيدي دكتور كاليمورفس Callmiorphus، الرماح السادس»
وارتكب بالصدفة مقدمة مؤلمة فى موضوع أن التأليف التاريخى جاء بين ثنايا الطب ،
لأن « إيسكلابيوس » كان ابن « أبولون » والأخير كان المرشد لربات الشعر
والحمى العام للتراث . وقد شرع أيضاً ، ولا أستطيع أن أتصور لماذا ، فى الكتابة
باللهجة الأيونية وتعداها على الفور إلى لهجة عامة أو لهجة يونانية متنوعة ، بعبارات
أيونية قليلة تناثر هنا وهناك مثل البرقوق فى الكمكة . وإلا لكان الحديث عادياً ،
وذلك إذا ما كان أى شيء دارج جداً .

إن المؤرخ المثالى عندى هو الجسور وغير القابل للفساد وذو العقل السامى
والمؤازر الصريح للحق . أن يوبى مطالب الحكمة القائلة بأن التين يجب أن يسمى
تيناً والمعول معولاً . إن عدم محاباة تقديره سوف لا يتأثر بالود أو النفور ، الإحساس
الطيب العاطفة ، الخجل أو العار . إنه سوف يبذل قصارى جهده إزاء كافة

شخصياته بأقصى ما يمكن أن يفعل دون محاباة أحد على حساب الآخر .
إنه سوف يضع نفسه موضع الغريب ونزيل أرض الكتب ، يطبق القانون على
نفسه ولا يعترف بحق الانحياز إلى الرعية . إنه لن يتوقف ليضع في اعتباره
ما سوف يظنه هذا أو ذلك وإنما يقرر الوقائع .

إننى أعجب بقاعدة ثوكوديديس ومعياره عن الكتابة الجيدة والرديئة . (لقد
كان يفكر بالشهرة التي صاحبت هيرودوت ، والتي كانت كبيرة لدرجة أن مجلداته
سميت بأسماء عرائس الشعر) ويزعم ثوكوديديس أنه أسهم دائماً في المعرفة أكثر
من القيام (بعمل بطولى) سريع الزوال ، ونال الثقة لمقاومة إغراء التأنق أو أن يترك
للخلف سجلاً بالوقائع كالتي حدثت فعلاً . وهو يقدم أيضاً فكرة المنفعة وما هو
معروف بالهدف الفعلي للتاريخ ، والذي ، كما يوضح هو ، يمكن الجنس البشرى
من أن يناضل بنجاح مع المشاكل الجارية في ضوء سجلات الماضي ، وفي حالة
الأحداث التي تكرر نفسها .

وهذه هي الروح التي أريد أن أجدها في مؤرخي ، أما فيما يختص بالإلقاء
والتعبير ، فإننى لا أريده أن يكتسب ، عندما يبدأ في الكتابة ، النهاية المقتضبة في
أسلوب الخبير بلذنته المبالغ فيها ، والأناقة والسلاسة . وأريد شيئاً ما أقل عدوانية
- الفكر المتتابع والمركز ، واللغة الصافية والعملية ، والعرض الممتاز .

الجزء الرابع

ختاميات

كسينوفون

(تاريخ الشؤون الهلينية: الكتاب السابع . الفصل الخامس ٢٦ — ٢٧)

كانت نتيجة المعركة^(١) على النقيض تماماً مما توقعه أى إنسان . إذ إن سائر هيلاس تقريباً قد احتشدت إلى هذا الجانب أو ذاك ، وكان من المسلم به ، أنها إذا ما دخلت موجة العمل ، فإن المنتصرين سوف يكونون سادة بينما سوف يكون المهزورون تحت رحمتهم ، إلا أن الله قد صرفها بحيث أن الجانبين قد شيداً أنصبه تذكارية في ذكرى النصر بينما لم يحاول أى من الفريقين أن يمنع الفريق الآخر من فعل هذا ، وقد رد كل من الجانبين قتلى العدو في ظل راية الهدنة في ذكرى النصر بينما تلقى كل فريق قتلاه في ظل راية الهدنة في قبول الهزيمة ، وزعم كل فريق بأن النصر معقود له على الرغم من أن أياً منهما لم يستطع أن يبدى أقل كسب في الأراضي، أو الحلفاء، أو الإمبراطورية خلاف ما يمتلكونه قبل المعركة. وعلى العكس، كان هناك عدم استقرار كثير واضطراب في هيلاس بعد المعركة أكثر مما كان قبلها — ولكننى لأرى أن أوصل روايتى أكثر من هذا وسوف أترك بقية ذلك إلى أى مؤرخ آخر يهتم بتسجيلها .

بوليبوس

(الكتاب ٣٨ ، الفصول ١ — ٤ والكتاب ٣٩ الفصل ٨)

لقد عانت هيلاس في زمانها فترات انهيار متكررة ، في الامتداد العام كما هو الحال في الامتداد المحلي ، إلا أنه لم يكن هناك أحد من أعدائها السابقين يمكن أن يتميز بشكل عادل بالاسم، (كارثة) بكل مترادفات تلك الكلمة، كأحداث جيلنا^(٢) .

(١) معركة ماتينيا وقعت ٣٢٦ ق . م بين طيبة واسبرطة مع حلفائها ، وفقد فيها المؤلف

ابنه (المحقق)

(٢) نهوض مقدونيا الأخير في ١٤٩ — ١٤٨ ق . م والحرب بين الاتحاد الأخرى

وروما في ١٤٦ ق . م (المحقق) .

وليس من البساطة أن ترثى للهلينيين بسبب آلامهم في هذه المناسبة . وفي ضوء الوقائع كما تدرك تفصيلاً ، يجب أن ينظر إليهم على أنهم مسئولون عن الكارثة بسبب أعمالهم المتممة ، حتى مأساة قرطاجة الفائقة لم تكن كبيرة لدرجة أن تقارن بمأساة هيلاس هذه ، والتي تفوقها فعلاً في الأبعاد في بعض النواحي . لقد خلف القرطاجيون على الأقل للأجيال المقبلة مواد لتطويع ذكورتهم إلى أقصى درجة ، بينما لم يقدم الهلينيون أى قواعد معقولة كيفما كان لتعتبر أعداءاً لأخطائهم . وفضلاً عن ذلك ، فإن القرطاجيين كانوا سعداء لكونهم قد فنوا وقت الكارثة وتحملوا من كل وعى مقبل عن مصائبهم ، بينما أصبح الهلينيون مشاهدين لكوارثهم حتى يخلفوا مصائبهم إلى أبناء أبنائهم . ومن المعتاد أن يرثى للذين قاسوا الشدة في بلاء أكثر من أولئك الذين فارقوا الحياة ساعة المحنة ، وعلى هذا القياس ، فإن مصائب هيلاس يرثى لها أكثر من مصير قرطاجة — مالم نتجاهل ، في تقبل الحكم ، اللياقة والشرف ونظرة بشكل استثنائي إلى اعتبارات مادية . وسوف يتحقق أى قارىء من صدق قضيتي الراهنة ، بتذكر المصائب التاريخية لهيلاس من أجل أن يقارنها بهذه الكارثة الأخيرة .

وكان غزو « كسر كسيس » لأوروبا هو إحدى المناسبات التاريخية التي ألقى الحظ بفظائنها على رأس هيلاس . وكانت هيلاس بأسرها وقتئذ في ورطة إلا أنه من الملحوظ أن قليلاً من أبنائها قد تدهور — وهي ملحوظة صحيحة على الأخص عن الأثينيين ، الذين يحتاطون بما فيه الكفاية للجلاء عن بلادهم في الظروف الحسنة ومعهم نساءهم وأطفالهم . وبالطبع ، فإن الأثينيين ، لم يهربوا سالمين من الأزمة ، لأن الشرقيين قد احتلوا عاصمتهم ودمروها بروح انتقامية ، إلا أن الضحايا في الوقت نفسه ، هم أبعد ما يكون حتى يجلبوا لأنفسهم العار أو الفضحية ، أحرزوا مجداً عريضاً واشتهروا لأنهم ضحوا عامدين بكل ما لديهم في سبيل أن يقاسموا زملاءهم الهلينيين حطهم . ونتيجة لذلك ، فإنهم كوفئوا على قرارهم النبيل ، ليس من قبيل الاسترداد السريع لبلادهم وأقاليمهم الوطنية ، بل بتطور مكنهم بعد فترة ليست طويلة أن ينازعوا الإمبراطيين السيادة على سائر هيلاس . وفي تاريخ متأخر ، عندما حطم الإسبرطيون

قوتهم الحربية مرة أخرى ، فقد اضطروا إلى الهبوط إلى ممر كهذا بحيث إنهم أجبروا على تخريب تحصينات مدينتهم ، إلا أن اللعنة هنا لم تسقط على أثينا فحسب ، بل على إسبرطة أيضاً ، إلى الحد الذي استغلت فيه بعنف القوة التي وهبها الحظ إياها. وقد هزم أهل طيبة بدورهم الإسبرطيين ، وفقد الآخرون سيطرتهم على هيلاس ، وبعد أن تنازلوا عن إمبراطوريتهم في الخارج ، ترتب على ذلك أن انحصروا داخل حدود لاكونيا . ومع هذا ، فبالإضافة إلى ذلك كله ، فأى عار في ذلك ، وفي مجال المنافسة على أعلى الجوائز الشرفية ، كان عليهم ببساطة أن يرغبوا على أن يشقوا طريقاً للتراجع داخل حدود مجالهم القديم . وهكذا فإن الأحداث التي ذكرتها يمكن أن يطلق عليها شرعاً (بلايا) ولكن ليس من الممكن أن توصف بأنها (كوارث) . وقد اضطر « الماتينيون » (كى يستمروا) إلى أن يغادروا موطنهم ، عندما اقتحمها الإسبرطيون ، وأن يستقروا في قرى مبعثرة ، إلا أن كل خزي هذه الحماقة وقع على إسبرطة لاعلى (ماتينيا) . وفي تاريخ متأخر نوعاً ، رأى أهل طيبة موطنهم قد تهدم ، عندما كان الإسكندر الذي كان يفكر في غزو آسيا ، يحسب أن الرعب الذي انتشر بفعل عقاب طيبة من شأنه أن يجعل هيلاس في امتحان ، بينما كان قد انشغل من قبل بأطماعه الخاصة . إلا أنه عندما يرثى أى أحد طيبة باعتبارها ضحية ظلم قاس ، لا يسعى أحد إلى تبرير هذا العمل من جانب الإسكندر . وبالتالي ، لم يمض وقت طويل حتى حصل أهل طيبة على تأييد مكثف من إعادة احتلال وطنهم بأمان . والحقيقة التي تقضى بأن تعاطف الجانب الثالث مادة لا أهمية لها لضحية سوء الحظ ، من زاوية الظاهرة العامة حتى إن الحظ نفسه دار في تعاطف مع اتجاهات الرأى العام ، حتى ندم المنتصرون تماماً وأصلحوا بأيديهم الكوارث التي أنزلوها بشكل لا يمكن الدفاع عنه . وكذلك فقد قدر على خالكيس و كورينثا وبلاد أخرى عديدة ، بسبب قيمتها الاستراتيجية لفترة من الخضوع تحت تاج مقدونيا ، والتي كانت الحاميات المقدونية قد احتمتها في هذه الفترة ، إلا أن المجتمعات التي وقعت في الرق كان عزائها أن كل شخص كان يتطلع إلى أن يفعل ما في وسعه لتحريرها ، بينما الذين دمروا

حريتها كان ينظر إليهم بكرهية عامة وعداء كامل . . . وباختصار عندما قامى الهلينيون من الانهيار أو وقعوا في الحزن في الفترات السابقة، كانت مجتمعات بعينها هي الوحيدة التي تأثرت عموماً ، وكانت مناسبات العثرة إما مزاحمة للسلطة السياسية وإما أعمالاً أخرى من أعمال الخيانة من جانب الملوك والحكام . ولهذا الأسباب، فإن الأمثلة قليلة بالتأكييد ، التي يلحق فيها الخزي بالضحايا أو التي تصبح فيها كلمة (كارثة) مرتبطة بشكل دائم بمصائبهم . و (المصائب) اسم صحيح للكوارث التي لا مبرر لها في الحياة العامة كما هو الحال في الحياة الخاصة ؛ بينما اسم (كارثة) يجب أن يحفظ بشكل استثنائي لأعمال الحماقة التي تجلب الغار على مؤلفيها .

وأياً ما كان الأمر، ففي الفترة موضع البحث ، فإن (الكوارث) التي وقعت في الوقت ذاته على البليونيوزيين والبيوتيين والفوكيين . . . (١) واللوكرين وعديد من الجماعات الهلينية على الساحل الأدرىاتيكي ، كما هو الحال عند المقدونيين (٢)، لدرجة أن الفسحة في هذه المناسبة كانت كبيرة من ناحية الكم والكيف عن أى كارثة سبقتها . وفي الحقيقة ، ففي هذه المناسبة قاست هيلاس ما لا تطلق عليه (مصيبة) على الإطلاق، إلا أن (المصيبة) الخزية جداً من المعقول أن تكون من نوع غير مشرف (٢) . لقد أظهرت مزيجاً من عدم الإخلاص والجبن وارتكبت أعمالاً (٣) مروعة تلوث اسمها (٣) . وعلى هذا ، فقد أضاعت كل شيء كان قد شرف قدرها، وأبناها ساعة المصير هذه -- وظهورهم إلى الحائظ إن لم تكن مجرد سلبية جبانة -- قد ساموا باختيارهم الصولجان والفتوس في بلدانهم . لقد سيطر عليهم الرعب بسبب شناعة خطاياهم الفردية -- إذا ما كان من العدل أن

(١) اسم ضائع في المخطوط (المحقق)

(٢) في هذه الفقرة ، حيث النص اليوناني مشوه بشكل سيء ، تتبعث التجديد الذي

الذي قام به فردريش مولتش (المحقق)

(٣) التجديد الذي افترضه تيودور هيس (المحقق) .

نطابق عليهم (فردية). وأنا شخصياً، ينبغي أن أقول إن الأغلبية قد زادت عن الحق إلى الضلال، وإن الخطيئة توجد عند السياسيين الذين يغذيهم جهل بهذا العمق .

وبهذا الصدد، سوف لأقدم أى عذر إزاء الخروج على عرف الرواية التاريخية وتقديم ما قد يبدو أنه أكثر جدلاً وحسداً شخصياً على عملي . ومن المحتمل أن أتعرض للنقد في بعض أجزاء الكتابة بشكل حاد، عندما يكون واجباً أولاً وقبل كل شيء هو أن أسدل ستاراً على خطايا الهلبيين . وأنا شخصياً أختلف في هذا . وأعتقد أن الناس ذوى التفكير السليم، لا ينظرون إلى الجبان الذى يتنصل كصديق أصيل، من واجب الحديث الصريح؛ وعلى السياق ذاته، لا ينظرون إلى الجبان الآخر، الذى حاد عن الصواب خوفاً من إيذاء مؤقت كان مرتبطاً ببعض أناس معينين، كمواطن حق، وعندما نصل إلى مؤرخ المسائل العامة، فإن المهنة ينبغي أن تسد أبوابها في وجه الكاتب الذى يقيم وزناً لأى شيء أكثر من الحق. ويصل السجل التاريخي إلى جمهور أكثر اتساعاً وفترة أطول من الوقت أكثر من أى ملاحظات عابرة؛ وهذا من شأنه أن يحدد القيمة التى يعطيها المؤلف للحق والتي ينبغي على قرائه أن يضعوها في مستوى عظيم . وفي فترة الأزمة . فإن واجب كل هلىنى أن يساعد هيلاس بكافة ماله من وسائل — ليدافع عنها، ويسدل ستاراً على الخطايا، ويدافع مع البتهلين الذين يرثون لها — وهذا ماقت به بكل إخلاص وقت الشدة . وأياً كان الأمر، فإن واجب الهلىنى أيضاً، عندما يكون في موقف يحتم عليه أن يخلف للأجيال المقبلة سجلاً تاريخياً عن الماضي، أن يتركه كاملاً دون مازيف . إن غرض التاريخ ليس إمتاع القارىء على المطالعة، وإنما إفادة روح القارىء، وإنقاذه من التعثر مرة واحدة من المرات العديدة

وما إن أتممت مهمتى^(١)، حتى غادرت روما إلى بلدى . وأكاد اشعر

(١) ألحق بوليبوس مستشاراً خبيراً لهيئة المعوزين التى كانت قد أرسلت لتصفية الاتحاد الآخى بعد الحرب الرومانية — الآخية عام ١٤٦ ق.م بعد الحصول على كل تهديته ممكنة من جانب البعثة حتى يتم أعمالهم بعد رجيلهم . ثم يتبعهم إلى روما بنفسه ليقدم تقريره عنها .

إنني حققت على الأقل بعض هذه الأهداف السياسية التي جاهدت في سبيلها طوال حياتي ، وقد عادت على صداقتي لروما بالجزء السخي . والآن سوف أصلي إلى سائر الأرباب وأتوسل أن أفضى بقية أيامي بنفس النشاط وفي ظل الظروف نفسها. لقد لاحظت أعمال الجحوظ وأعرف طبيعة عبقريتها نحو الحاقده على الجنس البشري ، وأعرف أيضاً أن سيطرتها مطلقة تماماً على هذه الواحات في الحياة البشرية والتي تبدو فيها أوهام الضحية أكثر دقة وأكثر أمناً .
